كالتاخشان

نظرية الامة في الماركسية اللينينية

دار التقدم

المكتبة التقدمية

ك. ا. التاختشان

نظرية الامة في الماركسية اللينينية

دار التقدم
موسكو

С. Калтахчян

МАРКСИСТСКО-ЛЕНИНСКАЯ ТЕОРИЯ НАЦИИ
И СОВРЕМЕННОСТЬ

На арабском языке

© Политиздат, 1983 г.

© الترجمة الى اللغة العربية – دار التقدم ، ١٩٨٨
طبع فى الاتحاد السوفييتى

К $\frac{0302020200-165}{014(01)-88}$ 219—88

ISBN 5-01-000741-x

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!

هذا الكتاب ليس من نسخ الصوت الشيوعي، بل وجده الصوت الشيوعي اثناء بحثه في الإنترنت. وقد قمنا بتطهيره من خلال:

١) حذف وازاله كل ما يمت بصلة لأفكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة؛

٢) حذف وإزالة كل ما يمت بشوفينية الدولة العظيمة؛

وقد اضطررنا الى اعادة صياغة بعض الفقرات والجمل لتحقيق ما ورد أعلاه.

٣) حذف وإزالة فصول الكتاب التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر و"بدلاً من الخاتمة"، التي تعرض لتوصيف عن حالة طبيعة العلاقات بين القوميات المختلفة في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية السابق، بالنظر لكون هذا التوصيف غير صحيح وبعيد عن واقع الحال كما أثبتت احداث انهيار وتفكك الاتحاد السوفياتي السابق، ذلك إن اخطاء السلطة السوفياتية في عهد ستالين أدت الى الإنحراف عن المبادئ التي وضعها لينين العظيم لتنظيم العلاقة بين القوميات المختلفة داخل اطار الوطن السوفياتي .... وقد حذفنا عناوين هذه الفصول من فهرس الكتاب أيضاً.

ونود أن تحذر القراء الأعزاء الى احتواء الفصل الأول من هذا الكتاب على أفكار خاطئة عن إمكانية توارث الصفات المكتسبة!! إن هذه الأفكار إن دلت على شيء، فهي تدلل على مدى العقلية المتحجرة لقادة ومنظري الحزب الشيوعي السوفياتي، ودعاة الماركسية الروسية عموماً!! انهم يرفضون العلم الحديث لا لشيء سوى الحفاظ على نظرية أنجلس في "دور العمل في تحول القرد الى إنسان" على الرغم من ان الإعتراف بخطأ هذه النظرية النشوئية لا ينقص من مكانة الماركسية – اللينينية، لا سيما اذا عرفنا ان الرفيق لينين قاد الطبقة العاملة الروسية الى الظفر بالسلطة، ومات وحُنِّط، قبل أن يُكتشَف مؤلف أنجلس "ديالكتيك الطبيعة"، الحاوي على هذه النظرية .... وزيادةً منّا في التأكيد على هذه النقطة، قمنا باضافة ملاحظة بهذا الصدد، الى الصفحة ١٨ حسب ترقيم الصفحات في النسخة الورقية لهذا الكتاب، على شكل Sticky Note باستعمال محرر فايلات PDF.

لذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

المقدمة

يشكل المذهب الماركسى اللينينى فى الامة والعلاقات القومية * جانبا هاما من نظرية الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى والشيوعى . وتكتسب المسألة القومية ومشكلات العلاقة بين الطبقى والاممى والقومى اهمية بالغة وحدة خاصة فى الصراع الايديولوجى الراهن .

ان الماركسيين اللينينيين يحلون المشكلات الاجتماعية ، بما فيها القومية ، حلا علميا ، يرتكز الى المعايير الطبقية . اما اعداء الشيوعية فيبذلون قصارى جهدهم «لاثبات» حتمية تصادم الامم والشعوب . وهم يستندون الى النزاعات الاتنية ، التى ازدادت حدتها فى العالم خلال العقدين الاخيرين او الثلاثة (متجاهلين ، بالطبع ، اساسها الطبقى ودور الامبريالية فى تأجيجها) ، فى محاولة «للبرهان» على ان مشاعر المركزية الاتنية والقومية والعرقية تلعب الدور الحاسم فى سلوك الناس وافعالهم . فليس الوضع الطبقى ، بل «قرابة الدم» و«الروح القومية» ، هما اللتان تربطان الناس – على حد زعمهم – بعرى التفاهم والتعاطف المتينة .

ان الفهم المشوّه لما يشاهد احيانا من تأجج المشاعر القومية فى مختلف بقاع العالم يمارس تأثيرا سلبيا بالغا على اذهان الملايين من البشر . هذا ناهيك عن ان الانتهازيين والتحريفيين يستبدلون فى حلهم لمشكلات التطور الاجتماعى ، المعايير الطبقية بمعايير قومية ، ويطرحون ، على هذا الطريق ،

* نستخدم كلمة «الامة» مقابل nation و«القومية» مقابل nationalité (بالروسية «ناسيونالنوست») و«الشعب» مقابل peuple (بالروسية «نارودنوست») كاشكال تاريخية لاجتماع الناس ، ونستخدم صفة «القومية» للكلمتين «الامة» و«القومية» على السواء . **المعرب** .

مختلف الوان «الماركسيات» و«الشيوعيات» القومية والمحلية والقارية . ثم ان التلاحم بين الانتهازية والقومية يؤدى الى تشويه طابع الاشتراكية الاممى ، الى عزلها عن الوطنية .

ولا يتورع الانتهازيون احيانا عن ان ينسبوا العدمية القومية الى ماركس وانجلس ولينين ، انطلاقا من ان هؤلاء قد اكدوا على ضرورة اخضاع المسألة القومية لمصالح نضال البروليتاريا الطبقى ، لمصالح الاشتراكية . ولكن هذا الاخضاع ، عند مؤسسى الماركسية اللينينية ، لا يعنى ، اطلاقا ، الحط من قيمة المسألة القومية . فقد كانوا يؤكدون دوما على ان البشرية لا تنقسم فقط الى طبقات ، بل وتتألف ايضا من جماعات قومية ، ولذا فان مصائر الاشتراكية ترتبط ، من نواح عديدة بالحل الصحيح للمسألة القومية ، الذى لا مكان فيه لمعيار قومى من لون خاص ، بل يهتدى بمعيار علمى واحد ووحيد ، هو المعيار الطبقى .

لقد وضع ماركس وانجلس نظرية اقتصادية تاريخية فى الامة والعلاقات القومية ، طوّرها لينين فى ظروف العصر الحاضر . ولم يكتف لينين بالبرهان العلمى على ارتباط الثورات البروليتارية بحركة التحرر الوطنى ، وعلى حتمية انهيار نظام الامبريالية الاستعمارى ، بل وكشف عن سبيل تحويل امم المجتمع الرأسمالى الى امم اشتراكية ، وبين طرق تقاربها وتشكل صيغ عليا من اجتماع الناس . كما طوّر لينين النظرية الماركسية فى الاممية البروليتارية ، وضرورة التصدى لكافة تجليات العصبية القومية والشوفينية ، ورسم سبل تذليلها وطرق بلوغ الاخوة الاممية والصداقة بين الشعوب ، ومن ثم تقاربها ووحدتها فى المجتمع الشيوعى الناضج .

وقد بين التاريخ صحة النظرية الماركسية اللينينية . ففى ايامنا يحدث نمو عاصف لوعى الذات الطبقى والقومى لدى شعوب العالم ، وخاصة فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ويأتى احتدام الصراع بين المنظومتين الاجتماعيتين العالميتين ، وظهور امم جديدة ، وتغير البنية الاجتماعية الطبقية للامم القديمة وتبدل العلاقات فيما بينها ، ناهيك عن

تطور الامم الاشتراكية وتدعم الصلات بينها ، وتشكل صيغة تاريخية جديدة لاجتماع الناس – الشعب السوفييتي ، وظهور وتطور المنظومة الاشتراكية العالمية ، ليطرح جملة من المسائل الجديدة ، التى تتطلب المعالجة النظرية .

وقد سبق للينين التحذير من العواقب الوخيمة للموقف السطحى من تركة ماركس وانجلس . ثم ان الصعوبات القائمة على طريق فهم عدد من الظواهر الاجتماعية المستجدة تبين ، هى الاخرى ، ضرورة المضى قدما فى المعالجة الماركسية لبعض القضايا النظرية . ولكن لا يزال يصادف ، حتى الان ، منظرون ، يتوهمون انه بالامكان استيعاب الظواهر الجديدة فى الحياة الاجتماعية ، والتطوير الخلاق للنظرية وللممارسة الثوريتين ، بدون الاستناد الى النظرية الماركسية اللينينية . ولكن العملية الثورية العالمية قدمت ، ولا تزال تقدم ، الامثلة التى تبين مدى الفشل الذريع ، الذى يمنى به من يهجر الارضية العلمية للماركسية اللينينية .

ان النتائج الايجابية للابحاث الماركسية اللينينية ، ومعها اخفاقات من تجاهل نظرية الماركسية اللينينية ومنهجيتها ، تبين ، على السواء ، صحة كلمات لينين : «ان الاستنتاج الوحيد من الرأى ، الذى يتقاسمه الماركسيون ، حول كون نظرية ماركس حقيقة موضوعية ، يقوم فيما يلى : حين نسير **على طريق** النظرية الماركسية نقترب اكثر فاكثر من الحقيقة الموضوعية (دون ان نستنفدها ابدا) ، اما عندما نسير **على اى طريق آخر** فليس بوسعنا الوصول الا الى الضلال والخطأ» * .

يعالج كتابنا هذا اهم مسائل النظرية الماركسية اللينينية حول الامة والعلاقات القومية ، وذلك فى ضوء ارتباطها الوثيق بالعصر الراهن . وقد استندنا فى بحثها الى احدث انجازات الفلسفة والاتنوغرافيا والبيولوجيا والانتروبولوجيا والسيكولوجيا واللسانيات .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، الطبعة الروسية الخامسة ، المجلد ١٨ ، ص ١٤٦ («المادية ومذهب نقد التجربة») .

وبما ان «منظومات النمط الاجتماعي هي **اعقد المنظومات**» * ، والجماعات القومية والاممية تندرج في هذا الصنف من المنظومات ، فان دراستها تبدأ بالنظر في ما يدعى بـ«مشكلة الانسان البيوسوسيولوجية» . فان لتبيان الفهم الماركسي لماهية الانسان من حيث كونها جملة العلاقات الاجتماعية ، دوره في اثبات الطبيعة الاجتماعية لاي شكل من الاجتماع البشري ، وفي تفنيد مزاعم العنصرية والشوفينية .

ويبحث الكتاب في الظروف الموضوعية لتشكل الامم ويدرس الدور الذي تلعبه في تطورها الخصوصيات القومية للثقافة والنفسية ولوعي الذات القومي ، ويتتبع ما للثورة العلمية التكنيكية وغيرها من اهم ظواهر الحياة الاجتماعية من تأثير على العلاقات القومية في ظل الرأسمالية والاشتراكية ويبين الاهمية القصوى للتمييز بين مفهومي «الامة» و«القومية» على طريق الدراسة والفهم الصحيح لعدد من المشكلات الجدية في تطور الامم ، وعلى طريق التصدي للعصبية القومية . كما ويعنى المؤلف بدراسة مسائل تحول الامم والشعوب الى امم وشعوب اشتراكية ، وتكوّن الاشكال الاجتماعية والاممية لاجتماع الناس ، وديالكتيك الاممي والقومي في التطور الاجتماعي . واولينا اهتماما كبيرا لتفنيد التشويهات الاصلاحية البرجوازية والتحريفية للنظرية الماركسية اللينينية في الامة والعلاقات القومية ، ولنقد الصيغ العصرية من العنصرية والشوفينية .

---

* افاناسيف . المنظومية والمجتمع . موسكو ، ١٩٨٠ ، ص ٥١ .

الاشكال ما قبل القومية لاجتماع الناس

فى الادبيات البرجوازية المعاصرة ، الفلسفية السوسيولوجية والسيكولوجية والاتنوغرافية ، تعالج مشكلة الانسان ، كقاعدة عامة ، معالجة مشوهة ، وذلك من المواقع المثالية والعنصرية والشوفينية . ومن هنا يأتى تزييف الفهم العلمى لاشكال اجتماع الناس التاريخية . اما فى صلب الرؤية الصحيحة لطبيعة اى شكل تاريخى لاجتماع الناس ، بما فيها العرق والامة وخصوصيات معالمها الروحية ، فتقوم النظرة الماركسية الى ماهية الانسان باعتبارها مجمل العلاقات الاجتماعية .

١ - ديالكتيك صيرورة الانسان والمجتمع

ان العلم المعاصر يثبت على نحو قاطع صحة قول الماركسية بان صيرورة الانسان والمجتمع عملية ديالكتيكية موحدة . فلا صيرورة للانسان بدون صيرورة المجتمع ، وبالعكس . ففى حال الفصل الميتافيزيقى لاحداهما عن الاخرى تنهض مسألة مستعصية : ايهما الاسبق - المجتمع ام الانسان ؟ ان وحدة صيرورة الانسان والمجتمع هى التى تتيح فهم الطبيعة الاجتماعية لماهية الانسان واى اجتماع بشرى ، بكل خصوصيات تطورهما الروحى . فهى تبين ان تمايز اسلاف الانسان عن عالم الحيوان ، والتغيرات المورفولوجية فى بنية اجسادهم ، قد تمت فى ظل التأثير الحاسم للعوامل الاجتماعية ، وان هذه التغيرات ذاتها قد سرّعت وتائر تطور المجتمع البشرى .

ولكن التفسير العلمي لماهية الانسان ومختلف الجماعات

البشرية يتناقض مع مصالح الطبقات الاستغلالية . ولذا فان ايديولوجيي النظريات البرجوازية النخبوية والعنصريين والشوفينيين ينفون الماهية الاجتماعية للانسان ولاشكال اجتماع البشر . وهم يسعون لتبرير تفاوت الناس والاعراق والطبقات والامم انطلاقا من تفاوت مزعوم فى التركيب البيولوجى والتكوين النفسى . ولهذا الغرض يشوّه ايديولوجيو البرجوازية انجازات العلوم ، الامر الذى تدل عليه الموجة الجديدة من العنصرية النفسانية والبيلجة (ابتذال البيولوجيا) واليوجينيا الجديدة فى البلدان الرأسمالية المتطورة ، وخاصة فى الولايات المتحدة . ويدور اليوم صراع ايديولوجى ضار حول مسألة العلاقة بين البيولوجى والاجتماعى فى الانسان .

ثمة عدد من العلماء البرجوازيين ، الذين يستخدمون الانجازات المعاصرة للبيولوجيا الجزيئية وعلم الوراثة والسيكولوجيا بهدف تقديم تبرير «علمى» للتفاوت فى قدرات الناس ، حتى وطبقات واعراق وجماعات اثنية باكملها . ومنذ الستينات راحت العنصرية «العلمية» ترفع رأسها اعلى فاعلى ، وتتحدث بصوت اكثر فاكثر علانية . فان انصارها ، الذين يبرز بينهم السيكولوجى الامريكى جينسين ، البروفيسور بجامعة بيركلى ، ومواطنه شوكلى ، الحائز على جائزة نوبل للفيزياء ، والسيكولوجى الانكليزى ايزنك ، «يبرهنون» ، اعتمادا على معطيات «علمية» مزيفة ، واستنادا الى اختبار ما يسمى بـ«معامل الذكاء» ، ان مختلف الطبقات والاعراق والاتنوسات تملك قدرات ذهنية متفاوتة ، وان مستويات الذكاء تتحدد بعوامل وراثية ، وهذه القدرات والمستويات ثابتة لا تتغير بالنسبة لكل جماعة طبقية او عرقية او قومية ، حتى ان تفاوت وضعها الاجتماعى فى المجتمع يعود الى السمات البيولوجية ، التى تنتقل بالوراثة .

ولكن ليس فى مثل هذه المزاعم شىء الا وسبق ان قال به انصار نظريات العنصرية الانتروبولوجية والداروينية الاجتماعية قبل قرن من الزمن . وفى اواخر القرن العشرين تنبعث هذه النظريات البالية وتتخذ صيغا جديدة

(الجينسينية ، مثلا) ، وتتستر وراء انجازات علوم البيولوجيا والوراثـــة والنفس المعاصرة . وقد اعطى لينين فى كتاب «المادية ومذهب نقد التجربة» نموذجا رائعا على تفنيد وفضح مثل هذه التمويهات . فعلى تخوم القرنيين الماضى والحالى راح ماخ وانصاره يطرحون فلسفتهـــم على انها «فلسفة العلـم» الجديدة ، فجاء لينين ان هذه المدرسة الفلسفية الرجعية لا ترتبط بالاكتشافات العلمية العظمى ، وضمنا فى الفيزياء ، بل بالتشويهات المثاليـــة لتلك الاكتشافات . ويصح هذا القول على الجينسينية ، التى لاقت رواجا واسعـا فى الغرب رغم النقد العنيف ، الذى جوبهت به من طرف العلمـــاء التقدميين ، بمن فيهم الامريكيون .

وجدير بالذكر ان البيلجة السافرة او النظرة اليوجينية الى طبيعة الانسان لا تصادف لدى الفلاسفـــة الماركسيين الا نادرا ، وان كانت تصادف عندهم احيانا محاولات لفهـــم الطبيعة البشرية فهما ثنويا . ولا تتجلى هذه الثنوية فى الاخذ بالاعتبار التحديدات الطبيعية لوجود الانسان ، بل فى النظر الى الاجتماعى والبيولوجى فى الانسان على انهمـــا مبدآن متوازيان ، لا يتداخلان . اما المؤلفون البرجوازيون ، الذين وصلوا حد وضـع «علم جديد» — السوسيوبيولوجيـــا ، فانهم ، كقاعدة عامـــة ، يؤكدون على اولوية البيولوجى ، ويعتبرون الانسان مجرد «حيوان متعقـــل» ، تحدد الجينات (المورثات) نفسيته وسلوكه .

ان وجهات نظر انصار الفهم الثنوى لماهيـــة الانسان تتراوح بين التأييد المتستر للبيلجة وبين التسليـــم ، فى حقيقة الامر ، باجتماعية الانسان . ويخشى هؤلاء الوقوع فى الاجتماعوية المبتذلة فيؤكدون على ان للانسان بيولوجياه ، عضويته . وطبيعى انـــه سيكون من المضحـــك انكار ان الانسان كائن جسدى ، ذو عضوية ، له بنية بيولوجيـــة معينة . وفضلا عن ذلك ، فقد سبق لنظريـــة داروين فى الوراثة والتغير والاصطفاء الطبيعى كعوامل حاسمة فى التطور البيولوجى للعضويات ان بينت ان الانسان تحدر من نوع من الحيوانات ، ولذا فان ثمة صلة وراثية مباشرة ، تربطـــه

بعالم الحيوان . ولكن المهم هنا هو انه تمت قفزة نوعية من البيولوجيا الحيوانية الى البيولوجيا البشرية . وفى ضوء هذا يتعذر من الآن فصاعدا النظر الى مشكلة السوسيوبيولوجي نظرة ثنوية . فالعلم يثبت صحة الواحدية المادية ، وقولها بانه «**مثلما** ينتج المجتمع نفسه **الانسان** بما هو **انسان** ، فان الانسان **ينتج** المجتمع ايضا» * .

ثم ان تكوّن البيولوجيا البشرية كحصيلة لارتقاء البيولوجيا الحيوانية ينبغى النظر اليه ، كما يقول الاكاديمى فيدوسييف ، على انه ترابط وتوارث متطوران تاريخيا ، بين البيولوجى والاجتماعى . «فالوحدة الواقعية الحقة ، لا التطابق بين هذا وذاك ، تتحقق ، قبل كل شيء ، فى **نشاط** الناس العملى ، اى الاجتماعى فى جوهره» ** .

ان نفى تداخل البيولوجى والاجتماعى ، انكار وحدتهما ، غالبا ما ينعكس فى صورة المبالغة بدور البيولوجى . فتبعا لرأى الثنويين المعاصرين يلزم ان الانسان كائن بيولوجى «فى اطار جلدته» وكائن اجتماعى خارجها . «ومن هنا ينتج انه ليس للانسان ماهية اجتماعية فردية داخلية ، وان الاجتماعى يتواجد خارج الفرد ، فى منظومة العلاقات الاجتماعية الخارجية بالنسبة له . وعلى هذا النحو يتبدى المجتمع حصيلة للجمع بين كائنات بيولوجية ، تنخرط ، برغم طبيعتها البيولوجية ، فى العلاقات الاجتماعية» *** .

تتمحور المناظرة الاساسية بخصوص ماهية الانسان حول الفهم الاحادى ، المادى الديالكتيكى ، والفهم الثنوى ، المثالى

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٤٢ ، ص ١١٨ (ماركس . مخطوطات ١٨٤٤ الفلسفية الاقتصادية) .

** ب . ن . فيدوسييف . مشكلة الاجتماعى والبيولوجى فى الفلسفة والسوسيولوجيا . — فى كتاب : البيولوجى والاجتماعى فى تطور الانسان . موسكو ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠ .

*** ف . ف . ارلوف . حول طبيعة الانسان الاجتماعية التكاملية . — فى كتاب : العلاقة بين البيولوجي والاجتماعي في الانسان ، ص ١١٨ .

الميتافيزيقى لها . وقد يتراءى للوهلة الاولى ان البحث عن تفسير صفات الانسان النفسية فى الاساس المادى للوراثة (فى DNA) ، او فى الوظائف الفيزيولوجية لنيرونات الدماغ هو المادية بعينها . ولكن من المتعذر العثور على نفسية الانسان سواء فى وظيفة الجينات ، او فى وظيفة النيرونات ، وذلك لسبب بسيط ، هو ان مستواها يتعدى اطار البيولوجيا . فالبحث عن تفسير للظواهر النفسية فى الوظائف البيولوجية ، ايا كانت ، معناه فرض الصفات الروحية على المادة كلها .

وفى اعمال ماركس وانجلس نجد العديد من الملاحظات المنهجية الهامة بالنسبة للحل الصحيح لمشكلة العلاقة بين البيولوجي والاجتماعى ، التى غدت مثارا للجدل ، ولاسيما فى السنوات الاخيرة . ففى «مساهمة فى نقد فلسفة الحق الهيغلية» ينوه ماركس « بان ماهية «الشخصية المتميزة» ليست فى لحيتها ، ولا فى دمها ، ولا فى طبيعتها البدنية المجردة ، وانما فى **كيفيتها الاجتماعية**» * . وفى رسالة الى ماركس بتاريخ ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٤٤ يقول انجلس : «علينا الانطلاق من «الانا» ، من الفرد التجريبى ، الجسدى ، ولكن لا لكى نتوقف عند ذلك ، بل لكى نرتقى منه الى «الانسان»» ** .

««الارتقاء الى «الانسان»» – هذا يعنى تفهم ان طبيعة الانسان ذاتها نتاج للتاريخ . وقد نوه ماركس ، فى «موضوعات عن فورباخ» ، بانه يتعذر ادراك ماهية الانسان فى حال النظر اليه كفرد معزول ، مجرد عن مجرى التاريخ ، ويرتبط مع الاخرين بعرى محض طبيعية . وهنا اعطى التعريف الرائع لماهية الانسان : «**ليست ماهية الانسان شيئا مجردا ، ملازما** للفرد الواحد . **فهى ، فى حقيقتها ، جملة العلاقات الاجتماعية كافة**» *** (خط التشديد لى – **المؤلف**) .

وفى الوقت الحاضر تدرس طبيعة (ماهية) الانسان فى

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١ ، ص ٢٤٢ .

** المصدر السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ١٢ .

*** المصدر السابق ، المجلد ٣ ، ص ٣ .

الانتروبولوجيا والاتنوغرافيا وفيزيولوجيا الجملة العصبية العليا والسيكولوجيا والطب النفسى وعلوم الاخلاق والجمال وغيرها ، كما وتبحث فى الادب والفن ، ناهيك ، بالطبع ، عن الفلسفة الماركسية اللينينية . وفى ضوء التحليل المادى الديالكتيكى لمعطيات العلوم يمكن التعمق فى سبر اغوار طبيعة الانسان وماهيته .

ان الواحدية المادية الديالكتيكية فى فهم جوهر الانسان بعيدة ، على حد سواء ، عن البيلجة المتطرفة او عن الاجتماعوية المبتذلة . فهى لا تتجاهل دور العوامل البيولوجية (الوراثية) فى حياة الانسان ، ولكنها لا تنظر اليها بمعزل عن تطور البشر الاجتماعى . فان هذه العوامل نفسها «مؤنسنة» ، اذا صح التعبير .

يرى علماء الانتروبولوجيا ان «يوم ميلاد» البشرية كان فى حقبة من الزمن ، تمتد الى ملايين السنين ، بدءا من اوائل الاسلاف من اشباه الناس الاسترالبين ، الذين سكنوا الارض قبل ٤-٦ ملايين سنة خلت ، وانتهاء بالناس البدائيين ، الذين عاشوا قبل ١٫٥ مليون سنة من الميلاد . وعلى امتداد تلك الحقبة ، وحتى ظهور النمط العصرى من الانسان *

---

* درجت الادبيات المتخصصة على الاشارة الى انسان النمط العصرى بمصطلح «الانسان العاقل» (Homo sapiens) ، وذلك خلافا «للانسان المنتصب» (Homo erectus) و«الانسان الماهر» (Homo habilis) . ولكن من الضرورى الاخذ بالاعتبار ان الماركسيين يؤكدون بمصطلح «الانسان العاقل» على انفصال الانسان عن الحالة الحيوانية حتى لدى الاسلاف من اشباه الناس ، ولا ينظرون اليه على انه زمرة بين باقى زمر الحيوانات فى تصنيف لينياوس . وهنا نعيد الى الاذهان انه سبق لماركس وانجلس النظر الى بنية الانسان الجسدية كحصيلة لتطوره الاجتماعى . ومن ذلك قولهما : «يمكن تمييز البشر عن الحيوانات بالوعى ، بالدين ، وعموما ــ باى مؤشر آخر . اما البشر انفسهم فيبدؤون بتمييز ذواتهم عن الحيوانات بمجرد شروعهم **بانتاج** وسائل الحياة الضرورية لهم ، وهو الخطوة ، التى تعود الى بنيتهم الجسدية» (ماركس وانجلس . الايديولوجية الالمانية . ضمن : المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ١٩) .

كانت البيولوجيا الحيوانية تتحول الى بيولوجيا بشرية . ثم ان الجهاز الوراثى لدى الانسان ينطوى على معلومات عن تطور البشرية الاجتماعى خلال قرون عديدة . وعضوية الانسان ، برغم كل تشابهها مع العضوية الحيوانية ، تقوم بوظائفها على نحو خاص ، كعضوية بشرية .

ان النظرية الماركسية فى الانسان ، التى تفسر انفصاله الحاد عن العالم الحيوانى ، تتأكد صحتها فى مجمل تطور العلم ، وضمنا الانتروبولوجيا . وقد ادخلت الاكتشافات الانتروبولوجية الاحدث (بدءا من عام ١٩٥٩) تعديلات هامة على فهم طابع صيرورة (تشكل) الانسان . فالعثور على العديد من البريمات والهومينويدات * المستحاثية ودراستها اتاحا لا تدقيق مسألة مدى قدم الانسان وموطنه الاهلى فحسب ، بل وساعدا وهذا هو الاهم — على تحديد الحاجز الفاصل بين الحيوان وبين الانسان البدائى . وفى الوقت نفسه لقيت نظرية انجلس حول دور العمل فى تشكل الانسان اثباتات جديدة .

---

* **البريمات** (الحيوانات الرئيسات) — فصيلة الثدييات ، وتضم زمرتين : اشباه القردة ، والقردة . **والهومينويد** (من اللاتينية homo — الانسان) — عائلة من فصيلة البريمات ، تضم انسان النمط العصرى («الانسان العاقل») والمستحاثات البشرية : البيتيكانتروب (انسان جاوة) والنياندرتالى ، وكذلك ، على الارجح ، بعض البريمات المستحاثية العليا ، كالانسان الاسترالى .

ويقصد بالاكتشافات المذكورة ، فى المقام الاول ، اللقايا المثيرة ، التى عثر عليها فى اعوام ١٩٥٩—١٩٦٢ الانتروبولوجى الانكليزى ل . ليكى ، والتى تنتسب الى ما يسمى «بالحضارة الاولدواوية» (نسبة الى وادى اولدواى فى تنزانيا) ، وهى الحضارة ، التى تبين انها كانت رائجة فى العالم . ففى ارمينيا ، مثلا ، تتمثل هذه الحضارة فى الاثار العائدة الى العصر الحجرى القديم فى ساتانى دار وارزنى . ثم ان العثور فى اثيوبيا عام ١٩٧٤ على الهيكل العظمى للوسى الشهيرة ، ومن ثم عام ١٩٧٥ على كائنات اخرى ذات المشية المنتصبة (Homo erectus) فى شمال تنزانيا ، كانت تعيش قبل ٣,٥—٣,٦ مليون سنة خلت ، قد وفر الكثير لفهم صيرورة الانسان .

وفي الوقت ذاتـــه ارتسمت بمزيد من الوضوح ضرورة التمييز النوعي ليس فقـــط للهومينويدات عـــن الحيوانات واشباه الانسان ، بل وللنيوانتروبات عـن الهومينويدات . وبما انه في عصر القطيع البشرى البدائى استمر ارتقـــاء الناس البيولوجي الى جانب تطورهم الاجتماعى ، فان عددا من الانتروبولوجيين السوفييت توصلوا الى استنتاج حول ضرورة النظر الى القطيع البشرى قبل قيام التشكيلة الاقتصاديـــة الاجتماعية الاولى ، قبل النظام المشاعى البدائى . وقد ساعدت المناظرة حول هذه المسألة على صياغة نظرية «القفزتين» فى صيرورة الانسان ، وهى النظرية التى تتمتع باهمية مبدئية على طريق رسم الحد ، الذى بعده «تأنسنت» تماما عضويـة (بيولوجيا) الهومينويد . فقد تخلص الانسان مـــن طغيان الصراع الحيوانى من اجل البقاء . وان فهم حلول عصر جديد من الامكانيات اللامحدودة ، عصر الاجتماعية الكاملة للانســـان وللجماعات البشرية ، لذو اهمية كبيرة من اجـــل النضال الناجح ، القائم على ارضية علمية ، ضد شتى الوان البيلجة ومختلف ضروب العنصرية المرتكزة اليها .

تذهب نظرية «القفزتين» ، التى وضعها عدد من العلماء السوفييت ، الى ان القفزة الاولى تتميز بالبدء بتحضير ادوات العمل البدائية عصر تحول اسلاف الهومينويـــد الى الناس البدائيين . فرغم ان قطيع الهومينويدات البدائى لم يكـــن مجرد تجمع بيولوجى ، فانه فى هذه المرحلة من ارتقـــاء الانسان كان الاصطفاء الطبيعى لا يزال يفعل فعله ، واستمر تطور بيولوجيا الهومينويد ، والتخلص من الفردية الحيوانية .

وكانت الانسنة اللاحقة للهومينويد متعذرة بدون تذليل التناقض الهام بين بنية الجسم المورفولوجية وبين نشاطه . فكان العمل المشترك لتحصيل الطعام ولصد الاعداء يتطلـب علاقات اجتماعية ، ولذا فان تغير العضوية فى مجرى صيرورة الانسان كان يقوم لا فى اكتساب صفات جديدة فقط ، بـل وفى اضمحلال الصفات الحيوانية ، التى كانت تعوق تشكـل علاقات جديدة ، بشرية . وطبيعى ان هذا شمـل فى المقام الاول ، اعضاء الجسم ومنظوماته المسئولة مباشرة عـــن

السلوك . ولذا فانه من اهم نتائج صيرورة الانسان كان تخليص آلية السلوك المركزية من الحلقة ، التي تضفي عليه طابعا غريزيا ، مشروطا بيولوجيا . وتدريجيا راح هذا التغير ينسحب على ما في حياة «الناس السائرين في طريق التشكل» من ميادين ، «صار المجتمع الناشيء يتولى امورها ويشرف عليها» * . وعليه ، فان عملية تشكل الانسان ، بعد القفزة الاولى ، ظلت مستمرة .

وتمت القفزة الثانية على عتبة الانتقال من الباليأنتروب الى الانسان ذي النمط الجسدي العصري ، الذي اكتمل تشكله – كما يرى عدد من علماء الانتروبولوجيا – مع ظهور الانسان الكرومانيوني . وقد تميز هذا الانسان بالمشية المنتصبة تماما ، وبدقة بنية الكف وبرفعة تطور دماغه ، المؤهل لاستيعاب اي برنامج اجتماعي . وبين العوامل ذات الاهمية الحاسمة بالنسبة للانسان صار الوسط الاجتماعي والتوريث الاجتماعي وقدرات الذهن اللامحدودة على الضبط الذاتي لتصرفاته ، آخذا بالاعتبار ليس فقط منفعتها البيولوجية بل وقيمتها الاجتماعية للجماعة ، التي ترتبط مصالحه الشخصية ارتباطا مباشرا بمصالحها . وفي العملية الجديدة لصيرورة الانسان والمجتمع الموحدة جاء **اكتساب الانسان لماهيته الاصيلة** ، حيث يخضع تطوره اللاحق لقانون التوريث الاجتماعي ، ليشكل قفزة جديدة ، ثانية ، ذات اهمية قصوى . فمع القفزة الثانية ، كما يعترف علماء الانتروبولوجيا والسيكولوجيا ، انحل التناقض الاهم بين بنية الانسان المورفولوجية وبين نشاطه : انتفى في مجرى الاصطفاء الطبيعي واكتمل بظهور النيوانتروب ** ، الذي تتيح بنية عضويته امكانيات لا محدودة من اجل توسيع وتعقيد نشاطه .

---

* ب . ي . غالبيرين . حول مشكلة البيولوجي في التطور النفسي للانسان . – في كتاب : العلاقة بين البيولوجي والاجتماعي في الانسان ، ص ٢٥٨ .

** **النيوانتروبات** – تسمية للمستحاثات البشرية (الكرومانيونيين) وللناس الحاليين ذوي النمط العصري .

ويمكن النظر الى تذليل التناقض المذكور على انه حلّ للتضاد بين البيولوجي والاجتماعي . فبيولوجيا النيوانتروب برغم كل شبهها الخارجي ببيولوجيا اسلافه ، تحولت خلال الارتقاء المديد – وخاصة بتأثير نشاط الهومينويد الانتاجي الذي بدأ بعد القفزة الاولى – الى بيولوجيا من نوع جديد تماما ، بيولوجيا بشرية . ورغم انه في هذه المرحلة من التطور لا يمكن استبعاد بعض التحسن في العضوية البشرية ، فان هذه العضوية ، مع ذلك ، لم تعد تحتاج الى تجديد جذري واساسي لبنيتها المورفولوجية . ومنذ ذلك الحين صار تطور الانسان يجري بتأثير القانونيات الاجتماعية ، لا قانون الاصطفاء الطبيعي . وسيكون من باب سوء الفهم ان نعيب على العلماء ، الذين يقولون باجتماعية الانسان ، «نفيهم» للبيولوجي فيه . فان ما ينفونه ليس بيولوجيا الانسان وانما المطابقة بينها وبين البيولوجيا الحيوانية .

فان بعض التشابه في البنية الجسدية بين الحيوان والانسان ، وفي عدد من وظائفهما الحيوية ، وفي العلاقات الفيزيولوجية بالوسط المحيط (تبادل الغازات والماء والحرارة وما الى ذلك) ، لا ينفي الاهمية الجوهرية للقفزة الثانية ، التي كانت وراء ظهور حامل ومبدع الشكل الاجتماعي لحركة المادة . ثم ان الشكل الاجتماعي لحركة المادة لا يرتفع بمثابة بناء فوقي ازاء شكلها البيولوجي ، وانما يأتي نفيا ديالكتيكيا له . فهذا الشكل الجديد ، الارفع ، لحركة المادة ينطوي على الشكل البيولوجي ، ولكنه لا يرد اليه .

وقد سبق للينين في حينه التنويه بالصعوبة البالغة لمسألة ظهور الشكل البيولوجي لحركة المادة . فهو يرى «ان الاحساس لا يرتبط ، على نحو جلي ، الا بالاشكال العليا من المادة (المادة العضوية) . . .» * واكد لينين ان المادية لم تذهب ابدا الى ان الاحساس يظهر فجأة ، وطرح امام العلوم الطبيعية المهمة التالية : «البحث ثم البحث كيف ترتبط المادة ، التي يقال انها لا تحس ابدا ، بالمادة المؤلفة

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٨ ، ص ٣٩–٤٠ («المادية ومذهب نقد التجربة») .

من نفس تلك الذرات (او الجزيئات) والحائزة ، فى الوقت ذاته ، على ملكة الاحساس فى صورة جلية» * . وقد قدمت العلوم المعاصرة ، وبينها البيولوجيا الجزيئية وعلم الوراثة الجزيئية والبيوسيبرنيطيقا ، الكثير من اجل استجلاء الروابط الواقعية بين الحى وغير الحى ، مؤكدة ، فى نفس الوقت ، على الاختلاف النوعى الجذرى بينهما .

ومن الجلى ان بيولوجيا الانسان ، المتحورة بتأثير العوامل الاجتماعية ، لا تختلف عن البيولوجيا الحيوانية بأنها لا تنطوى على عناصر الاخيرة ، بل بانها صارت الآن ذات تنظيم بنيوى مغاير ، ذات متطلبات وامكانيات جديدة فى النشاط الحيوى . وتتشكل علاقات جديدة بين الانسان والوسط المهنى والقومى وغيرهما من الاوساط ، التى تؤثر على طبيعة الانسان وتحوّرها ، حتى وعلى ملامحه الخارجية . وقد كتب ماركس بصدد الحديث عن سيرورة العمل : «لكى يستوعب الانسان الشىء الطبيعى فى صورة صالحة لحياته فانه يحرك القوى الطبيعية التى يملكها جسمه : اليدين والرجلين ، الرأس والاصابع . وهو ، اذ يؤثر بهذه الحركة على الطبيعة الخارجية ويحوّرها ، فانه يغير ، فى الوقت ذاته ، طبيعته نفسها» * * .

وينوه الاخصائيون ، الذين يدرسون طبيعة الانسان ، بان «الانسان المتحضر يتميز عن القردة الشبيهة بالانسان او عن الشمبانزى لا بشخصيته فقط ، بل وبكل شىء ، انتهاء بالهضم واى من كريات الدم» * * * . ومن الاهمية بمكان مراعاة ان وظائف الانسان النفسية العليا لا تتكون الا فى الوسط الاجتماعى . ومن المتعذر العثور على خصوصية بيولوجيا الانسان بالمقارنة مع الحيوان ، انطلاقا من المعايير الحيوية وحدها ، بمعزل عن المعايير الاجتماعية الثقافية .

لقد تكدست اليوم ودرست علميا مادة كبيرة ، تبين ان

---

* المصدر السابق ، ص ٤٠ .

* * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٣ ، ص ١٨٨ (ماركس . رأس المال) .

* * * ج . فورست . العصابى ، وسطه وعالمه الداخلى . موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٧٧ .

الطفل يولد كانسان بمعنى ان لديه كافة الاستعدادات (وضمنا البيولوجية) للنمو الى انسان . فجسمه ودماغه بشريان منذ البداية . فعلى امتداد ارتقاء البشر البيولوجي الطويل تنطبع المعلومات الاجتماعية فى جهاز التوريث – DNA ، كما وتنطبع اغلب الظن – فى كل خلية حية * . وفى الوقت الحاضر يفترض عدد من علماء البيولوجيا ان قوانين التطور ليست مثبتة فى الجينات بصورة نهائية وصارمة . فبرغم الدور الكبير للبرنامج الوراثى فانه لا يكفى لتحديد تسلسل الاحداث حتى فى فترة التطور الجنينى . ومن الطريف ، بهذا الصدد ، استنتاج بعض الباحثين «بان الجنين يتشكل ليس فقط من قبل القوى الجزيئية ، بل ويتأثر ايضا بالعالم الخارجى ، ما وراء احشاء الام» * * . ويرى الاطباء وعلماء النفس انه تتوفر الآن براهين اكيدة تدل على ان صحة الطفل الجسمية والنفسية ، وكذلك خصوصيات سلوكه ، تتوقف ، الى حد ما ، على عوامل متباينة تؤثر عليه فى مرحلة حياته الجنينية . وبين هذه العوامل تلعب حالة الام العاطفية دورا ملحوظا .

وعليه ، فمن جهة ، فان المعلومات الوراثية البشرية تنطوى ، منذ البداية ، على التأثرات الاجتماعية ، كما ان الجنين البشرى ، من جهة اخرى ، يبقى عرضة لتأثر الوسط الاجتماعى للام . وفى ضوء هذه الوقائع يمكن القول ان التوريث الاجتماعى يبدأ حتى قبل ولادة الطفل .

اما قول بعض العلماء بان الطفل يولد مجرد «مرشح» لان يصير انسانا ، ولا يغدو كذلك الا بفضل الوسط الاجتماعى ، فثمة اساس لاستكماله بالقول ان هذه «المرشحية» محدّدة

---

* ان القول بعدم توريث الصفات المكتسبة لا يصح الا بالنسبة لحقبة محدودة من الز[illegible] اما فى حال سلسلة طويلة ومعقدة من الروابط السببية ، القائمة وراء التحولات البيولوجية ، فبالامكان التأكد من ان التاريخ المديد للصيرورة الفردية – الاجتماعية قد ادى الى تحوير عميق للبيولوجيا الحيوانية ، وضمنا صفات الجملة العصبية ، نحو بيولوجيا بشرية .

* * ش . بيغلى ، د . كيرى . بداية الحياة البشرية . – فى مجلة «زا روبيجوم» ، ١٩٨٢ ، العدد ١٤ ، ص ٢٠ .

مسبقا منذ الحالة الجنينية . ففى الجنين تكمن البيولوجيا البشرية بكل قدراتها وملكاتها ، التى لا تتكشف وتتفتح الا فى الوسط الاجتماعى الملائم . «ففى الجينوتيب * يحصل الجنين البشرى ليس فقط على اسس لتسيير العمليات التشكيلية ، معدة سلفا ، وبل على مقاطع من الاسس «ما فوق المنظومية» لتطوره المقبل ، اى الاسس الاجتماعية ايضا ، لانها تكون قد لاقت ، فى جزء ما ، «انعكاسها غير المباشر» عبر انتقاء الوحدات المعنية للمعلومات الوراثية» ** . صحيح انه فى البنى الجزيئية لـ DNA لا توجد ، ولا يمكن ان توجد ، «شيفرات» انعكاس اشكال حياة الانسان ، التى سوف تتكون بتأثير الوسط الاجتماعى الملموس ، بتأثير علاقات اجتماعية (وقومية ضمنا) معينة . ولكن بما ان ارهاصات التطور المقبل للبيولوجيا البشرية وللانسان ذاته ككائن اجتماعى صرف تكون متوفرة منذ الحالة الجنينية ، يمكن الموافقة على القول ان الانسان اجتماعى جنينيا .

وتدل على ذلك ايضا دراسة الاكاديمى انوخين وزملائه لتطور الجنين فى بطن الام منذ الشهر الثالث . وفى معرض وصف بكاء وميميكا (حركات عضلات الوجه) جنين فى الشهر الخامس ، وضع على راحة الكف ، يتساءل انوخين : «كيف امكن للميميكا ، هذه الصفة المحض بشرية ، ان تنتقل الى الجينوتيب ، وان تتطور عبر كافة مراحل الانتوجونيا ، لتغدو فيما بعد ميميكا انسان بالغ ؟» *** . ثم ينوه بانه لدى الناس البالغين ، الذين ولدوا عميانا ثم صاروا صما بكما اى محرومين من القدرة على محاكاة ميميكا البشر ، فان الميميكا مع ذلك ، تتطور ، وان كانت لا تصل حد التعبير الكامل .

---

* **الجينوتيب** ــ القوام الوراثى للعضوية ، جملة جيناته .

** ف . ا . كريميانسكى . حول تطور العلاقة بين البيولوجى والاجتماعى فى الانسان . ــ فى كتاب : العلاقة بين البيولوجى والاجتماعى فى الانسان ، ص ١١٢ .

*** ب . ك . انوخين . الاجتماعى والبيولوجى فى طبيعة الانسان . ــ فى كتاب : العلاقة بين البيولوجى والاجتماعى فى الانسان ، ص ٣٠١ .

وبهذا الصدد يدعو انوخين لعدم طرح «الاذيـــال» الكبيرة للبيولوجي في الانسان ، ولمراعاة انها صارت «بشرية تماما» .

ومن هنا تتجلى ضرورة مراعاة وحدة قوانين البيولوجي والاجتماعي في الانسان ، التي تبعا لها تشكل في الفيلوجونيا الاساس المورفوفيزيولوجي للنشاط التكيفي . ويقف انوخين ضد النظرة الثنوية الى ماهية الانسان . وبهذا الصدد يقول : «ليس في شخصية الانسان شيء بيولوجي وآخر اجتماعي . فالاجتماعي هو اعقد وارفع مستوى لتخصص النشاط العصبي الاعلى . ولذا يخوفنـــا حرف الواو في عبارة «البيولوجـــي والاجتماعي» . ليس ثمة واو ، وانما هناك تنظيم اجتماعـي للقدرات العليا لدماغنا ، مضمونه الاجتماعـــي ، ما يكوّن شخصية الانسان» * .

بعبارة اخرى : ان بيولوجيا الانسان نتاج اجتماعي ، ولذا فان ماهية الانسان ليست ثنوية ، ليست بيواجتماعية ، بل اجتماعية وحسب .

وتصادف احيانا محاولات لتفسير السلوك الاجتماعـــي السلبي لبعض الافراد انطلاقا من صفاتهم البيولوجية . ثم ان ايديولوجيي الامبريالية والعنصرية يتبنون النظرية القائلة بانه لدى اعراق وقوميات كاملة ثمة استعداد بيولوجـــي لارتكاب الجرائم ، رغم ان عبث مثل هذه النظريات قد تبين في ضوء الابحاث الطبيـــة البيولوجية والانتروبولوجيـــة والوراثية ، التي اجريت خلال سنوات عديدة وفي بلدان مختلفة . فقد ثبت «ان مستوى وحالة الاجرام حتى على نطاق بلد واحد ، في منطقـــة واحدة ، يرسمان لوحـــة معقدة ومبرقشة ، لا تتطابق ابدا مع اللوحة الوراثية للسكان» * * .

كما وتدحض السيكولوجيا العلمية تقسيم الطبائـــع الى «حسنة» و«سيئـــة» . فالابحاث العميقة ، التي اجراهـــا العالمان السوفييتيان ب . م . تيبلوف وف . أ . نيبيليتسين ،

---

* المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

* * ن . ب . دوبينيـــــن ، إ . إ . كاربيتس ، ف . ن . كودريافتسيف . الوراثة ، والسلوك ، والمسئوليـــة . موسكو ، ١٩٨٢ ، ص ١١٦ .

قد اتاحت لهما المعارضة الحازمة للنظرة «التقييمية» فى دراسة صفات الجملة العصبية ، وضمنا «الحكم على الافراد ، ذوى النمط الضعيف من الجملة العصبية ، بحتميـــة القصور فى تجلياتهم الاجتماعية» * .

فالطبع عموما لا يعكس الا الجانب الدينامى من التصرفات ، فلا يغطى مضمونهـــا . والافراد ، الذين ينتمون الى نفس النمط من الطبع ، قد يتصرفون على انحاء مختلفة ، حتى وقد يلعبون ادوارا متعارضة» * * .

وفى كل الحالات فان العوامل الاجتماعية هى التى تلعب الدور الحاسم فى التأثير سواء على تحوير البيولوجيا طوال مرحلة صيرورة الانسان ، او على تشكل الانسان بعد الولادة . ومن هذه الناحية توفر مادة غنية ومقنعة دراسة حالات تعرقل ، حتى وتوقف ، التطور البشرى للاطفال ، الذين استبعدوا ، لاسباب متباينة ، من النشاط الاجتماعى العملى . فلم يتمتع هولاء بالنطق والوعى والمشية المنتصبة ، اذا ترعرعوا ، بعد فترة قصيرة من الولادة ، وسط الحيوانات . فحرمانهم من نمط الحياة البشرى ، ومن الظروف المتميزة لتفتح قدرة الدماغ على النمو المورفولوجى والوظيفى ، جعلهـــــم لا يصيرون حتى «حيوانات ذكية» ، وكانوا يموتون عادة فى سن مبكرة ، وان اعيدوا ، بعد عدة سنوات من ذلك ، الى الوسط البشرى * * * .

---

* ب . م . تيبلوف ، ف . ا . نيبيليتسين . الدراســـة التجريبية للصفات الاساسية للجملة العصبية لدى الانسان . — فى كتاب : المؤتمر الرابع لعموم الاتحــــاد السوفييتى لاطباء الاعصاب والنفس . موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ٣٥٨ .

* * المقصود ، بالطبع ، سلوك الناس ذوى البنية المورفولوجية السوية (لا المصابة بنقص ما) .

* * * واحيانا تصادف فى الادبيات نظرة ريبية حيال القيمـــة الفعلية « لظاهرة ماوغلى » ، ولكن من الصعب التهـــرب من الوقائع . فمنذ العثور فى نيورنبرغ (عام ١٨٢٨) عـلى كاسبـــار هاوزر ، الذى امضى ١٦ عاما فى عزلة تامة عن البشر ، ولم يكن يتمتـــع بالنطق او بالمشية المنتصبة ، سجلت عشرات الحالات الاخرى مـــن العثور عـــلى اطفال عاشوا منذ سن الرضاعة بعيدا عـــن الوسط البشرى . واشهر هذه الحالات قصة امالا وكيمالا ، اللتين عثر عليهما

ومن الاهمية بمكان نتائج التجارب ، التى تبين الاختلاف فى تطور وسلوك التوائم ، الذين يربون فى اوساط اجتماعية متباينة . فمنذ عام ١٩٤٨ اثبت عالم النفس السوفييتى لوريا ان ثمة فوارق حادة تظهر لدى التوائم (حتى ولو كانوا يتحدرون من بيضة واحدة) عند اجتياز مختلف الاختبارات ، وذلك بتأثير الفوارق فى ظروف نشاطهم . وبعد سنوات عديدة من ذلك ، واستنادا الى معطيات تجاربه والاستنتاجات منها ، كما على استنتاجات سيكولوجيين سوفييت آخرين ، بينهم فيغوتسكى ، اعلن لوريا : «ان النظرة العلمية الى اصل العمليات النفسية العليا وبنيتها تتطلب الخروج من اطار العضوية ، والتفتيش عن جذورها فى علاقات الانسان بالواقع ، التى تأتى حصيلة التاريخ الاجتماعى» * .

وللتأكيد على اولوية البيولوجى فى الانسان يستند عادة انصار الفهم الثنوى للماهية البشرية (ناهيك عن ممثلى البيلجة الصريحة) الى التفاوت فى قدرات الناس ، والى وقائع التوريث الانتخابى ، كتوريث الموهبة فى هذا الميدان او ذاك . وينظر الى حالات كهذه على انها محددة وراثيا على نحو مسبق . وهناك علماء ، يفترضون ان ثمة ارهاصات متميزة ، خاصة ، على الاقل ، بالتفكير المنطقى الرياضى وبالابداع الموسيقى والفنى ، الخ .

هنا ينبغى التنويه بما يلى : اذا كان العلماء المختصون ينطلقون من ان آلية التحديد (determination) لكافة القدرات واحدة ، وان ارهاصات القدرات حيادية وغير متعينة ، فانه حتى ابرز وقائع الموهبة الرياضية والموسيقية لدى البعض لا تبرهن ، بعد ، على انه عند هؤلاء تحققت «شيفرة وراثية» معينة وواحدة . فالوقائع ، الجلية بحد ذاتها ، لا تبرهن شيئا

فى ادغال الهند . وقد وضعت الطفلتان تحت المشاهدة الدقيقة ، وحاول العديد من علماء النفس والتربية الانكليز تعليمهما وتربيتهما ، ولكنهما توفيتا ، دون ان تتحولا الى بشر .

* ا . ر لوريا . السيكولوجيا فى منظومة العلوم الطبيعية والاجتماعية . – فى كتاب : العلاقة بين البيولوجى والاجتماعى فى الانسان ، ص ١٢٦ .

بدون استجلاء اسباب ظهورها . فحتى الوقت الحاضر لا تزال آلية تحديد القدرات غير معروفة بدقة . ولكن ما توصل اليه العلم فى هذا الميدان يوفر مادة اغنى فاغنى ، تبين التحديد الاجتماعى للقدرات . وبما ان العنصرية تحاول توظيف المشكلات المعقدة ، الخاصة بطبيعة القدرات ، سنتوقف ولو بايجاز ، عند هذه المشكلات .

لقد صارت الموضوعة ، القائلة بان القدرات تتشكل فى مجرى النشاط ، وبان الفطرى فيها هو ارهاصاتها فحسب ، الموضوعة الغالبة اليوم فى السيكولوجيا السوفييتية . ولاثبات هذه الموضوعة تحظى بمكانة هامة الابحاث التى اجريت باشراف ليونتيف ، والتى تتيح القول ان ارهاصات القدرات حيادية (غير متعينة) ازاء الاشكال الملموسة من النشاط البشرى ؛ وان الحامل المخى ، الذى يضمن تطور القدرات وعملها ، انما يتشكل اثناء الحياة ، ويمثل تكوينا جديدا ، هو «العضو الوظيفى للدماغ» * .

«. . . صحيح ان التوريث البيولوجى قائم ، بالطبع ، على مستوى الانسان ايضا ، ولكن فعله لا ينسحب **مباشرة** على ما تم فى ميدان التطور النفسى من مكتسبات ، توصلت اليها البشرية على امتداد الـ٤٠ او الـ٥٠ الف سنة الاخيرة ، اى بعدما تشكل النمط المعاصر من البشر تشكلا نهائيا من الناحية البيولوجية . . .» . ويؤكد ليونتيف انه «منذ ذلك الحين صارت الانجازات فى تطور قدرات البشر النفسية تُثبّت وتورث من جيل الى آخر فى صيغة خاصة ، فى صورة اشياء خارجية .

وقد ظهرت هذه الصيغة الجديدة لتكديس ونقل الخبرة الفيلوجونية (وبتعبير ادق – الخبرة التاريخية) لان النشاط المميز للناس نشاط منتج ، خلاق . ذلك هو ، فى المقام الاول ، النشاط البشرى الاساسى – العمل» ** .

---

* ا . ن . ليونتيف . مشكلات تطور النفسية . موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ١٨٤–٢٠٩ .

** المصدر السابق ، ص ١٨٥ . اما المفارقة ، القائمة فى ان تطور البشر الاجتماعى غير المالوف ، فى ظل استقرار المخزون

واستنادا الى النظرية الماركسية حول دور العمل فى صيرورة الانسان ، والى الموضوعة القائلة بان الشكل الاعلى لحركة المادة ينطوى على الاشكال الدنيا ولكنه لا يُردّ اليها ، يخلص ليونتيفَ الى القول ان اصل الظواهر النفسية العليا ينبغى التفتيش عنه فى تفاعل الافراد ، وليس فى داخل العضوية ، وان كانت هذه الظواهر ترتبط بالعمليات الجارية فى الدماغ .

وينوه ليونتيف بخطأ الآراء ، التى تربط الخصوصيات والوظائف النفسية بوجود بنى مخية خاصة ، تورّث بيولوجيا ، ليطرح نظرية ، تقول بانه من اجل استيعاب عالم الاشياء والظواهر تتشكل لدى الناس ، بعد الولادة ، منظومات انعكاسية معقدة . وتعمل هذه المنظومات كعضو واحد (الخاصية الاولى) . وعلى نحو مستقر (الخاصية الثانية) ، وقد تختلف بنيتها رغم انها تقوم بنفس المهام (الخاصية الرابعة) . اما الحديث عن الخاصية الثالثة فيستحسن ايراده كاملا ، نظرا لاهميته من اجل فهم المشكلة البيواجتماعية . «تقوم الخاصية الثالثة للاعضاء الوظيفية . . . فى انها تتشكل على نحو ، مغاير له فى السلاسل البسيطة للانعكاسات او ما يسمى بالستيريوتيبات الدينامية . فالروابط المقوّمة لها لا تقتصر على انتساخ ترتيب المهيجات الخارجية ، بل تجمع العمليات الانعكاسية المستقلة مع **بواعثها المحركة** فى فعل انعكاسى موحد . وفى البداية تكون دوما لمثل هذه الافعال المعقدة جوانب محركة خارجية واسعة ، سرعان ما تكبح فيما بعد ، اما الفعل ككل ، اذ يغير بنيته الاولية ، فيتقلص

الوراثى للنوع البشرى عامة ، بحيث ان انتقال اسلاف الانسان الى «الانسان العاقل» قد استغرق اكثر من ٢٠ مليون سنة ، فى حين ارتقى «الانسان العاقل» ، خلال ٥٠-٦٠ الف سنة فقط ، من حياة الكهوف والعد على الاصابع الى صنع الآلات الحاسبة الالكترونية والمركبات الفضائية ، فيفسرها العلماء «بان تقدم البشرية لم يعد يستند الى تغير الناس البيولوجى ، بل الى قوانين التطور الاجتماعى» (ن . ب . دوبينين ، إ . إ . كاربيتس ، ف . ن . كودريافتسيف . الوراثة ، والسلوك ، والمسئولية ، ص ١٠٤) .

تدريجيا ويغدو اوتوماتيكيا اكثر فاكثر . ونتيجة لهذه التحولات المتتالية يظهر ذلك الشيء الثابت المستقر ، الذى يفعل كعضو واحد ، ك«**قدرة فطرية**»» * (خط التشديد لى – **المؤلف**) .

ان دراسة هذه الاعضاء تسمح ، منذ الآن ، بالتأكد من «ان الصفات الموروثة بيولوجيا لدى الانسان لا تحدد قدراته النفسية . فقدرات الانسان لا تتواجد فى مخه على نحو كامن . ففى صورة كامنة لا ينطوى المخ . . . الا على **القدرة على تكوين هذه القدرات**» * * .

ان عملية استيعاب عالم الاشياء والظواهر ، التى صنعها البشر ، «تتم فى مجرى تطـــور العلاقات **الفعلية** التى تربط الذات بالعالم . ولا تتوقف هذه العلاقـــات على الذات ، على وعيها ، وانما تتحدد بالظروف الاجتماعية التاريخية الملموسة ، التى تعيش فيها ، وكذلك بمسألة كيف تتشكل حياتها فى هذه الظروف» * * * . ثم ان مشكلة طابـــع آليات الدماغ تزداد تعقيدا فى ضوء حقيقتين اثبتهما العلم ، تبدوان وكأنهما متناقضان : «اولا . . . فى مجرى التطور التاريخى الاجتماعى تتشكل لدى الانسان قدرات نفسية **جديدة** ، وظائف نفسية **جديدة** ، ثانيا . . . فى عصر سيطرة القوانين الاجتماعية لا تطرأ على دماغ الانسان ، من الناحية الفيلوجونية ، اية تغيرات مورفوفيزيولوجية . . . ، اما انجازات التطور التاريخى فتثبّت فى منتوجات النشاط البشرى الموضوعية ، المادية منهــــا والمثالية ، وفى هذه الصيغة تنتقل من جيل الى آخر . . . ، فالتشكلات السيكولوجية الجديـــدة ، التى تظهر فى مجرى العملية التاريخية ، لا تستعاد من قبل بعض الافراد كما لو كانت من فعل التوارث البيولوجى ، بل تستعاد كمكتسبات اثناء الحياة» * * * * . وعليه ، «تقوم صعوبة المشكلة فى ان القول بالطبيعة التاريخية الاجتماعية لقدرات الانسان النفسية يقود الى رأى ، معاكس للوهلة الاولى ، الا وهو استقلاليتها النسبية

---

* ا . ن . ليونتيف . مشكلات تطور النفسية ، ص ٢٠٧ .

* * المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

* * * المصدر السابق ، ص ٢٠٨–٢٠٩ .

* * * * المصدر السابق ، ص ٣٨٧–٣٨٨ .

حيال خصوصيات الدماغ المورفولوجية . بعبارة اخرى : تنهض مسألة امكانية وجود خصوصيات او وظائف نفسية ، ليس لها اعضاء ذاتية بالمعنى الخاص ، المورفولوجى ، للكلمة» * .

وفى ضوء النظرية الماركسية اللينينية فى الانسان ككائن اجتماعى ، واعمال فيغوتسكى وسيكولوجيين سوفييت آخرين ، واكتشاف بافلوف للمنظومية فى عمل كرتى المخ الكبيرتين ، وموضوعة الفيزيولوجى السوفييتى اوختومسكى «حول وجود اعضاء فيزيولوجية ، او وظيفية ، متميزة للجملة العصبية» ، صاغ ليونتيف ، على اساس المعطيات التجريبية المتوفرة ، الرأى القائل بانه اثناء عملية التطور الفردى (الاونتوجينى) تظهر تشكلات جديدة ، تمثل الحامل المادى للقدرات والوظائف الخاصة ، التى تتشكل فى مجرى استيعاب الانسان للعالم البشرى . «فلحاء الدماغ البشرى ، ذى الـ١٥ مليار خلية عصبية ، صار بصورة اكبر بكثير منها لدى الحيوانات العليا ، **عضوا ، قادرا على تكوين اعضاء وظيفية**» ** .

وتنتصب امام العلوم الطبيعية والاجتماعية ، وضمنا علم النفس والتربية ، مهام رفع معامل العمل المجدى للدماغ العادى ، واستخدام امكانياته اللامحدودة فى حقيقة الامر ، من اجل التطوير الشامل للبشر من كافة الاعراق والاقوام ، وتحقيق مواهبهم الكامنة غير المحدودة .

ففى الاتحاد السوفييتى ، مثلا ، يعنى ، لهذا الغرض ، بايجاد السبل الصحيحة لتفتح وتنمية قدرات التلاميذ ، وبمشكلات توفير ظروف التطوير والاستخدام الامثل لقدرات الاطفال الابداعية ، وخاصة حتى الثانية عشرة من العمر ، وغيرها *** . وفضلا عن ذلك ، وفى ضوء اكتشاف تأثير الوسط الاجتماعى المحيط بالأم على تطور الجنين ، يرى العلماء السوفييت امكانية ظهور علم جديد فى المستقبل

---

* المصدر السابق ، ص ٣٨٨ .

** المصدر السابق ، ص ٤١٢ .

*** انظر : ب . ى . غالبيرين . سيكولوجيا التفكير ونظرية التكون التدريجى للافعال الذهنية . ــ فى كتاب : دراسة التفكير فى السيكولوجيا السوفييتية . موسكو ، ١٩٦٦ .

القريب ، هو «التربية الجنينية» . وهم يفترضون ان التأثير الهادف المبكر على جملة المولود العصبية العليا يسرع وتائر تطور الدماغ ، ويرفع من نوعية عمله . فان مشاهدات سلوك المولودين الجدد فى الايام الاولى من حياتهم ، وكذلك نتائج التجارب الخاصة ، تبين ان مثل هذا التأثير ممكن من الناحية المبدئية .

ان ابحاث مختبر نمو الجملة العصبية لدى الانسان بمعهد مورفولوجيا الانسان التابع لاكاديمية العلوم الطبية السوفييتية (وكذلك ابحاث عدد من المراكز العلمية الاخرى) تدل على ان تشكل الذهن يبدأ منذ الاسبوع الرابع من نمو الجنين فى احشاء الأم (او بعد ذلك بقليل ، كما تشير معطيات ابحاث العلماء اليابانيين) . وفى حوالى الشهر السادس او السابع يكتسب لحاء دماغ الجنين القدرة على المعالجة الايجابية للمعلومات الواردة ، مما يطرح مهمة ايجاد سبل وطرق التدريب الهادف لهذه القدرة لدى الجنين البشرى . وعلى نطاق اوسع تطرح ضرورة «المعالجة العلمية لمنظومة من الاجراءات الرامية الى التنمية القصوى لذهن الانسان . . . ، ووضع برنامج متكامل ، يغطى مجمل عملية التطور الفردى للجملة العصبية لدى الانسان - بدءا من الحالة الجنينية بأحشاء الام ، وانتهاء باعداده المهنى» * .

وتبين اعمال علماء النفس والتربية السوفييت ان حل مشكلة التطوير الشامل للانسان يجب التفتيش عنه لا فى مختبرات «تأهيل الانسان» ووصفات «تحسين النسل» و«تفريخ» سلالة متميزة من الناس ، وانما فى الاستخدام الصحيح لكافة المؤثرات الاجتماعية من اجل تنشيط وتنمية قدرات الانسان اللامحدودة .

ومن الطبيعى ان الطرق الجديدة المقترحة فى التربية والتعليم تثير الجدل ، ولن تلاقى انتشارا سريعا وواسعا . ومن الجلى ايضا انها تحتاج الى مزيد من التطوير . ولكن

* ا . ميلوخين . من اجل مزيد من تفتح قدرات الانسان ونموها . - فى مجلة «كومونيست» ، ١٩٨٢ ، العدد ٤ ، ص ٧١ .

الهم ، هنا ، ليس ما تم الوصول اليه ، ويزعم انه يحل ال القضايا الخلافية ، بقدر ما هو الامانة للتوجه القائم ، الذى ينفى قطعا محدودية * قدرات البشر .

صحيح ان بداهة تفوق بعض الناس فى ميادين معينة من المعرفة والنشاط ، وكذلك ندرة الموهوبين والعباقرة ، سوف تستخدم ولامد طويل من الزمن ، حجة لصالح التفسير الوراثى البحت لهذه الظواهر . ولكن ضعف مثل هذه التفسيرات جلى للعيان . ان العلم لا يعرف الآليات الوراثية لقدرات الانسان . فدماغه لا ينطوى على القدرات ذاتها ، بل على امكانية تكوينها ، الذى يجرى فى الظروف الاجتماعية التاريخية الملموسة لحياة الفرد المعنى. اما مهمة العلم فهى المساعدة فى ايجاد احسن السبل الكفيلة بتفتح ونمو ارهاصات قدرات الناس من مختلف الاعراق والاقوام .

ويضطر بعض المؤلفين ، الذين يعطون الاولوية للعامل الوراثى ، للاعتراف : «ان الاحتياطى الوراثى للانسان هو من السعة ، وذلك فى المقام الاول بفضل الكمية الكبيرة للجينات الملازمة له ، بحيث لا يتكشف الا جزء منه ، تكون **الظروف البيئوية الخاصة** ملائمة له (التشديد لى — **المؤلف**) . فعلى ارضية حتى جينوتيبات واحدة تقريبا يمكن للتأثيرات البيئوية ان تمارس تأثيرا مدهشا وغير متوقع» * * .

لحل هذه المهمة العملية الملحة ، مهمة تطوير الفرد تطويرا متسقا ومتعدد الجوانب ، وجّه الحزب الشيوعى السوفييتى جهود المجتمع السوفييتى . ثم ان الفهم الصحيح للوحدة الديالكتيكية بين البيولوجى والاجتماعى فى الانسان يرتدى اهمية ملحة على طريق التصدى لمحاولات استخدام الانجازات المعاصرة لعلم الوراثة ، وللبيولوجيا عامة ، من

---

* ليس المقصود ، بالطبع ، ان القدرات الجسدية والذهنية واحدة لدى كافة الناس ، بل ان كافة الناس الاسوياء يملكون قدرات ، لا محدودة من حيث المبدأ .

* * البيولوجيا والمعرفة العلمية المعاصرة . موسكو ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨١ .

اجل «البرهان» على «طبيعية» تفاوت الناس الاجتماعى .

ومن هنا فان المشكلة المدروسة ليست علمية فقط ، بل وحادة سياسيا ايضا . وبدون الحل الماركسى اللينينى لهــا يتعذر فى الوقت الحاضر خوض النضال الناجح ضــد العنصرية والشوفينية بكافة اشكالها وألوانهــا ، بدءا من الاقوال الفظة وانتهاء بالمحاكمات المتوشحة برداء العلم .

٢ - العرق والنزعة العرقية

ان مشكلـــة البيولوجى والاجتماعى فى الانسان ذات صلة مباشرة بفهم اصل الاعراق (races) واهيمتها فى تطور المجتمع . فتبعا لكيفية حلها يمكن تبرير او تفنيد النزعة العرقية (او العنصرية racism) ، التى تنطلق من التمييز العنصرى والقومى ، وترى مشروعية الابادة العنصرية والحروب التوسعية .

ولدعم العنصرية وتبريرها غالبا مــا يستخدم التفسير البيولوجى البحت او الثنوى للماهية البشرية ، الذى يعمــم على الجماعات القوميــة وسماتهــا الروحية . وفى اطــار هذا التوجه يزعم البعض ان الامة ظاهرة بيولوجيـــة ، فى حين يذهب آخرون - وهم اكثر بكثير - الى ان الامة هى ، من جهة ، ظاهرة اجتماعية ، وهى ، من جهــة اخــرى ، ظاهرة فيزيائية طبيعية ، مما يرتبط بما يدعى بالتكوين النفسى الخاص ، الذى يُزعم انه أصيل وقديم قدم الزمن . وفى الحالتين كليهمـــا تأتى بيلجة ماهية الجماعات القوميـــة وسكلجتها لتخدمان النزعات العنصرية والشوفينية . ولذا فان تفنيد هذه النزعات يتطلب ، عقب الكشف عن ماهية الانسان ، استجلاء طبيعة الاعراق البشرية ايضا .

من المعروف ان الاعراق البشرية ، التى تشكلت بظهور الانســـان ذى النمط العصرى (Homo sapiens) ، تختلف فيما بينها بالسمات البدنية الخارجية : لون البشرة والشعر والعينين ، وطول الجسم والتناسب بين اعضائه ، وشكل الشعر والانف والشفتين والوجه والرأس . وقد ثبت علميا

ان هذه السمات لا تؤثر اطلاقا على عمل الانسان بما هو انسان ، ولا تلعب اى دور فى نشاط البشر النفسى . بعبارة اخرى : انها لا تمت بصلة الى ماهية الانسان . فامتلاك اى بنية جسدية ، والانتماء الى اى عرق ، لا يؤثران ابدا على الذهن البشرى .

وفى معرض الحديث عن الاعراق والفوارق العرقية يؤكد الباحثون عادة على ارتباطها ببقعة جغرافية معينة ، وبنمط معين من الوراثة . ويميز الانتروبولوجيون بين اعراق المرتبة الاولى واعراق المرتبة الثانية المشتقة منها ، كما ويبرزون حلقات متوسطة ووصلية . اما الاتنوغرافيون ، الذين لا ينظرون فى هذه الاعراق نفسها ، وانما يعنون بأنماط البشر الانتروبولوجية ، فيفرقون تفريقا صارما بين «الاتنوس» * و«العرق» كظاهرتين متباينتين ، احداهما اجتماعية والاخرى بيولوجية . وان هذا التمييز هو مأثرة الانتروبولوجيين السوفييت ، فليس من النادر ظهور محاولات لاعلمية ، تنطلق من الفوارق المورفولوجية السوماتية بين الاعراق لتصور حتى الجماعات الاتنواجتماعية ظواهر من طبيعة بيولوجية او ثنوية - بيولوجية واجتماعية .

ولكن من الضرورى التأكيد ان القول القاطع بالاعراق مقولة بيولوجية نظرا للفوارق المورفولوجية يقدم الحجة للعنصريين وللشوفينيين لتصوير كل عرق وكأنه ذو بيولوجيا وسيكولوجيا ثابتتين وفريدتين ، تخصانه وحده . ولتجنب التشوش لا بد من التزام الدقة فى استخدام المصطلحات ، فى تحديد المحتوى الذى يُضمّن لهذا المصطلح او ذاك . فثمة فارق كبير بين النظر الى الفوارق المورفولوجية-السوماتية بين الاعراق على انها ظاهرة بيولوجية ، اى على انها جانب ثانوى فى تطورها ، شىء ، وبين اعتبار كافة قانونيات التشكل العرقى وتطور الاعراق اللاحق امورا بيولوجية . فان التمادى فى بيلجة وسكلجة قانونيات تطور الاعراق يؤدى الى العنصرية

* فى الآونة الاخيرة صارت كلمة «اتنوس» اليونانية (التى تعنى «الشعب») غالبا ما تستخدم للدلالة (وخاصة فى الاتنوغرافيا) على جماعات ، مثل الامة والشعب والقبيلة .

البيولوجية والسيكولوجية . فيزعم العنصريون ان الاعراق لا تختلف فيما بينها بمؤشرات جسدية خارجية ، ليست بذات اهمية ، فقط ، بل وبمجمل بنيتها البيولوجية وتكوينها النفسى . وهنا لا يندر ان يختلق هؤلاء اعراقا جديدة موهومة ، يقرنونها بأممهم . وعلى هذا النحو ظهر العرق «الجرمانى» («الآرى») و«الايطالى» و«الانجلوسكسونى» ، وما اليها .

ان التشكل العرقى وما يتبعه من تغير واختلاط للسمات العرقية ، وظهور لسمات جديدة ، امور ، لم تتجاهلها ابدا نظرية وحدة صيرورة الانسان والمجتمع .

بهذا الصدد يقول ماركس وانجلس : «ان المقدمة الاولى لاى تاريخ بشرى هى ، بالطبع ، وجود الاحياء من الافراد البشريين . ولذا فان اول واقعة ملموسة ، ينبغى تسجيلها ، هى البنية الجسدية لهؤلاء الافراد ، وما يلزم عنها من علاقاتهم بباقى الطبيعة» * . ويدل هذا على الفارق المبدئى بين البنية الجسدية للبشر ، القادرين على تسخير الطبيعة بغض النظر عن انتمائهم العرقى ، وبين البنية الجسدية للحيوانات ، التى ليس بوسعها الا التكيف مع الطبيعة . وبهذه المناسبة يبين ماركس وانجلس ان بنية البشر الجسدية هى نتاج لتطورهم الاجتماعى ومصدر له فى آن واحد . «وعليه فان ما يمثله الافراد امر ، يتوقف على ظروف انتاجهم المادية» * * .

وقد بينت الانتروبولوجيا العلمية ان كافة الاعراق زمر للنوع البشرى الواحد . ويبرهن الانتروبولوجيون السوفييت على هذه الحقيقة ، بغض النظر عن تبنيهم لفرضية وحدة او تعدد مراكز تشكل الاعراق .

تقول نظرية وحدة المركز ان الاعراق تشكلت بعد ظهور النيوانتروب . وكانت هجرة النيوانتروبات من مواطنهم الاصلية (شرق البحر الابيض المتوسط وآسيا الامامية والجنوبية) الى مختلف المناطق الجغرافية ، وارتقاؤهم المديد

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ١٩ («الايديولوجيا الالمانية») .

* * المصدر السابق .

والمعقد فى الظروف الجديدة ، وراء تشكل الاعراق المختلفة . ويطرح هذه الفرضية العلمية الانتروبولوجى السوفييتى روغينسكى ، الذى ينطلق فى ذلك من الاعتبارات التالية : ١ – ان التشابه بين اعراق الانسان العصرى فى تفاصيل ، ليست ذات اهمية بالنسبة للتكيف مع الوسط المحيط ، يمكن أن يكون نتاجا لوحدة اصل الاعراق ، لظهورها فى منطقة واحدة ، وان تكن واسعة ؛ ٢ – ان تشابه كل عرق مع الشكل المستحاثى المحلى للمرحلة السالفة جاء نتيجة الاختلاط ، على «اطراف» المنطقة المركزية التى تكوّن فيها Homo sapiens للناس المتشكلين من جديد ، مع الباليانتروبات المحليين * .

وفى معرض الرد على انصار تعددية مراكز الصيرورة العرقية يقول روغينسكى ان نظرياتهم «تؤدى الى لوحة غريبة : ان الاشكال البالغة الاختلاف للناس البدائيين صارت ، بتأثير قوة ما ، وكأنها «تسعى» لتكون متشابهة فيما بينها ، سالكة فى ذلك سبلا متباينة تماما ، حتى ومتعارضة مباشرة . أليس من الاسهل افتراض انه فى صلب تشكل الاعراق العصرية قام سلف عام لها ، كان يقطن منطقة اكثر مركزية ، مما يفسر التشابه بين الاعراق» * * . ولكن هذا الافتراض لا يبدو لنا مقنعا . فهو لا يأخذ بالحسبان حقيقة بالغة الاهمية : اذا كانت الظروف المواتية لظهور الانسان قد نضجت فى بقاع مختلفة من مناطق سكن اسلافه ، فان هذا قد يحدث فى مراكز مختلفة بفعل قانون تكرر الظواهر فى الظروف المتشابهة . وهذه النقطة المنهجية ، التى ينوه بها روغينسكى نفسه * * * ، ذات اهمية بالغة . فهى ، تتفق مع قول انصار المركز الواحد بظهور النيوانتروب من زوج واحد من الاسلاف ، بل تشكل ، على العكس ، حجة علمية لصالح فرضية تعدد المراكز ، التى تذهب الى ان لكل عرق كبير عصرى سلسلة نسب ، تصله بسلفه الخاص من الانتروب او

---

* انظر : ى . ى . روغينسكى . مشكلات صيرورة الانسان ، ص ١٤٢ .

* * المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

* * * المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

الارشيأنتروب ، الذى كان يسكن ، فى حينه ، فى بقعة مشابهة للبقعة التى يعيش فيها اليوم العرق المعنى .

وفى معرض الحديث عن واقعة كون فرضية تعدد المراكز لا تجيب على مسألة تشابه اخلاف اسلاف جد مختلفين ، يقول روغينسكى : ان الاجابة على هذا السؤال تزداد تعقيدا ، وذلك ، فى المقام الاول ، بسبب النقص فى المواد المستحاثية . ولكن مسألة توفر المواد الضرورية هى ، على ما يبدو ، مسألة وقت فقط . واليوم نعرف حوالى ١٢٠ نوعا من الباليأنتروب ، اكتشفت بقاياها فى مناطق مختلفة باوروبا وافريقيا وآسيا الامامية والوسطى والشرقية واندونيسيا (هناك اكثر من ٤٠٠ موضع كهذا) .

واستنادا الى الابحاث الاركيولوجية يرى ديبيتس ، وانتروبولوجيون سوفييت آخرون ، ان الاعراق العصرية بدأت تتشكل فى مراكز متعددة بآسيا وافريقيا واوروبا . وثمة دراسات انتروبولوجية وحسابات احصائية ، تبين ان الاشكال النياندرتالية من البشر تتقدم ، وفى كافة المناطق على الاشكال «العاقلة» ، وانه فى آسيا الامامية ، كما فى افريقيا ، يتقدم الباليأنتروب على النيوأنتروب . ولكن مثل هذه المعطيات ، والحق يقال ، تستخدم ، على حد سواء ، لاثبات صحة فرضيتى المراكز المتعددة او المركز الواحد الواسع . وليس هذا من قبيل الصدفة ، ذلك ان هاتين الفرضيتين قريبتان فى نقاط عديدة . ولا تزال المناظرة بين انصارهما قائمة ، وان كانتا ، كلتاهما ، تستجيبان للمتطلبات العلمية . ويمكن التنويه بعدد من نقاط القوة والضعف فى كل من الفرضيتين . ولكن من السابق لأوانه القول بتفوق احداهما على الاخرى . فالجدال الدائر بين انصار فرضيتى تعدد المراكز والمركز الواحد الواسع يشكل حافزا على طريق حل مشكلة صيرورة الاعراق .

ومن الجلى ان فرضية المركز الواحد ، اذا ثبتت صحتها ، تبين ، بوضوح اكبر ، وحدة الاعراق البشرية ، وان هذه الوحدة لا تفسر فقط بالقانونيات العامة لارتقاء الانسان ، بل وبالاصل الواحد للبشرية كلها . ولكن ليس من شأنها ان تتناقض مع وحدة الاعراق تلك الوقائع ، التى تشير الى وجود

مراكز متعددة لنشوئها . وليس ثمة اساس للتخوف من ان القول بتعدد مراكز الصيرورة العرقية يشكل خطرا على الفهم المادى الديالكتيكى لها . ففى الفرضيتين كلتيهما يدور الحديث عن ظهور اعراق الانسان ، اعراق كائن ، يتميز نوعيا عن الحيوان . وانسان كل من الاعراق يتطابق نوعيا مع انسان اى عرق آخر . والشيء الرئيسى فى مواصفات النيوانتروب ، الذى تحدر من اى باليأنتروب ، سيكون دوما انه قام بقفزة نوعية (هى القفزة الثانية) نحو الانسان : فقد صارت لدى كافة النيوانتروبات يد بشرية ، وذهن بشرى ، لهما قدرات لا محدودة على النمو والتطور . وقد اشار انجلس الى ان ما يتوقف على الظروف هو فقط «ان هذه اليد البشرية قد بلغت درجة عالية من الكمال ، بحيث صار بوسعها ، كما لو كانت مزودة بقوة سحرية ، ان تظهر الى النور لوحات رافائيل وتماثيل ثوروالدسن وموسيقى باغانينى» * .

ورغم ان ايا من الفرضيتين ، الواحدية او التعددية ، لا تتناقض مع قوانين المادية الديالكتيكية والتاريخية ، فان هذه وتلك ، على السواء ، قد تؤولان – وتؤولان فعلا – على نحو مادى ديالكتيكى او مثالى ميتافيزيقى . فمن مواقع الميتافيزيقا يبرهن ، مثلا ، على صحة واحدية المركز الضيقة . ومن نفس هذه المواقع ينظر ، مثلا ، عالم الاناتوميا والانتروبولوجيا ف . وايدنريخ الى نظرية تعددية مراكز صيرورة الاعراق . فهو يرى ان مختلف الباليأنتروبات فى مختلف المناطق قد تحولوا الى نيوانتروبات على نحو متواز ومستقل ، بدون تأثير البيئة والعمل ، وانما فقط بفعل قوة محركة داخلية ، كامنة فى بنية الهومينويدات البدائية . وفى مثل هذه الاعمال تستخدم نظرية تعدد المراكز لتبرير تفاوت الاعراق ، حيث تصور الفوارق بينها امورا ، ترجع الى ما قبل ظهور «الانسان العاقل» . وفى هذا الاطار ينسب الباليأنتروب الاوروبى الى Homo sapiens ، اما غير الاوروبى فلا ينسب الا الى

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٤٤٨ (انجلس . ديالكتيك الطبيعة) .

Homo erectus ، اى الانســـان المنتصـــب ذى الرأس الصغير ، الذى يزعمون انـــه يشكل احد الاعراق الاساسية الخمسة المعروفة اليوم .

وعليه ، فان ما هو خاطئ ليس مجرد القول بتعدديـة المراكز فى صيرورة الانسان ، وانما الرأى المثالى حول وجود سبل مستقلة تماما لتشكل الاعراق ، تعود الى اختلاف مزعوم فى قدراتها . ففى الحقيقة ليس ثمة سبل صافية للصيرورة العرقيـــة . فسواء من النياندرتاليين او من باقى انـــواع الهومينويد ، تشكلت – تبعا لنظرية تعدد المراكز – اعراق مختلفة . وفى صيرورة الاعراق يعترف اغلبية الانتروبولوجيين بالاهمية التكيفية للمؤشرات العرقية بالنسبة للمراحل الباكرة من تشكل الانسان . ومن هنا يطرح هؤلاء المهمة التالية : ابراز المناطق الاولية للصيرورة العرقية انطلاقا من وجود وحدات جغرافية منفصلة (غير متصلة) . ولذا فانه عند الحديث عن الجذوع العرقية الاولى للبشرية ينبغى ، اولا ، التفتيش عنها فى اختلاف المناطق الطبيعية وليس فى اختلاف انماط الناس البدائيين ؛ ثانيا ، لا يجوز نسيـــــان ان السبــل ، الممتدة الى هذه الجذوع ليست مستقيمة ولا متوازية ، وانما يجرى تشكل عرقى معقد ومتواصل .

ونجد تأسيس تاريخية الاعراق ، مثلا ، فى اطار نظرية الواحدات الوراثية (populations) ، التى صاغهـا العالـــــم السوفييتى بوناك منذ عام ١٩٣٨ . تذهب هذه النظرية الى ان النزوع نحو تعزز تجانس المخزون الوراثى لا يعتبر متحققا الا فى صورة واحدات غير كبيرة ، تشمل عادة سكان القرى المتجاورة فى منطقة صغيرة ، الذين تربطهم علاقات الزواج . ولكن حتى فى هذه الحالة لا تظهر سبل عرقية صافية . وعلى النقيض من النظرية الافرادية-الانماطية ، القائلة ان كل فرد من نمط انتروبولوجى معين انما يحمل فى بنيته كافة السمات المميزة لهذا النمط ، فان نظرية الواحدات الوراثية لا تعتبر العرق مجرد مجموع لافراد متساويين من الناحية المورفولوجية ، بل ترى فيه واحدة وراثية (polulation) ، يتحدد قوامهـــــا بالعلاقات المتبادلة ، المتشكلة تاريخيا ، بين النوع وبين

ظروف البيئة الخارجية فى مختلف اجزاء المنطقة ، فى مختلف مواضع السكن . وتبين الدراسات ان المؤشرات العرقية للنمط الانتروبولوجى المعنى لا تنتقل الى الاخلاف كجملة متكاملة . فنظرا للتآلف المستقل للمؤشرات الوراثية تبعا للقانونيات الاحتمالية يشاهد تغير ملحوظ فى الاعراق مكانا وزمانا . هذا ولا تتناقض استنتاجات نظرية الواحدات الوراثية سواء مع فرضية المركز الواحد او مع القول بتعدد مراكز التشكل العرقى .

لقد جرى تطور الاعراق بتأثير العوامل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية . فمع التطور الاجتماعى ، وتزايد هجرة السكان ، واتساع نطاق سلطة الناس على قوى الطبيعة ، كان يضعف تأثير العوامل الطبيعية ، مثل العزلة الجغرافية وضرورة التكيف مع الظروف الطبيعية المناخية ، وتتعزز مختلف عمليات الاختلاط بين المجموعات . وجاء «نزوح الشعوب الكبير» وما تبعه من استيطانات لتعزز ، بصورة خاصة ، عمليات تشكل انماط انتروبولوجية انتقالية جديدة .

ان اختلاط الاعراق عملية متواصلة ، تكون احيانا ثلاثية ، حتى واعقد ، كما هو الحال فى اختلاط الزنوج والاوروبيين والهنود بأمريكا اللاتينية . ولكن اعراق الناس ، كما يلاحظ الانتروبولوجيون والاتنوغرافيون ، تختلط حتى بغض النظر عن التزاوج فيما بينها . فبعد اكتشافات علماء الوراثة السوفييت والاجانب (دوبينين ، ميولير وآخرين) لظاهرة التغيرات الجذرية المفاجئة (mutations) للجينات (التى كانت تعتبر من قبل ثابتة ،لا تتغير) صار من الجلى انه بنتيجة تغيرات طارئة كهذه ظهر الكثير من سمات الانسان ، بما فيها السمات العرقية . ويرى الانتروبولوجيون ، مثلا ، «ان اكثر الانماط العرقية نزعا للخضب (depigmentation) – الشقر ذوى العيون الفاتحة – قد ظهرت ، على الاغلب ، عن طريق التغيرات الفجائية ، التى تركزت ، بصورة رئيسية ، فى شمال اوروبا على شواطئ بحر البلطيق وبحر الشمال» * .

وتغدو التأثيرات الخارجية ، وخاصة المرتبطة بتغيرات

* ن . ن . تشيبوكساروف ، إ . أ . تشيبوكساروفا . الشعوب والاعراق والثقافات . موسكو ، ١٩٧١ ، ص ١٢١ .

فى بيئة الحياة ، سببـــا فى التغيرات الوراثية الفجائيـــة (mutations) ، الامر الذى يمكن تتبعه بجلاء فى الفيلوجونيا (التطور الفردى) . فبتأثير البيئة الجديدة وظروف الحيـــاة المستجدة ، ولا سيما الظروف الاجتماعية ، تحدث تغيرات فى سمات العرق . وتتـــوفر لدى الاتنولوجيين والانتروبولوجيين مواد غنية ، تدل على «ان المناطق العرقية لا تبقى ثابتة ، وان تغير حدود منطقة هذا العرق او ذاك ليس استثناء ، بل قاعدة عامة ، سمة مميزة لاصناف الاعراق البشريـــة» * . ومن هنا يحق للاتنوغرافى السوفييتى الكسييف التأكيد «ان الانتروبولوجيا المعاصرة تنظر الى العرق على انه شيء متغير فى الزمان ، مقولة دينامية ، سيالة ، على انـــه «مرحلة فى التطور» ، تمتد احيانا لآلاف السنين ، ولكنها لا بد من ان تُستبدل بأخرى» ** .

ورغم ان الفوارق العرقية لا تمس ماهية الانسان فانها تتأثر بالحياة الاجتماعية السائرة فى طريق التعقيد . وهذه الحقيقة حجة جدية جديدة ضد العنصرية . وينوه الكثير من الانتروبولوجيين والاتنوغرافيين السوفييت بالتقلص السريع (وان كان لا يصل حد الاختفاء الكامل) لدور الاصطفاء الطبيعى فى تغير الاعراق . «فكافـــة تغيرات المؤشرات العرقية فى الزمان تتحدد ، فى نهاية المطاف ، بتطور البشرية الاقتصادى الاجتماعى ، بوتائره وخصوصياتـــه الملموسة لدى مختلف الشعوب» *** .

ان العرق والقومية ، حتى فى الفهـــم الاتنى الضيق للقومية ، مقولتان غير متطابقتين ، ولا تنتميان الى مرتبة واحدة **** . فقد بين العلم ، منذ امد بعيد ، ان المؤشرات العرقية لا تؤثر على تطور الشعوب والثقافات ، وان الاعراق ،

---

* ف . ب . الكسييف . اعراق الانسان فى العلم المعاصر . — فى مجلة «قضايا التاريخ» ، ١٩٦٧ ، العدد ٧ ، ص ٧٩ .

** المصدر السابق .

*** ن . ن . تشيبوكسـاروف ، إ . أ . تشيبوكساروفـــا . الشعوب والاعراق والثقافات ، ص ١٥٧ .

**** ورغم ان علم الاعراق ، وخاصة فى الاتحـــاد السوفييتى ،

من جهة ، والجماعات القومية ، من جهة اخرى ، لا ترتبط فيما بينها بصلة داخلية ضرورية . والجماعات القومية تتشكل وتتطور بتأثير القانونيات الاجتماعية حصرا ، بغض النظر عن المؤشرات العرقية للناس المنتمين اليها . ثم ان كل امة ، كل شعب ، تتألف من اناس هجناء . ومن العبث التحدث عن قومية سوداء البشرة او بيضائهـا ، مستطيلة الرأس او دائريته ، او وضع سلالة نسب الشعوب على اساس شجرة اصل اللغات . والظهور التاريخي لكل من الجماعات الاتنواجتماعية (القبيلة ، الشعب ، الامة) يرتبط مباشرة بصيرورة تشكيلة اقتصادية اجتماعية معينة .

وفى مقابل علم الاعراق يقوم علم كاذب ، هو العرقية ، او العنصرية (racism) .

ان **العنصرية** سيكولوجية وايديولوجية وممارسة ، ترتكز الى تصورات وافكار ، مناوئة للعلم ومعادية للانسان ، تؤكد على التفاوت البدنى والنفسى بين الاعراق البشرية ، وعلى جواز ، حتى وضرورة ، سيطرة العرق «الاعلى» على الاعراق «الدنيا» . والامبريالية تستخدم العنصرية على نطاق واسع . فللتستر على اهداف الامبريالية الانانية والمعادية للانسانية يحاول منظروها «البرهان» على صحة العنصرية بمختلف الحيل

يتطور فى صلة مباشرة بالاتنوغرافيا والاركيولوجيا ، وان جملة من ابحاث الاعراق ترتبط بالتاريخ الاتنى ، فان الاتنوغرافيا ، بحد ذاتها ، لا تعنى بالاعراق بما هى اعراق ، وانما تدرس الانماط الانتروبولوجية . والانماط الانتربولوجية عبارة عن جماعات من البشر ، تأتى سماتهم الجسدية حصيلة للتفاعل بين مختلف الاعراق والزمر التى تتفرع اليها . وهذا الميدان من الانتروبولوجيا يدعى بالانتروبولوجيا الاتنية ، حتى ويعتبر مبحثا مستقلا . ولكن الانتروبولوجيا الاتنية ترصد لونا من العلاقات بين الانماط الانتروبولوجية وبين الجماعات اللغوية والاتنوغرافية ، مغايرا للون العلاقات بين الاعراق ومؤشراتها . وهكذا ففى حين ان العرق ومؤشراته يفترضان احدهما الآخر ، فان اللغة والثقافة يمكن ان تنتشرا بغض النظر عن مناطق تواجد الانماط الانتروبولوجية ، التى لا تنتشر بدون ثقافة ولغة (انظر : الاعراق والشعوب . حولية . موسكو ، ١٩٧٤ ، ص ٨٠) .

والاخاديع . وبادئ ذى بدء ، يقوم العنصريون بالمطابقة بين البيولوجيا البشرية والبيولوجيا الحيوانية ، ويقسمون البشر وشعوبا باكملها الى سلالات ، ويحددون محاسنها ومساوئها تبعا لأصلها البيولوجى . وتركّز العنصرية على الفوارق المورفولوجية بين الناس ، وهى الفوارق الثانوية الاهمية ، لتنكر وحدة البشر البيولوجية ، ولتحول البيولوجيا ذاتها الى العامل الحاسم المحدد للتطور الاجتماعى . وبما ان الاعراق المختلفة ، من هذه الزاوية ، ذات بيولوجيا متباينة نوعيا ، تُعلَن بعض الاعراق اعراقا كاملة من الناحية البيولوجية ، اعراقا قوية وموهوبة ، وتصوّر الاخرى اعراقا قاصرة ، محدودة وضعيفة . ومن هنا ينطلق العنصريون للقول ان الطبيعة نفسها هى التى هيأت الاقوياء للسيطرة على الضعفاء ، حتى ولابادتهم ، وقدّرت للضعفاء الخضوع وعدم التذمر من حكم الطبيعة . اما التناحر بين الاعراق «العليا» و«الدنيا» فتصوره العنصرية قوة محركة للتطور الاجتماعى .

ان العنصرية ، التى ظهرت منذ المجتمع العبودى ، قد استخدمت لاثبات «طبيعية» سيطرة الاسياد على العبيد ، وفى العصور الوسطى – سيطرة «الاشراف» على «العامة» و«سواد» الشعب ، ومنذ عصر التراكم الاولى للرأسمال راحت تبرر الاستعمار والاستغلال البشع ، حتى والابادة الجماعية للهنود فى امريكا ، وللزنوج فى افريقيا ، ولشعوب كثيرة فى جنوب آسيا واوستراليا واوقيانيا . وفى عصر الرأسمالية تستخدم العنصرية مذاهب الداروينية الاجتماعية والمالتوسية واليوجينية («تحسين النسل») . وقد تجسد تفاعل العنصرية وهذه التيارات على اشد صوره خطرا فى الفاشية والصهيونية والابارتهيد . ان كافة اشكال العنصرية التى ولّدها الرأسمال الاحتكارى تستخدم لتأجيج العداء العرقى والقومى ولاذكاء النزاعات واشعال الحروب المدمرة . فالنازية ، التى اعتبرت «العرق» الجرمانى عرقا «اعلى» ، اشعلت نار الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩–١٩٤٥ ، وذلك بهدف تحقيق فكرتها الخرقاء حول بسط سيطرة «امة الاسياد» على العالم كله . اما الصهيونية ، التى تنطلق من نظرية «الشعب المختار» الباطلة

والرجعية ، فتزعم ان يهود العالم كله يشكلون امة واحدة ، لها حق خاص فى «ارض الميعاد» . وتجمع بين الصهيونية والفاشية نفس الايديولوجية اللاانسانية ، نفس السياسة العنصرية والعدوانية ، نفس ممارسة الابادة الجماعية * . وهنا تجدر الاشارة الى ان الفاشية والصهيونية ، على السواء ، استخدمتا وتستخدمان ، فى ايديولوجيتهما وسياستهما الرجعية ، لونا من العنصرية ، هو معاداة السامية ، وان كان ذلك تحت شعارات قومية متغايرة . فقد كانت الفاشية تدعو الى تعاضد كافة الالمان ضد اليهود (وباقى القوميات) ، اما الصهيونية فتنادى بتعاضد كل اليهود بهدف التصدى المزعوم لمعاداة السامية على النطاق العالمى .

وقد قال انجلس فى معرض الحديث عن الظروف المواتية لانتشار معاداة السامية : «ان العداء للسامية دليل على الثقافة المتخلفة . . .» ** . والعداء للسامية تزرعه البرجوازية ، والصهاينة ضمنا ، زرعا واعيا ، وذلك كشكل متطرف من الشوفينية العنصرية . وعلى هذا النحو تكون معاداة السامية هى الصهيونية معكوسة . فاذا كان الصهاينة يعتبرون كافة يهود العالم عرقا خاصا اعلى ، «مختارا» ، فان اعداء السامية ، اذ يحشرون اليهود فى «عرق» متميز بأصله وطابعه ونفسيته ، يزعمون ، بدورهم ، فرادة هذا العرق ، ولكن بالمعنى العكسى ، فيسبغون على كافة اليهود الصفات السلبية والمذمومة . وهذان اللونان من العنصرية يغذيان احدهما الآخر ويعززه . ولذا فليس من الصدفة ان يصرح مرارا زعماء الصهاينة (جابوتينسكى ، غولدمان ، هرتزل ، وغيرهم) بأن معاداة السامية حليف لهم ، ضرورى ونافع *** . ان رفع بعض

* واذا كان النازيون طبقوا سياسة الابادة العنصرية حيال اليهود ، وطبقتها الامبريالية الامريكية فى الفيتنام والسلفادور ، فان صهاينة اسرائيل يطبقون الابادة الجماعية ، الهتلرية النمط بالذات ، حيال الشعب الفلسطينى .

** ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٢ ، ص ٥٣ (انجلس . حول معاداة السامية) .

*** انظر : ايديولوجية وممارسة الصهيونة العالمية . موسكو ، ١٩٧٨ ، ص ٥٤-٦٩ .

الاعراق الى مصاف الاعراق العليا ، كما فعلت ذلك الصهيونية بالنسبة ليهود العالم كله والنازية بالنسبة للجرمان كافة ، قد استند ، قبل كل شيء ، الى بيلجة الماهية البشرية («وحدة الدم») ، وان استخدمت ايضا ، ولا تزال تستخدم ، الدوافع الدينية (من قبل الصهاينة) وبواعث اخرى غيرها (ولا سيما «الروح الخاصة») .

ولكن معظم العنصريين ، اذ لا يجدون فى الانتروبولوجيا مرتكزا لاختلاقاتهم ، يعولون ، وبصورة متزايدة ، نحو العنصرية النفسية ، فيحاولون رصد مثالب موهومة للعرق (او للامة) المستصغَر فى «اخلاقه الخاصة» او «تكوينه النفسى الخاص» .

وهكذا فان العنصرية ، حتى فى العصر الحاضر ، لا تختفى من عالم الرأسمال ، على العكس ، فانها تزداد حدة ، لتغذى العصبية القومية والشوفينية من كافة الضروب ، انتهاء بالفاشية ، التى ادت فى سنوات الحرب العالمية الثانية الى فظائع بوخنوالد واسفنتسيم ، الى سياسة «انتخاب البشر» المشينة * ، ومحاولات استخلاص «عرق السادة» ، التى تكون باقى الشعوب كلها خادمة له .

---

* فى عام ١٩٣٥ اصدر هتلر «قوانين نيورنبرغ» المقيتة ، التى تعلن تفوق عامة الالمان بوصفهم ممثلين لعرق السادة الاعلى . وتشجيعا لانجاب الاطفال غير الشرعيين من الآريين اقام ما سمى «ببيوت الحياة» («ليبينسبورن») ، حيث عاشت ما بين عامى ١٩٣٥ و١٩٤٥ ، ٢٠٠ الف امرأة . وبعد ٢٠ عاما من انتهاء الحرب العالمية الثانية جمع الباحثون الفرنسيون معلومات حول نتائج هذه التجربة البهيمية . وكانت الحصيلة العامة هى التالية : انخفضت معدلات الولادة ، وارتفعت نسبة الوفيات ، وازداد عدد الاطفال الذين يولدون مصابين بعاهات ، اما الاطفال الاسوياء فلم يتميزوا باية قدرات خاصة . ولكن فكرة «انتخاب البشر» الفظيعة لم تمت . ففى اوائل السبعينات قرر رجل الاعمال الكاليفورنى غريم ، مستغلا اسم عالم الوراثة ميولير ، «تفريخ» العباقرة ، وذلك بجمع منى الناس الموهوبين واستخدامه لتلقيح النساء . ولكن بين الحائزين على جائزة نوبل لم يتجاوب مع دعوته الا خمسة ، ارسلوا «الاب بالبريد» بينهم شوكلى البالغ من العمر سبعين عاما ،

وجاءت النهاية المهينة ، التى لحقت بالعنصرية النازية ، فحطت من سمعة اشكالها التقليدية ، الاكثر فظاظة ، ولكن العنصرية لم تختف . هنـــا تكفى الاشارة الى وقائع التمييز العنصرى حيال الزنوج فى الولايات المتحدة الامريكية اليوم ، وسياسة الابارتهيد فى جنوب افريقيا ، والصهيونية العالمية . هذا ناهيك عن ظهور الوان معدّلة من العنصرية ، اكثر دهاء واشد فظاعة . ان جوهر العنصرية لم يتغير عمومـا ، ولكن يترتب عليها – كما اشرنا – ان تتوشح برداء العلم وجلباب الوقار .

ففى الولايات المتحدة تروج امتحانات (اختبارات) القدرات الذهنية ، الرامية الى رصد «معامل الذكاء» («ثابت الذكاء») . ولا يخفى اصحاب نظرية «معامل الذكاء» انهم يبنونها بصورة قبلية (apriori – سابقة على التجربة ومستقلة عنها) ، لانهم يعتبرون الذهن شيئــا متعذرا على الادراك . ويذكر الباحث الامريكى لولير ، فى معرض فضحه للنزعة المثالية الذاتية لدى اصحاب هذه النظرية ان جينسين ، الذى يشير الى الاختلاف الكبير بين علماء النفس حول مسألة «ما هو الذكاء» ، يرى انه لا طائل من بحث سؤال ، لا جواب عليه . اما جينسين نفسه ، الذى يتبنى المنحى «الاجرائى» (operational) ، فيشارك الرأى فى «ان الذكاء هو ما يقاس بامتحانات الذكاء» . ويسخر لولير من هذا التعريف ، ذى المسوح الوضعيــة ، فيقول : «نحن نسأل ما هو الذكاء ، لكى نعرف كيف نقيسه ، اما هم فيقولون ان الذكاء يُعرّف بكيفية قياسه» * .

ولقياس «معامل الذكاء» يقترح مخترعو الامتحانات الاحدث ، الآخذين بتقاليد السيكولوجى المعروف بينيه الذى ارسى منذ سنـوات ١٩٠٤–١٩١١ بداية وضع جملــة من الاختبارات (testes) ، المعادلة التالية :

والذى اعلن : «انى افعل هذا لتحسين العرق . . .» (صحيفــــة «الليتراتورنايا غازيتا» ، الاول مــن تشرين الثانى – نوفمبـــر ١٩٨١ ، ص ١٣) .

* ج . لوليــــر . معامل الذكاء ، والوراثــة ، والعنصرية ، ص ٤٠ .

$$\text{معامل الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$$

فاذا كان الشخص ، عند امتحانه ، قد كشف عن ١٥ سنة من العمر العقلى ، وكان عمره الحقيقى ٢٠ سنة ، يكون معامل ذكائه $^{١٥}/_{٢٠}$ × ١٠٠ ، اى ٧٥ .

وبامتحان الذهن الواقعى باختبارات ، وضعت بطرق جد ذاتية ، يتـم تصنيف الناس ، منذ الصغر ، الى «اذكيـاء» و«اغبياء» ، ويرسمون مصيرهم لمدى الحياة منذ دخولهـم للمدرسة * .

ان اسئلة الاختبارات تصاغ ، عن سابق عمد ، بمعزل عن الظروف الاجتماعية الثقافيـة لحيـاة الملونين والبيض المستغَلين ، الذين من الطبيعى انهـم ، فى ظل مثل هذه الطريقة ، يتكشفون عن «معدلات ذكاء» متدنية . وبهذا الصدد يسترعى الاهتمام المثال ، الذى يورده علماء النفس الامريكان . فعند دراسة اطفال من المناطق الفقيرة بولاية كنتوكى بواسطة واحد من اختبارات بينيه المعدّلة ، وجه السؤال التالى الى احد الاطفال : «لو كان معك ١٠ سنتات ، وصرفت منها ستة على المصيص فكم يبقى معك ؟» واجاب الطفل انه لم يكن معه ابدا ١٠ سنتات ، ولو كان معه ١٠ سنتات لما انفقتها على المصيص . وعندئذ غيّر الممتحن صيغة السؤال : «لو كنت ترعى ١٠ بقرات ، وضاعت منها ست ، فكم بقرة تسوق الى البيت ؟» واجاب الطفل بانه لم يكن ليتجرأ عندئذ على الرجوع الى البيت . وقام الممتحن بمحاولة جديدة للحصول على الاجابة المطلوبة : «اذا كان يدرس فى المدرسة ١٠ تلاميذ ومرض ستة منهم بالحصبة ، فكـم تلميذ يأتى الى المدرسـة ؟» «لا احد» — اجاب الطفل — «لان الآخرين كانوا سيخافون مـن العدوى» . ومن الناحية الشكلية كان بالامكان اعتبار ان الطفل لم يحل المسألة (١٠ ناقص ٦) ، اما ، فى الحقيقة ، فانه عبر عن خبرته الاجتماعية .

ويورد سيكولوجـى آخر ، هو كلاينبرغ ، معطيـات

---

* انظر : الاعراق والمجتمع ، ص ١٦١–١٧٠ .

تجريبية ، تبيّن كيف يمكن للسمات والتقاليد القومية ان تؤثر على اجابات الممتحَنين ، وان تؤدى الى تقييمات غير موضوعية . وذلك انه فى قبيلة سيو من الهنود الحمر يعتبر من غير اللائق الاجابة على السؤال ، اذا كان احد آخر من الحاضرين لم يستطع الاجابة عليه . فكان يكفى الا يحلّ احد من الاطفال الممتحَنين المسألة المطروحة عليه حتى يغدو باقى اطفال المجموعة «عاجزين» عن حلها . وفى قبيلة ياكيم من الهنود لا وجود لشعور المنافسة ، ولذا فانه فى الاختبارات الجماعية ، حيث تشكل سرعة الحل المعيار الرئيسى للتقييم ، لا بد للنتائج هنا ان تكون متدنية . وهاكم مثالا آخر . فى اختبار واسع الانتشار فى الولايات المتحدة يطلب من الممتحَن ان يكمل العبارة الناقصة ، من حيث المعنى ، باضافة كلمة معينة . وفى احدى العبارات «فى الكنيسة والمكتبة يجب ان يسود . . .» كان ينبغى اضافة كلمة «الهدوء» . ولكن الاطفال السود فى جنوب البلاد عادة ما «يخطئون» هنا ، لأن الهدوء فى الكنائس الزنجية ليس قاعدة ، وتجرى الصلوات فى جو صاخب ، يشارك فيه كل الحاضرين * .

وبواسطة مختلف انواع التلاعب لم يكن من الصعب على الممتحَنين ، وهم عادة من البيض الذين يلبون التوصيات الاجتماعية للطبقة السائدة ، ان «يبرهنوا» على ان الملونين البالغين ايضا ، او ابناء الفئات الفقيرة ، متخلفون من حيث قدراتهم العقلية تخلفا كبيرا ، وليس بوسعهم الا وظائف معينة باشراف النخبة او الامة الموهوبة . ومن ذلك انه اذا اجابت مجموعة من السود فى العشرين من عمرهم على اسئلة ، وضعت خصيصا على مستوى ابناء الطبقة الوسطى او العليا الذين هم فى الخامسة عشرة من العمر ، فان العنصريين يحددون العمر العقلى للسود بـ١٥ سنة ، ليزعموا ان السود فى مرحلة من الطفولة الثقافية ، ولذا فانهم يحتاجون الى مرشدين ومنظمين متمدنين .

اما عالما النفس الامريكيان ويليمس وريفيرز اللذان

---

* انظر : الاعراق والمجتمع ، ص ١٧٢ــ١٧٣ .

وضعا اختبارا خاصا بالاطفال السود ، يراعى حياتهم الاجتماعية ولغتهم وبيئتهم الثقافية ، فقد بينا انه فى هذه الحالة كانت اجابات الاطفال السود احسن منها لدى البيض الذين يعيشون فى ظروف مغايرة . وجدير بالذكر ان ويليمس نفسه زنجى ، استطاع بجهده ومثابرته ان يحصل على درجة الماجستير ، ثم الدكتوراه ، فى علم النفس ، وان كان قد حصل ، وهو فى الخامسة عشرة من العمر ، على «معامل الذكاء» ٨٢ ، وبالكاد لم يفرز فى صف الاطفال المتخلفين ذهنيا . ويكشف ويليمس عن المغزى الطبقى لمثل هذه الاختبارات ، فيقول ان رسالتها الاجتماعية الاساسية تقوم فى منع الزنوج من الانخراط فى التيار الرئيسى لحياة امريكا ، وان هذه الاختبارات شكل من قواعد الجنوب القديمة ، التى تقول : «للبيض فقط» * .

ان التناول الموضوعى لنظرية «معامل الذكاء» يبين انها ذات طابع طبقى وايديولوجى صرف ، وانها تهدف الى احياء النزعات النخبوية والعنصرية القديمة فى صورة متسترة ، حيث يصوغها العلماء البرجوازيون فى عبارات ديمقراطية . ومن ذلك ان جينسين يحاول حتى اقامة التقسيم العنصرى لميادين النشاط على «ارضية علمية» . فهو يرى ، مثلا ، انه لدى الزنوج تتطور ، بصورة ابكر واحسن منها لدى غيرهم ، الوظائف الحركية المتعلقة بالعمل الجسدى (او بالتفوق فى الرياضة) . كما ويزعم ان الزنوج وابناء البيض من فئات المجتمع الدنيا يملكون قدرات اقترانية (ترابطية associative) على الاغلب ، ولذا فلا طائل من العمل لتدريبهم على الفكر المفهومى المجرد ، حتى وسيكون ذلك «اجحافا» بحقهم !

وهكذا فانه فى «اختبارات الذكاء» تصنف فى عداد الاعراق الدنيا لا الاتنوسات غير البيضاء فحسب ، بل والبيض الفقراء من ابناء الامم السائدة ، مما يدل مرة اخرى ، على ان مثل هذه الاختبارات تخدم العنصرية التى تعبر عن المصالح الطبقية الامبريالية . ثم ان العنصرية «العلمية» قد اخترعت للبيض

* Williams R. L. The Silent Mugging of the Black Community.—"Psychology today", 1974, Vol. 7, N 12.

الفقراء **نظرية «الفقر الثقافى»** . وللوهلــة الاولى قد يتبدى وكأن هذه النظرية تعترف بدور الوسط الاجتماعى ، حيث تزعم ان الفقراء يكونون من حملة «الفقر الثقافى» لانهم يعيشون فى الاحياء الفقيرة . ولكن عند التمعن فيها يتبين انها تفسر معيشتهم فى تلك الاحياء بانهم متخلفون من حيث قدراتهـــم النفسية والمعنويـــة . وتبعـــا لهذه النظرية العنصرية فان «الفقراء هم الذين يخلقون الاحياء الفقيرة» ، ولذا فانهم هم المسئولون عن فقرهم ، ولا دخل للرأسمالية بذلك ؛ ففـــى المجتمع يفعل قانون الداروينيـــة الاجتماعية ، قانون بقـــاء الاقوى ، وعلى كل امرئ ان يعرف مكانته لكى يتم الاستقرار الاجتماعى (الرأسمالى ، بالطبع) .

كمـــا وتروج فى الولايات المتحدة الامريكية «نظريـــة القناعات» ، التى تقول ان الاستقـــرار الاجتماعى يتوفـــر بكونفورمية القناعات ، اى بموافقة كافة المواطنين على المعايير والقواعد السائدة فى المجتمع البرجوازى ، بتناحراته الطبقية والقومية . ووفقا لهذه النظرية يترتب على الزنوج الامريكان ، مثلا ، ان يتقبلوا المعايير والقواعد التى تبرر العنصرية .

وفى العصر الحاضر جاء نزوع الشركات المتعددة الجنسيات والشركـــات فوق القومية نحو الاستغلال الاحتكارى لكادحى مختلف البلدان فولّد لونا من تعاضد الامبرياليين العالمى فى الحفاظ على نظام التمييز العنصرى بهدف جنى الارباح الطائلة . ولكن من المتعذر الحفاظ على هذا النظام بالاساليب التقليدية فى ظروف نهوض الشعوب الثورى وانهيار الاستعمار . ولذا تحتاج الامبريالية الى تأسيس «علمى» لـ«طبيعية» مراتبيـــة الطبقات والاعراق والامـــم ، والى «براهين» على ان اصحاب المليارات ، والنخبة الحاكمة ، يظهرون نتيجة «الاصطفـــاء الطبيعى» ، ووراثتهـــم لاحسن جينات (مورثات) البشرية . بعبارة اخرى : يطلب من العلم اثبات صحة النظريات العنصرية القديمة . ولذا لا يمكن للحكومات الامبريالية ان تشجع على الابحاث العرقية ، العلمية والموضوعية .

ان كافة الوان العنصرية ، الجديدة منها والقديمة ، تشكل اساسا فكريا لاضطهاد الكادحين ولتشتيت صفوفهم ولتبرير

الصيغ الكولونيالية والكولونيالية الجديدة فى الاستغلال الفائق . «فان العنصرية اليوم ، بكافة تجلياتها – النيجروفوبيا ، والآرية ، والامريكانية الجديدة ، والصهيونية ومعاداة السامية ، و«العنصرية المعكوسة» التى تتبدى الآن فى صورة الزنجانية . . . وطرح الهنود الحمر كعرق فى مجابهة كافة «البيض» و«السود» ، وغيرها – هذه كلها ليست منظومة من الافكار الخاطئة والكاذبة فحسب ، بل ومنظومة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، تسهّل على البرجوازية الاحتكارية استغلال كافة الكادحين ، وتضعف وحدة الطبقة العاملة ، وترسّخ مواقع الامبريالية» * .

وجدير بالذكر انه بتلك الاعتبارات يفسر ما تشهده السنوات الاخيرة من تعزز العنصرية حتى فى عدد من البلدان الاوروبية ، وخاصة بالارتباط مع تدفق المهاجرين الذين يستخدمهم الامبرياليون كقوة عمل رخيصة وكاداة لشق صفوف الطبقة العاملة .

وتلعب الولايات المتحدة الامريكية دورا متميزا فى تطوير العنصرية ، نظريتها وممارستها . فالعنصرية اللاانسانية سمة ثابتة من سمات «نمط الحياة الامريكى» . فسياسة ابادة السكان الاصليين من الهنود الحمر ، وسيطرة العبودية فى جنوب البلاد حقبة طويلة من الزمن ، والتوسع الامبريالى – هذا كله وفَر ، منذ اواسط القرن التاسع عشر ، تربة خصبة لنمو العنصرية وترسخها فى المجتمع الامريكى . ومن الطبيعى ان هذه مأساة بالنسبة لامريكا ذاتها ، وهى المتعددة الاعراق من حيث تركيبها ، ولكن ليس بالنسبة لها وحدها فقط . فالولايات المتحدة لم تغد فقط بلد التمييز العنصرى ، بلد النزاعات والصدامات العنصرية العنيفة ، بل وصارت مركزا لوضع الافكار العنصرية الباطلة ، للتأسيس «العلمى» لمشروعية العنصرية .

فحتى قبل ظهور الالوان الاحدث من العنصرية «العلمية» راجت فى الولايات المتحدة نظريات الفرويدية والفرويدية

---

* الاعراق والمجتمع ، ص ١٤١ .

الجديدة والسلوكية ، التى ترد ماهية الانسان ، على نحو او آخر ، الى تكوينه البيولوجى . ويرى انصار هذه النظريات ان الاشكال الاجتماعية من سلوك الانسان «مبرمجة» سلفا فى جيناته ، وانه فى تشكل الشخصية يكون الدور الحاسم لتغير الجينات ، لا لتغير ظروف الحياة الاجتماعية . ثم سحبت افكار الفرويدية على ميدان الاتنوغرافيا ، وذلك من قبل الطبيب النفسانى الامريكى كاردينر والاتنوغرافى والانتروبولوجى الامريكى لينتون . اما المدرسة السيكولوجية ، التى تشكلت فى الولايات المتحدة فى اواسط الخمسينات ، فتروج للعنصرية السيكولوجية الانجلوسكسونية : امتداح نمط الحياة الامريكى ، و«اثبات» حق الامريكان فى رسم مصائر شعوب العالم .

ويقترح العنصريون توصيات داروينية اجتماعية ويوجينية جديدة لتحسين سلالات البشر . اما مصدر الجينات القيمة فهو ، بالطبع ، «العرق الاعلى» ، ولذا يُنصح ابناء الاعراق الاخرى باستخدام وسائل الهندسة الوراثية والجراحة النفسانية بهدف «اصلاح» سلوكهم ، اى خلق عبيد طيعين * . وهذه التوصيات وغيرها توضع فى المختبرات «العلمية» من قبل علماء امريكان مرموقين ، ولكنهم عنصريون بقناعاتهم ، امثال البيولوجى سكينر والسيكولوجى جينسين والفيزيائى شوكلى .

وتبين التجربة التاريخية الارتباط الوثيق بين النزعات العنصرية والشوفينية والعسكرية . فالامبريالية ، بتأجيجها للنزاعات الاجتماعية والعرقية والقومية ، تستخدم العنصرية لتضليل الكادحين ، ولاقامة الانظمة الدكتاتورية الفاشية ، وللتحضير لحرب نووية .

وتشكل الولايات المتحدة الامريكية قلعة العنصرية العالمية . ويتجلى هذا على اشده فى الروابط الوثيقة بينها وبين عنصريى جنوب افريقيا وصهاينة اسرائيل . فالدوائر

---

* وقد لقيت تجارب مثل هذا الاصلاح لسلوك البشر تشجيع اشخاص ، مثل الرئيس الامريكى السابق نيكسون ، والرئيس الامريكى الحالى ريغان .

الحاكمة فى امريكا لا تقلق بالها جرائم الابارتهيد الفظيعة فى جنوب افريقيا ، حيث يسيطر «ابشع نظام عرفه العالم بعد موت هتلر» * . ومع تسلم ادارة ريغان لمقاليد الحكم فى البيت الابيض انتعشت اكثر الانظمة العنصرية والدكتاتورية رجعية فى العالم .

واذا كان التمييز العنصرى فى جنوب افريقيا يجرى على مستوى السياسة الحكومية الرسمية فى ظل التأييد الخفى والعلنى من جانب الدول الامبريالية ، فان اسرائيل تستند الى مثل هذا التأييد لتشن العدوان على الشعوب العربية حتى ولتمارس الابادة الجماعية ضدها . وفى اسرائيل نفسها تقيم الدوائر الصهيونية الحاكمة المراتبية الفئوية ، فتقسم السكان اليهود الى نخبة متميزة عليا ، هى فئة الصبرى (اليهود الفلسطينيى الاصل) ، تليها فئة الاشكنازى (اليهود المتحدرين من اوروبا الشرقية) ، وفى ادنى السلم يأتى الفلاشى (اليهود المتحدرون من آسيا وافريقيا) ، الذين يمارس التمييز حيالهم فى كافة مجالات الحياة .

والنزعة العنصرية والعصبية القومية ظاهرتان من مستوى واحد ، تغذيان احداهما الاخرى وتعززها . ولذا فان النضال ضد العنصرية ، ضد المعارضة بين الاتنوسات وتقسيم الشعوب الى «تاريخية» و«غير تاريخية» ، يشكل واحدة من أجل مهام القوى التقدمية فى العالم كله .

ويلعب العلم دورا هاما فى هذا النضال . ولكنه ينبغى الاخذ بالحسبان انه طالما ظلت الامبريالية قائمة فان منظريها سوف يفتشون فى اكتشافات العلم المعاصر على حجج شبه علمية ، يستخدمونها للدفاع عن العنصرية . ومن هنا تبرز

---

* ب . بانتينغ . تشكل الرايخ بجنوب افريقيا . موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ١٥ . **الابارتهيد** ـ حرفيا «تقسيم الاعراق» . ويقوم جوهر ايديولوجيته فى القول بالحفاظ على نقاوة العرق بهدف التفتح الاكمل للقدرات الكامنة فيه . وعلى صعيد الممارسة تتجسد هذه الفكرة فى التمييز العنصرى واقامة مناطق عرقية مغلقة ، هى اشبه بمعسكرات اعتقال ضخمة (انظر : آفاق وصعوبات النضال فى افريقيا . براغ ، ١٩٧٧ ، ص ١٩) .

فى الوقت الحاضر مهمة فضح تزييف انجازات العلم الحقيقى ، الذى لم يكن ابدا ، ويجب الا يكون ، حليفا للنزعة العنصرية .

ومن الامثلة الجلية على هذه النظرة الى العلم جاء المؤتمر المكرس للدراسة النقدية للنظريات العلمية الزائفة ، المستخدمة لتبرير النزعة العنصرية والتمييز العنصرى ، وهو المؤتمر الذى عقد فى اثينا ، بمبادرة من اليونيسكو ، فى ربيع عام ١٩٨١ . وقد صيغت فى البيان الصادر عن المؤتمر ، بعنوان «العلماء ضد العنصرية» ، والمؤلف من ٢٢ بندا ، استنتاجات المؤتمر الرئيسية ، التى نورد اهمها ادناه ، بالنص الكامل او بايجاز :

١ – تثبت آخر الاكتشافات الانتروبولوجية وحدة البشرية كنوع بيولوجى . . .

٥ – ثبت ان الفارق بين البنية الوراثية لفردين ، ينتميان الى جماعة بشرية واحدة ، قد يكون اكبر بكثير منه بين البنى الوراثية المتوسطة لجماعتين من البشر . وينفى هذا الاكتشاف امكانية وضع تحديد ، موضوعى وثابت ، لمختلف الاعراق ، مما يفرغ كلمة «العرق» من القسم الاكبر من مغزاها البيولوجى .

٦ – بغض النظر عن الفوارق الملاحظة لا يمكن للبيولوجيا ابدا ان تشكل اساسا لترتيب الافراد او الجماعات . . .

٩ – ان الدور الاساسى للثقافة يجعل الناس نوعا بيولوجيا فريدا ، ولا يترك مجالا لأية تفسيرات لسلوك الانسان ، تنطلق حصرا من دراسة سلوك الحيوانات . وليس ثمة اساس لتفسير الفوارق فى سلوك الجماعات بالفوارق الوراثية . . .

١٤ – لا يجوز ، ولا يصح علميا ، استخدام نتائج الاختبارات السيكولوجية وامتحانات «معامل الذكاء» ، وخاصة لدعم النبذ الاجتماعى او التمييز العنصرى . . .

١٧ – تشكل العنصرية ، عادة ، اداة ، تستخدمها جماعات معينة لترسيخ سلطتها السياسية والاقتصادية ، علما بأن اكثر الوانها تطرفا هى الابارتهيد والابادة الجماعية . . .

٢٠ – يتحمل الاشخاص ، الذين يشتغلون بالعلم ، مسئولية كبيرة عن المستقبل الاجتماعى لمعاصريهم . وفيما

يتعلق بالعنصرية فان هذه المسئولية تشتمل على خيار سياسى واخلاقى . . .

ان العلماء ، الذين اصدروا بيان اثينا ، يدعون كافة الشعوب وبنى البشر لاقامة علاقاتهم وسلوكهم وتصريحاتهم بناء على الاستنتاجات الواردة فى البيان ، والتى تعبر عن المستوى المعاصر للمعارف العلمية حول المسألة العرقية» * .

وتبين علوم الانتروبولوجيا والبيولوجيا والوراثة المعاصرة ان كافة الاعراق البشرية زمر فى اطار نوع واحد – نوع الانسان ، وانها متكافئة كلها ، وان تطورها يتحدد بحياتها الاجتماعية ، لا ببنيتها البيولوجية . والكادحون ، المتسلحون بهذه المعارف ، ينخرطون بنشاط فى النضال المتسق ضد الاوهام والترسبات العنصرية .

وتوفر الماركسية اللينينية ، وفلسفتها – المادية الديالكتيكية والتاريخية ، ركيزة راسخة فى النضال ضد العنصرية . اما السوسيولوجيون البرجوازيون فيعارضون العلم الماركسى عن الانسان بعلم عن ماهية بيولوجية مجردة . حتى ولا يتورعون احيانا عن اتهام ماركس بانه – على حد زعمهم – هو الذى يتجرد ، فى فهمه للانسان ، عن جنسه وعمره وعرقه ، اى يتحدث عن انسان مجرد . ويكشف العالم الامريكى التقدمى بارسونس عن مغزى مثل هذا التحريف للمفاهيم ، ليبين ان ماركس ، حين يؤكد النزعة الانسانية الحقة ، لا يتجرد عن ماهية الانسان الاجتماعية ، بل عن اشكال تجليها . «حقا ، ان الفهم المادى الديالكتيكى للانسان يقود الى نزعة انسانية كاملة ، بلا حدود ، بلا طبقة ، بلا قومية ، بلا عرق او جنس او عمر ، الخ . ولكن هذه النزعة الانسانية ، بدورها ، تقودنا فى الاتجاه المعاكس ، اى نحو الفهم الاكمل لظروف الانسان المادية ولبيئة سكنه» * * .

ان الماركسية اللينينية لا تعرف المهاودة مع اى من الوان

---

* انظر : بيان اثينا . العلماء ضد العنصرية . – «كوريير اليونيسكو» ، ١٩٨١ ، العدد ٦ ، ص ٢٨ .

* * H. Parsons. Humanism and Marx's Thought. Springfield, 1971, p. 6.

العنصرية وتجلياتها . ولكنها تناضل على اصعدة مختلفة : ضد العنصرية الرسمية ، الحكومية ، كسياسة وممارسة اجتماعية للطبقة الاستغلالية التى تمارس الاضطهاد الاجتماعى والقومى ، وضد الاوهام العنصرية ، التى تنقل هذه الطبقة ومنظورها عدواها الى الجماهير الشعبية الواسعة .

وتتولد العنصرية عن الطبقات الاستغلالية ، التى تخدم هذه العنصرية مصالحها ، فلا تأتى من مجرد وجود الاعراق والقوميات المختلفة ، وانما تزرعها الامبريالية وتقويها . ولذا فان البشرية التقدمية كلها ذات مصلحة حيوية فى استئصال جذور العنصرية . ففى كانون الاول – ديسمبر من عام ١٩٦٥ اقرت الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة «الاتفاقية الدولية حول تصفية كافة اشكال التمييز العنصرى» . وقد وصمت الاتفاقية بالجريمة كل ترويج لافكار قائمة على التفوق العرقى او الكراهية العرقية ، كل تحريض على التمييز العنصرى .

ان تأثير العواقب التدميرية للعنصرية لا يقتصر على الشعوب التى يمارس عليها التمييز العنصرى ، بل وعلى الشعوب ، التى تصورها عرقا اعلى . وقد نوّه بهذه الحقيقة ، مثلا ، فى لقاء خبراء اليونيسكو ، الذى انعقد فى ايلول – سبتمبر ١٩٦٧ بمدينة باريس . فقد صدر عن اللقاء «بيان حول الاعراق والاوهام العرقية» ، جاء فيه ان العنصرية تزيف تزييفا فظا معطيات بيولوجيا الانسان وتعيق تطور من يعانى منه ، وتفسد من يتبناها ، وتباعد بين الامم ، وتزيد التوتر العالمى ، وتهدد السلام فى العالم كله .

ان للعنصرية جذورها العميقة ، التى لا تزال قوية . وسوف يترتب على البشرية ان تبذل جهودا كبيرة لكى تجتث هذه الجذور . وهى تعرف السبيل الى بلوغ هذا الهدف ، سبيل حل المسألة القومية ، والنضال ضد كافة تجليات العصبية القومية والعنصرية والشوفينية .

ومع ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧ بدأ عصر جديد فى تاريخ التطور الحر المتكافئ لمختلف الجماعات العرقية والقومية فى روسيا القيصرية سابقا ، وبناء علاقات جديدة بين البشر . وفى ظروف المساواة الحقوقية والفعلية

بيّنت كافة شعوب الاتحاد السوفييتى ، بما فيها الشعوب الصغيرة القليلة التعداد ، التى كانت فى ظل القيصرية مظلومة ومتخلفة ، قدرات متساوية فى تسنم ذرى الحضارة البشرية . أليس هذا دحضا جليا وساطعا للافتراءات العنصرية حول وجود اعراق «عليا» و«دنيا» ! كما وتأتى نجاحات البلدان الاشتراكية الاخرى ، وكذلك بلدان التوجه الاشتراكى ، دليلا على ان تقدم الشعوب الاقتصادى والاجتماعى والثقافى رهن بنظامها الاجتماعى وليس بقوامها العرقى . ولذا فانه ليس من الصدفة ان تكون العنصرية المعاصرة حليفا دائما لمعاداة الاشتراكية والشيوعية .

٣ - القبيلة والشعب

ان القبيلة والشعب اول الجماعات التاريخية المتقدمة على الامة . ويطلق عليهما احيانا ، والامة معهما ، اسم «الاشكال التاريخية لاجتماع الناس» . هذا صحيح ، ولكنه يبقى من غير الواضح ما هو نمط هذه الجماعات ، وفيم تقوم خصوصيتها بالمقارنة مع الجماعات التاريخية الاخرى : العرقية والطبقية والحكومية والدينية وغيرها . فلتفهم خصوصية القبيلة والشعب (والامة كذلك) ينبغى الاخذ بالحسبان ان لهما ، بخلاف الجماعات الاخرى ، وحدة اللغة والثقافة والعادات والتقاليد . وان عبارات «اللغة القومية» و«الارض القومية» و«التقاليد القومية» ومثيلاتها لا تستخدم فقط بالنسبة للامم ، بل وللشعوب ، وكذلك بالنسبة للفئات الاتنوغرافية . هذا ناهيك عن ان مصطلح «الامة» (nation ، باللاتينية «natio») قد ظهر قبل وقت طويل من تشكل الامم كنتاج لتطور التشكيلة الرأسمالية ، وكان يستخدم اول الامر للدلالة على قبائل او شعوب معينة تجمعها الثقافة المشتركة واللغة المشتركة . ويمكن تسمية القبيلة والشعب والامة جماعات قومية (national) بهذا المعنى ، اى من حيث سماتها الاتنية . اما حين ينظر اليها فى كامل روابطها الداخلية ، الاتنية والاقتصادية الاجتماعية معا ، فانه يكون لمصطلح «قومى»

مدلول اعم . ففى هذه الحالة تدعى القبيلة والشعب والامة جماعات اتنواجتماعية .

ان دراسة مادة تاريخية واتنوغرافية كبيرة قد اتاحت لماركس وانجلس التوصل الى الاستنتاج بان كافة الجماعات القومية ، بما فيها القبيلة والشعب ، قد ظهرت من احتياجات التطور الصاعد للمجتمع ، وبان جوهرها يتحدد بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية المعنية . فالسمات الاتنية ، برغم كل استقرارها النسبى ، لا تنتقل الى الجماعة التالية بدون تغير ، كجملة متكاملة . فالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة تمارس تأثيرا ملحوظا على تطور السمات الاتنية ايضا ، وتؤدى الى ظهور سمات اتنية عامة جديدة .

ثم ان تبدل الجماعات الاتنواجتماعية يتوافق مع المسيرة الصاعدة لتطور التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية . وفى اطول التشكيلات ، فى التشكيلة المشاعية البدائية ، كانت هناك مراحل فى تطور اشكال اجتماع الناس .

ان صيرورة الانسان العصرى النمط – النيوانتروب ، وظهور اول مجتمع بشرى ، عمليتان ، حدثتا فى فترة واحدة ، وتشترطان احداهما الاخرى . وكان اسلاف النيوانتروب من الهومينويدات يشكلون قطيعا بدائيا ، يمثل مرحلة ضرورية على طريق تجاوز الحالة الحيوانية . وكانت الغريزة الاجتماعية ، كما يقول انجلس ، «احد اهم عوامل تطور الانسان من القرد» * ، «ولكنه للخروج ، فى مجرى التطور ، من الحالة الحيوانية ، ولتحقيق التقدم العظيم . . . كان يلزم عنصر آخر ايضا : كان ينبغى تعويض النقص فى قدرة القرد على حماية النفس بقوة القطيع الموحدة وبالافعال الجماعية» * * . وكان بالامكان فعل ذلك ، وتم ذلك حقا ، فى مجرى تطور الانتاج الاجتماعى نفسه . «فالكومونة البدائية» ، كما يقول لينين ، «. . . استأصلت «الانانية

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣٤ ، ص ١٣٨ (انجلس ، رسالة الى لافارغ بتاريخ ١٢–١٧ /١١/١٨٧٥) .

* * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٣٩–٤٠ (انجلس . اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) .

الحيوانية»»» * . وبعدها صار تطور الانسان والجماعات البشرية يجرى حصرا فى ظل التأثير الحاسم للقانونيات الاجتماعية . فتحسين النشاط الانتاجى للناس القدامى ، والتطور التقدمى لاساليب عشرتهم ، ولا سيما تطور النطق ، ووضع اسس المؤسسات الاجتماعية ، أدت الى تغير جذرى فى علاقات الناس وروابطهم ، الى ظهور المجتمع العشائرى .

فى اطار العشيرة (الفخذ) يرتبط الناس بصلات القرابة . ولكنه سيكون من الخطأ الانطلاق من ذلك لتفسير ظهور العشيرة بعوامل بيولوجية . فالحاجة الى جماعات مستقرة من البشر ، مؤهلين للافعال المشتركة ، للحياة الاقتصادية المجتمعة ، انما جاءت حصيلة لتطور القوى المنتجة . وكان التنظيم العشائرى اكثر استجابة لمتطلبات اسلوب الانتاج المشاعى البدائى . وفى هذه المرحلة من تطور المجتمع لم يكن للجماعة الانتاجية ان تتشكل الا على اساس قرابة الدم . وصارت العشيرة ، بخلاف القطيع البشرى البدائى ، جماعة مستقرة ، ضرورية فى تلك الظروف ، تضم الاقرباء الذين يتحدرون من اسلاف مشتركين . وثمة عدد من الاتنوغرافيين الماركسيين يرى ان العشيرة تشكل الخلية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع البدائى . وهناك باحثون آخرون ، يذهبون الى ان العشيرة كانت تضطلع ، فى المقام الاول ، بمهام تنظيم الزواج . لن نتوقف هنا عند هذا الخلاف ، وانما ننوه بالامر الرئيسى بالنسبة لموضوعنا ، الا وهو انه بفعل القانون الذى يحرم الزواج بين الاقارب ، اى فى اطار العشيرة الواحدة (وهو التحريم المميز للنظام المشاعى البدائى) ، لم يكن بوسع العشيرة ان تعيش منعزلة لوحدها ، ولم تكن تشكل جماعة اتنواجتماعية مستقلة . فهذه الجماعة تتمثل فى **القبيلة** ، التى تضم عشيرتين على الاقل . وكانت القبيلة تقوم بتنظيم الزواج بين افراد العشائر المختلفة المنتمية اليها ، لتشكل بنية كبيرة (macrostructure) ، تضم بنى صغيرة ، اتنية واقتصادية معا ، هى العشائر ، التى كانت بفعل تحريم

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٨ ، ص ١٣٨ (رسالة الى غوركى فى تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩١٣) .

الزواج بين افراد العشيرة الواحدة ، تترابط دوما ، في اطار القبيلة بالذات ، وفقا لشكلي الانتاج كليهما (وكان انجلس يعتبر انجاب الاطفال الشكل الثاني من الانتاج) . وتبين معطيات الاتنوغرافيا والاركيولوجيا والتاريخ ان القبيلة ظهرت على اساس تطور العلاقات العشائرية ، وانها تمثل اول جماعة اتنواجتماعية في تاريخ البشرية .

وكانت لكل قبيلة تسميتها وارضها ولغتها (اللهجة القبلية) وعاداتها وتقاليدها وتصوراتها الدينية (الميثولوجيا) وطقوسها . وكان افراد القبيلة يملكون معا الاساس المادي للعملية الانتاجية (كافة اراضي القبيلة) وينظمون التوزيع والاستهلاك على قدم المساواة ، فكانت لهم ، خلافا للمجتمعات الطبقية ، حياة اقتصادية مشتركة ، واهداف واحدة ، وكانوا موحدين في العمل وفي الدفاع عن مصالح القبيلة . وان وحدة الحياة الاقتصادية هي التي تفسر ، في نهاية المطاف ، وحدة اللغة ، ووحدة الثقافة المادية والروحية .

وكانت لافراد القبيلة (وبينهم الاسرى الذين جرى تبنيهم) حقوق وواجبات متساوية ، وكانوا يعيشون ويعملون في ظروف طبيعية واجتماعية واحدة ، الامر الذي جعل طباعهم متشابهة . وكانت القبائل المختلفة ، وتبعا لخصوصيات نشاطها ، تعبر في الفن (الرسم ، الرقص ، الالعاب) عن تقييمها لظواهر الحياة ، عن تطلعاتها ومثلها . وكانت لكل قبيلة اعيادها الدورية ، التي تحتفل بها لوحدها ، وتمارس اثناءها الوانا معينة من الطقوس والشعائر . وهكذا كان الوسط العشائري-القبلي الاجتماعي والطبيعي وراء وحدة سمات الطبع والثقافة لدى افراد هذه الجماعات . فالناس في ذلك العصر كانوا ، كما اشار ماركس وانجلس ، «غير متميزين احدهم عن الآخر» ، «ولم يكونوا قد انفصلوا بعد . . . عن الحبل السري للجماعة البدائية» * . وفي الوقت ذاته فانهم ، اذا كانوا يمتلكون سوية وسائل الانتاج ولهم حقوق متساوية وعليهم التزامات واحدة في مد يد العون والمساعدة والدفاع

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٩٩ (انجلس . اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) .

والثأر للاهانات ، كانوا يتمتعون بمشاعر الاستقلالية والكرامة الشخصية والشجاعة * .

ولكن حياة القبيلة المنعزلة واختلاف الظروف الطبيعية ولدا فوارق محلية بينها ، بين ثقافاتها . فقد عثر على نفس الادوات البدائية تقريبا فى شرق افريقيا ، ومراكش ، وجنوب فرنسا ، والشرق الاوسط . ففى كل مكان كان الناس يبدؤون بالاساليب البسيطة البدائية نفسها فى قلع الاحجار ومعالجتها . ولكن هنا ايضا كانت الموارد المحلية (مثل انواع الاحجار المعالجة) متفاوتة ومختلفة . ومع تطور المجتمع البدائى تعمق هذا التنوع . ففى العصر الموستيانى * * صارت الثقافة المادية لدى مختلف جماعات النياندرتاليين اكثر تنوعا وذات سمات محلية جلية .

وكان النظام المشاعى البدائى مستقرا للغاية ، وساد خلال عشرات الآلاف من السنين . ولكن التنظيم العشائرى القبلى كان يتجاوب مع مستوى متدن من تطور الانتاج والعلاقات الاجتماعية . فاستدعت متطلبات تحسين القوى المنتجة توسيع الجماعات البدائية . وعلى هذا النحو ظهرت **اتحادات القبائل** ، التى بدأ بتشكلها تفسخ روابط الدم كأساس للجماعات الاتنواجتماعية .

وبظهور المجتمع العبودى يبدأ تشكل **الشعوب** . فاولى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية الطبقية ولدت اولى الجماعات الاتنواجتماعية (الشعب) * * * . ان الشعب ، بالمقارنة مع القبيلة ، ظاهرة اجتماعية جديدة تماما . وما يصادف احيانا

---

* انظر المصدر السابق ، ص ٩٨ ؛ وانظر ايضا : ارشيف ماركس وانجلس . الطبعة الروسية ، المجلد ٩ ، ص ٧١ .

* * **العصر الموستيانى** ــ او عصر الثقافة الموستيانية ــ فترة ثقافة اوائل العصر الحجرى القديم فى جنوب وغرب اوروبا وفى جنوب الاتحاد السوفييتى وجنوب آسيا وفى افريقيا . وتتحدر التسمية من كهف Le Moustier بفرنسا .

* * * للدلالة على هذه الجماعة صارت تستخدم فى الاتحاد السوفييتى منذ الاربعينات الكلمة الروسية «ناروودنوست» بدلا من كلمة «نارود» (الشعب) . اما فى باقى اللغات فبقى المصطلح القديم «الشعب» قائما .

من آراء ، تذهب الى ان اتحادات القبائل كانت شعوبا ، او ان الشعوب تكونت من تجمع عدة قبائل ، هى آراء خاطئة فى جوهرها . فانصهار القبائل ، عند تشكل الشعوب ، جانب محض خارجى من العملية . فليس هو ما يحدد ماهية الجماعة الاتنواجتماعية الجديدة ، وانما يحددها تفسخ الروابط العشائرية-القبلية . وقد اكد انجلس ان التنظيم العشائرى ، نظرا لتدنى انتاجية العمل ، كان محكوما عليه بالهلاك . فهو لم يمض ابعد من القبيلة . واشار ماركس الى «ان **اتحاد** القبائل هو الشكل الاقرب **للشعب**» * . «فعندما **تنصهر القبائل** ، كالقبائل الاثينية او الاسبارطية ، **فى شعب واحد** ، لم يكن يحصل الا **نسخة من القبيلة** ، **اكثر تعقيدا**» ** . وبالاتفاق مع مورغان كان ماركس يرى انه «**قبل عصر ليكورغ وصولون** كانت (لدى الاغارقة) اربع درجات من التنظيم الاجتماعى : **العشيرة والفراتريا والقبيلة والشعب** . وبكلمة واحدة ، فان المجتمع الاغريقى العشائرى هو **جملة من التجمعات** ، تقوم ادارتها على **علاقات** اعضائها **الشخصية بالعشيرة او الفراتريا او القبيلة**» *** . ويقول ماركس وانجلس نفس الشىء عن الشعب الرومانى وباقى شعوب عصر التنظيم العشائرى .

ويربط ماركس وانجلس ظهور المفهوم الجديد — «الشعب» — بالانتقال من التنظيم العشائرى الى المجتمع الطبقى . «فالمجتمع القديم ، القائم على التجمعات العشائرية ، ينفجر نتيجة للصدامات بين الطبقات الاجتماعية السائرة فى طريق التشكل . . . ومن **الآن** فصاعدا اطلق العنان للتناقضات الطبقية وللصراع الطبقى ، التى تشكل مضمون كل التاريخ **المكتوب** ، انتهاء بعصرنا» **** . ونوه ماركس «بان العلاقة بالعشيرة او الفراتريا كفت عن ان تكون المحددة للحقوق والواجبات المدنية لدى اهالى اثينا . **واكتمل الآن**

---

* ارشيف ماركس وانجلس . المجلد ٩ ، ص ٧٩ .

** المصدر السابق ، ص ١٤١ .

*** المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

**** ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٢٦ .

انصهار الشعب فى جماعة سياسية علـــى ارض معينـــة» * .
فالشعب يمثل عضوية اتنواجتماعية جديدة ، مصاغة فـــى دولة . «وصارت حقوق مواطنى الدولة وواجباتهم ترســـم وفقا لمقدار ملكيتهم العقارية ، وتبعا لدرجـــة نفوذ الطبقات المالكة راحت تتراجع التجمعات القديمة القائمة على قرابـــة الدم . . .» * *

وتبين الدراسة المادية التاريخية للمرحلة الانتقاليـــة المذكورة انه فى اطار القبيلة يجرى تمايز وفرز للعشائر الى غنية وفقيـــرة ، الى «اكابر» و«اصاغر» . ومـــن العشائر الميسورة برزت فئة ارستقراطية ، تتولى تصريف كافة امور اتحاد القبائل . صحيح ان تأثيـــر العادات وانماط التفكير ، المميزة للتنظيم العشائرى ، ظـــل قائما اردح طويل مـــن الزمن ، ولكنه كان يتراجع تدريجيا امام الانظمـــة الجديدة . وانحلت القبائل الى عائلات ، صارت لكل منها مصالحها الخاصة بها . وصارت العائلة ، المؤلفة فقط من الآباء والابناء ، هـــى حامل الملكية الخاصة ، وخلية المجتمع الاقتصادية الاساسية . وكانت هذه العائلة ، كما اشار انجلس ، «الشكـــل الاول للعائلة ، التى لا تقوم فى صلبها الظروف الطبيعية ، بـــل الظروف الاقتصادية ، وتحديدا – انتصار الملكية الخاصة على الملكية البدائية الجماعية ، التى تشكلت عفويا» * * * . ثم ان تطور الملكية الخاصة والتبادل والتجارة قد غيّر طابع اجتماع الناس تغيرا ملحوظا . فظهر تقسيم جديـــد للعمل ، وبدأ الانشطار الطبقى . وراحت قرابـــة الدم ، كأصل لاجتماع الناس ، تخلى مكانها لوحدة الارض .

ان **الشعب** ، كشكل تاريخى لاجتماع الناس ، لا يضـــم فقط عناصر غير متجانسة اتنيا ، بـــل وطبقات تناحرية . ويمكن للناس ان ينضموا الى هذه الجماعة دون ان يكونوا متحدرين من العناصر الاتنية الاساسية للشعب المعنى . وفى

---

* ارشيف ماركس وانجلس . المجلد ٩ ، ص ١٥٥ .

* * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلـــد ٢١ ، ص ١١٦ (انجلس . اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) .

* * * المصدر السابق ، ص ٦٨ .

وقت واحد ، يمكن لطبقة باكملها ان تنتمى الى الاساس الاثنى للشعب ، ولكنها ، بسبب ماهيتها الرجعية ، المعادية للشعب ، لا تندرج فى مفهوم «الشعب» ، فلا تجمعها بكادحى الشعب المعنى وحدة الاخلاق والعادات والثقافة .

وللشعب ، نظرا لقوامه الاجتماعى الجديد نوعيا ، سماته النوعية الجديدة . فله ارض مشتركة ثابتة ، اوسع منها لدى القبيلة . وصارت له قيمة اكبر ، فقد غدت الروابط الاقليمية هى الرئيسية ، حيث حلت مكان العلاقات العشائرية القبلية . وفضلا عن ذلك ، فان ممثلى الطبقات المختلفة يتصرفون بهذه الارض على نحو متفاوت ، وتكون علاقاتهم متباينة المستويات . وبالنسبة للمجتمع التناحرى يكون من الاصح التحدث لا عن وحدة الحياة الاقتصادية ، بل عن الروابط الاقتصادية المتشكلة موضوعيا ، بمعنى انخراط كافة افراد الشعب فى العلاقات الانتاجية للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية المعنية . وبفعل الروابط الاقتصادية تبرز لغة مشتركة من اللهجات القبلية . ولكنه ينبغى التنويه «بان الرابطة الاقتصادية بين الناس ، الذين يؤلفون الشعب ، لا تشمل كل التركيب الاثنى للشعب ، بل جماعات منفردة منه ، فهى تكتسب طابعا محليا ، وذلك فى اطار «الاتحادات الاقليمية» باسواقها «المحلية» . ثم ان تدنى مستوى تطور القوى المنتجة ، وغلبة الزراعة وتربية الحيوان فى اقتصاد الشعب ، وضعف نمو الصناعة والمدن ، وغيرها من العوامل ، ترسخ انغلاق السكان الاقليمى والاقتصادى والثقافى» * .

وفى الشعب يمكن بوضوح تتبع انشطار الوحدة السابقة لنفسية القبيلة وثقافتها . فيبدو الشعب الواحد وكأنه شعبان ، لكل منهما اخلاقه وعاداته وثقافته . وعند الاستقطاب الحاد للطبقات الاجتماعية تظهر ثقافتان فى الشعب . ومع تشكل المجتمع الطبقى ينشأ التضاد بين العمل الجسدى والعمل الذهنى . فعلى عاتق العبد او القن يقع العمل

* أ . غ . اغايف . مصائر الشعوب . موسكو ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

الجسدى المضنى ، اما مالك العبيد او الاقطاعى فيربى بروح ازدراء العمل الجسدى . وان ملاك العبيد والاقطاعيين يضيقون على الابداع الشعبى ، فيحاولون تسخيره لمصالحهم ، وتضمينه الافكار المحافظة والرجعية ، والآراء الغريبة عن الشعب . صحيح انه تبقى بين الطبقات المتناحرة بعض السمات المشتركة فى النفسية والثقافة والحياة اليومية ، ولكن ليست هذه السمات المشتركة هى التى تشكل الملامح الروحية الرئيسية للشعب ككل .

ولكن الشعب ، اذ يشغل مكانة تاريخية محددة فى سلسلة الجماعات الاتنواجتماعية ، يتوزع ، مع ذلك ، الى عدد من الانماط الاجتماعية : عبودى ، اقطاعى ، رأسمالى ، اشتراكى . وبين هذه الانماط فوارق هامة . فالشعوب الاشتراكية تتميز جذريا عن كافة انماط الشعب السالفة ، سواء بقاعدتها الاقتصادية او بقوامها الطبقى وملامحها الروحية .

وقد اكد انجلس على سمة مميزة لشعب المجتمع الاقطاعى (خلافا لشعب المجتمع العبودى) ، هى قدرته على التطور مباشرة الى امة ، ولذا فانه كثيرا ما يسمى «قومية» . وهنا لا يفرز انجلس القومية كنمط مستقل من الجماعات ، يقوم جنبا الى جنب مع الشعب ، ولكنه ينوه فقط بنزعة الشعب (فى المجتمع الاقطاعى) لأن يصير امة ، وبامكانية هذه الصيرورة . وبهذا الصدد اشار الى انه «من اختلاط الشعوب ، الذى جرى فى اوائل العصر الوسيط ، تطورت تدريجيا القوميات الجديدة . . .» * (اى شعوب المجتمع الاقطاعى) وان هذه الشعوب ، هذه «القوميات بدأت تتطور الى امم» * * .

وعلى العموم فان **الشعوب** ، التى ظهرت سواء على ارضية اسلوب الانتاج العبودى او الاقطاعى ، تمثل ، برغم كل الفوارق بينها ، شكلا تاريخيا لاجتماع الناس ، يتميز بوحدة

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٤٠٩ (انجلس . حول تفسخ الاقطاعية وظهور الدول القومية) .

* * المصدر السابق ، ص ٤١٠ .

الارض والعلاقات الاقتصادية الاقليميـــــة واللغة (المتعددة اللهجات) ، وبما ينمو عـــلى اساس هذه الوحدة من وعـى للانتماء الاتنى .

وعليه ينبغى الانتباه ، عنـــد رصد التطور التاريخى لاشكال اجتماع الناس ، الى تغير اساس روابطهم الاجتماعبة . ففى المجتمع ما قبل الطبقى كانت هذه روابط الدم ، اما فى الامة ، كما سنرى ادناه ، فانها الروابط الاقتصادية ، فـــى حين تشكل الصلات الاقليميـــــة (صلات الارض) الروابط الاجتماعية الحاسمة فى الشعب . وفـــى ظل سيطرة الاقتصاد العينى والتشتت الاقطاعـــى تتحقق الروابط الاقتصادية فى اطار اتحادات الاقطاعيات . اما اسلوب الانتاج الرأسمالى ، الذى يبدأ تطوره فى احشاء المجتمـــع الاقطاعى ، فيحتاج الى صيغة جديدة نوعيا لاجتماع الناس . وهذه الصيغة هى الامة .

الامة

ظهرت الامة ، كجماعة اتنواجتماعية جديدة ، على ارضية تشكل الروابط الاقتصادية البرجوازية . فكان تطور الرأسمالية يتطلب التلاحم الاقتصادى والتمركز السياسى للمقاطعات الاقطاعية المجزأة على ارض مشتركة واحدة ، كما كان يتطلب تشكل لغة ادبية عامة .

١ – نشوء الامة وماهيتها ومكانها فى التاريخ

كان مؤسسو الماركسية اللينينية يؤكدون دوما ، فى معالجتهم لنظرية الامة ، على منشئها الطبقى الاجتماعى وماهيتها الاقتصادية الاجتماعية ودورها كشكل لتطور المجتمع . فانصهار اهالى الامارات والمقاطعات الاقطاعية المتفرقة فى امة ظاهرة ، ربطها ماركس وانجلس ولينين بضرورة تمركزها الاقتصادى والسياسى لضمان التطور الحر لاسلوب الانتاج الرأسمالى الناشئ . اما عملية تشكل الامة فقد بدأت قبل ترسخ الرأسمالية ، وجرت فى خضم صراع حاد للبرجوازية الصاعدة ضد الاقطاعيين . وهنا صارت السلطة الملكية تلعب دورا تقدميا من الناحية الموضوعية ، فكانت فى صراعها ضد التمزق الاقطاعى تعول اكثر فاكثر على طبقة البرجوازية النامية . ومن العوامل ، التى ساعدت على تلاحم الامم ، كان ، كما يقول انجلس ، انه «قبل وقت طويل من خرق قذائف المدافع الجديدة لجدران قصور الامراء كانت النقود قد نخرت اساسها» * .

* المصدر السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٤٠٨ .

اما التلاحم النهائى للامة فيجرى عندما ينخرط الريف فى العلاقات الاقتصادية الرأسمالية الدائمة . وبنتيجة القضاء على التمزق الاقطاعى لوسائل الانتاج والملكيـــة والسكان «غدت المقاطعات المستقلة ، التـــى تكاد لا ترتبط فيما بينها الا بعلاقات اتحاديـــة ، وكانت متباينة المصالح والقوانيـــن والحكومات والضرائب الجمركية ، - غدت متلاحمة فى امـــة **واحدة** ، لها حكومة **واحدة** ، وتشريع **واحد** ، ومصلحة طبقيـة قومية **واحدة** ، وحدود جمركية **واحدة**» * . وتتلاحم البرجوازية والبروليتاريا فى اطار بلد واحد ، ولكن تبقى لكل منهمـــا **مصلحته الطبقية** . فالبرجوازية تحتاج الى ضمـــان حرية التنقل لكافة مواطنى البلاد ، الى تشريعات تجارية وصناعية موحدة ، وتحتاج ، فى نهاية المطاف ، الى ازالة كافة العوائق التى تعترض طريق الاستغـــلال الجماهيرى لكادحى شعبها . وصار هذا كله الآن ، كمـــا نوّه انجلس ، «ليس مجـــرد خيالات وطنية لطلبة مفرطى التحمس ، بل غدا شرطا ضروريا لوجود الصناعة» * * . **وفى ذلك بالذات تقوم المصلحة القومية للبرجوازية** . واليه تستند وطنيتها ، وكـــل ايديولوجيتها القومية . **والبروليتاريا قومية هـــى الاخرى** ، ولكن ليس بالمعنى البرجوازى . فهى تحس عفويا ، غريزيا ، ثم تدرك ان تأمين مصالحها يتم على نحو افضل اذا اتحدت على النطاق **الوطنى** . والطبقة العاملة قومية نظرا لانـــه «لكى تكون ، عموما ، مستعدة للنضال ، ينبغى ان تنتظم ، فـــى بلادها ، **كطبقة**» . وبما ان المسرح المباشر لنضالها هو بلادها نفسها «يكون نضالها الطبقى قوميا «من حيث الشكل» ، **لا من حيـــث المضمون**» * * * .

ان مـــاركس وانجلس يبرزان الى الواجهـــة لا **الوحدة**

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٢٨ («بيان الحزب الشيوعى») .

* * المصدر السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٤٢٣ («دور العنف فى التاريخ») .

* * * المصدر السابق ، المجلد ١٩ ، ص ٢٢ («نقد برنامـــج غوته») .

4—290

القومية ، بل **الوحدة الطبقية** القومية . فالبروليتاريا تسعى لبناء وطنها القومى لا لانها تشعر بقرابتها من برجوازية بلادها . وهى ، اذ تنتظم على النطاق القومى ، تتيسر لها امكانية اكبر للنضال الناجح فى سبيل مصالحها . ومن زاوية اخرى «كان للنزوع نحو «الوطن» الواحد قاعدة مادية لا بأس بها» * . فقد اشار انجلس ، مثلا ، ان الايرلنديين ، فى مجرى الصراع المديد ضد انكلترا فى سبيل الاستقلال الوطنى ، قد نمّوا وعى ذاتهم القومى وتقاليدهم . ولكن كان بالامكان ان يبقوا فى اطار انكلترا ، وذلك على غرار الاسكوتلانديين والويلزيين ، لولا ان سياسة الانكليز المتمادية فى عدائها للايرلنديين قد حولت المسألة القومية الايرلندية الى مسألة ارض ، مسألة وجود شعب .

واحيانا ، وبفعل عوامل اجتماعية ، يُفضّل التواجد القومى بعيدا عن الوطن . وذلك هو ما حدث للالزاسيين واللوتارينغيين ، الذين تخلصوا ، بفضل ثورة ١٧٨٩ – ١٧٩٤ البرجوازية الديمقراطية الفرنسية ، من الاصفاد الاقطاعية ونظام النبلاء والامتيازات الورشاتية فى المدن . وقاموا ، على غرار الفرنسيين ، بطرد النبلاء والبارونات والامراء من بلادهم ، واعلنوا انفسهم فرنسيين احرارا . وعندما خاضت الامبراطورية الجرمانية الحرب ضد الثورة «صفّى انتماء الالزاسيين واللوتارينغيين للامة الالمانية ، وتعودوا كره الالمان وازدرائهم ، وفى ستراسبورغ أُلفت «المارسيلييز» ولحنت وترنمت للمرة الاولى على شفاه الالزاسيين ، وفى ميادين مئات المعارك دفاعا عن الثورة انصهر الفرنسيون الالمان ، برغم لغتهم وماضيهم ، فى شعب واحد مع الفرنسيين الاصلاء» ** .

واورد ماركس وانجلس امثلة مشابهة اخرى ، جرت فيها مشاركة اقسام اطرافية من الامم الكبيرة فى الحياة القومية لشعب آخر ، وصارت ترفض العودة للاتحاد مع الاصل

* المصدر السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٤٢٤ («دور العنف فى التاريخ») .

** المصدر السابق ، ص ٤٦١ .

الاساسى ، مما يبين بجلاء ان المشاعر القومية ليست فطرية ، ثابتة لا تتغير ، وانها مهما استمرت ، وخاصة فى الجيلين الاول والثانى ، ستتراجع فى نهاية المطاف امام المصالح الاقتصادية والاجتماعية * .

ان الشرط الحاسم لتشكل الامة هو تذليل التمزق الاقطاعى للاقتصاد . وقد اشار انجلس انه منذ القرون الميلادية الاولى «كانت عناصر الامم الجديدة ** واضحة على قدم وساق : فكانت اللهجات اللاتينية لمختلف المقاطعات تتباعد شيئا فشيئا احداها عن الاخرى ، وكانت الحدود الطبيعية ، التى جعلت فى حينها ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا وافريقيا اقاليم مستقلة ، لا تزال قائمة ، وما لبثت تعلن عن نفسها . ولكن لم تكن هناك ابدا القوة القادرة على ضم هذه العناصر فى امم جديدة» *** . وهنا يقصد انجلس غياب الشرط الرئيسى لظهور الامم – الوحدة الاقتصادية لمختلف مناطق البلدان الاقطاعية الممزقة . ثم ظهرت وحدة الروابط الاقتصادية الرأسمالية على الارض المشتركة .

واشار ماركس وانجلس الى انه لا يجوز ان ينسب الى نفس الامة اناس من قومية واحدة ، ولكن ليس لها ارض

---

* انظر ، مثلا : ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٦ ، ص ١٨١ .

** يضيف انجلس كلمة «جديدة» دفعا للخلط بين «الامة» كحصيلة للراسمالية وبين مصطلح «الامة» ، الذى يستخدمه ماركس وانجلس احيانا بالنسبة لشعوب المجتمعات العبودية والاقطاعية . فليس من النادر ان نجد لديهما عبارات ، مثل «الامم ، المشتتة والمتناثرة على امتداد الف سنة . . .» (ماركس وانجلس . المجلد ٦ ، ص ١٨٢) ، «الى اواخر القرن الثامن لم تكن ايرلندا ماهولة ابدا بامة واحدة» (المصدر السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٥١٦) . وفى حالات كهذه كان ماركس وانجلس يقصدان ان «الامم» بمعنى الشعوب ذات السمات القومية (الاتنية هنا) المتميزة . تواجدت قبل زمن طويل من ظهور الامم العصرية كتجمعات اقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة للناس . وهذه موضوعة هامة ، يتعذر بدونها استجلاء ماهية الامم العصرية كجماعات اتنواجتماعية جديدة .

*** ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ١٤٧ (انجلس . اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) .

مشتركة . كما واعتبرا وحدة اللغة شرطا هاما لقيام الامة .

ذلك هو لب **نظرية ماركس وانجلس الاقتصادية التاريخية فى الامة** ، وهى النظرية التى تعتبر ان الشرط الحاسم لتشكل الامة هو ظهور الروابط الاقتصادية الرأسمالية بين جماعات كبيرة من الناس ، تمثل وحدة الارض واللغة الادبية امرا ضروريا لنشاطهم المشترك .

ثم جاء لينين فطور نظرية ماركس وانجلس الاقتصادية التاريخية فى الامة . فقد ربط ، هو الآخر ، ظهور الامة بمتطلبات المجتمع فى تذليل التفتت الاقطاعى ، وفى افساح المجال لتطور الرأسمالية . اما عصر تشكل الامم فرآه لينين فى حقبة الحركات القومية - اواخر العصر الوسيط واوائل العصر الحديث ، وذهب الى ان اساسها الاقتصادى هو الرأسمالية ، التى كانت تتطلب اقامة سوق داخلية ولغة موحدة كأداة رئيسية للعلاقات التجارية . وفى ذلك يقول : «تلاحم الاقاليم القومية (وضع اللغة ، والاستيقاظ القومى etc.) واقامة **الدولة القومية** . ضرورتها الاقتصادية» * .

ومنذ مؤلفه الباكر - «من هم «اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين-الديمقراطيين ؟» ، يتناول لينين نظرية الامة من حيث هى جزء من الفهم المادى للتاريخ . فهو يربط ظهور الامة بنشوء الرأسمالية ، ويربط تطور هذه بانصهار الاقاليم والامارات المنفردة ، وبتشكل السوق القومية . ففى تحليله لعملية تشكل الامة الروسية يقول لينين : «لقد جاء هذا الانصهار لا من الروابط العشائرية . . . حتى ولا بمثابة استمرار وتعميم لها : فقد استدعاه التبادل المتنامى بين الاقاليم ، والتطور التدريجى للتداول السلعى ، وتركز الاسواق المحلية الصغيرة فى سوق واحدة لعموم روسيا . وبما ان الرأسماليين-التجار كانوا قادة هذه العملية واصحابها فان اقامة هذه الروابط القومية لم تكن الا اقامة للعلاقات البرجوازية» * * . ويطور لينين هذه الفكرة فى اعماله اللاحقة

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ٣٨٥ («موضوعات تقرير حول المسألة القومية») .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١ ، ص ١٥٤ .

ايضا ، حيث يؤكد دوما على ان الامة تنشأ كظاهرة تاريخية اجتماعية ، «كنتاج حتمى وكصيغة حتمية للعصر البرجوازى فى التطور الاجتماعى» * .

ويرى لينين ان نضوج ظروف تشكل الرأسمالية والامم كان فى وقت واحد . وكانت عمليات تشكلهما تشترط بعضها الآخر . صحيح ان مجمل تطور المجتمع ما قبل الرأسمالية قد هيأ المقدمات المادية والروحية لقيام الامم ، ولكن عملية تشكلها لم تبدأ الا مع عصر تفسخ الاقطاعية وظهور الرأسمالية .

ان الامة شكل خاص من اجتماع الناس . وهى تتميز جذريا عن الجماعات العشائرية القبلية بالعلاقات الطبقية القائمة فيها ، وتتميز عن شعوب المرحلة ما قبل الرأسمالية بتبلور ادق للتوزع الطبقى ، للملامح الاجتماعية والسياسية والروحية ، وبازدياد متانة اتحادات كل من الطبقات المؤلفة للامة . «. . . فالمجتمع الرأسمالى ينمى حاجة السكان الى الاتحاد ، ويسبغ على هذه الاتحادات طابعا خاصا ، بالمقارنة مع اتحادات العصور السالفة . والرأسمالية . . . تخرب اتحادات المجتمع القروسطى الضيقة والمحلية والفئوية . . . لتشطر المجتمع كله الى مجموعات كبيرة من الاشخاص الذين يشغلون مكانة مختلفة فى الانتاج ، ولتعطى دفعا قويا للتلاحم فى اطار كل من هذه المجموعات . . . ثم ان كافة التغيرات المذكورة ، التى ادخلتها الرأسمالية على النظام الاقتصادى القديم ، لا بد ان تؤدى ايضا الى تغير ملامح السكان الروحية» * * .

ويتطلب استجلاء ماهية الامة تحليلا دقيقا للمضمون الاقتصادى والاجتماعى والطبقى للسبل الملموسة المؤدية الى تشكلها وتطورها . فالامر الرئيسى فى الامة هو انها تظهر فى خضم الصراع الطبقى مع الاقطاعية . وتتألف الامة من طبقات ، فيترك صراع الطبقات بصماته على تطورها . ولكن

* المصدر السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٧٥ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣ ، ص ٦٠٠ («تطور الرأسمالية فى روسيا») .

ثمة باحثين ، يكتفون احيانا بالتنويه بأن الامة تتألف فعلا من طبقات تناحرية ، وبعدئذ يركزون اهتمامهم على الفهم الاتني للامة . وقد اشار لينين الى انه لا يجوز بناء مفهوم «الامة» على «التجريد المصطنع للتناقضات بين الطبقات التى تشكل هذه «الامة»» * . وكان يؤكد دوما على اصل الامة الاجتماعى الطبقى .

وابرز لينين مقومات الامة ، التى يتعذر وجودها بدونها : «اللغة والارض . الرئيسى (المؤشر الاقتصادى) . الطابع التاريخى» * * .

٢ – الظروف الموضوعية لتشكل الامة ومؤشراتها الاساسية

ان تشكل الامة يغدو ممكنا وحتميا بفعل عدة عوامل . ومن هذه العوامل وحدة الروابط الاقتصادية والارض واللغة ، التى تشكل ، اول الامر ، شروطا لظهور الامة ، وتغدو ، فيما بعد ، مؤشرات اساسية لها . اما العوامل الاخرى ، مثل وجود الدولة القومية وخصوصية الثقافة والنفسية فانها ، وان كانت تلعب دورا كبيرا فى تشكل الامة وتطورها ، لا تحضر كمؤشرات اساسية للامة .

وفى ظل الرأسمالية تظهر **وحدة الروابط الاقتصادية** بحكم الضرورة الموضوعية ، وتتسم بالتناقض . «فنحن نعلم ان تطور التناقضات هو الذى يكشف ، وبجلاء اكبر فاكبر ، عن قوة هذه الرابطة ، **ويرغم** كافة عناصر المجتمع المنفردة وطبقاته على السعى للاتحاد ، علما بان هذا الاتحاد لم يعد اتحادا فى الاطار الضيق لجماعة واحدة او منطقة واحدة ، بل اتحاد لكافة ممثلى الطبقة المعنية فى **الامة كلها** ، حتى وفى دول مختلفة . فقط الرومانسى ، بوجهة نظره الرجعية ، يمكن ان ينفى وجود هذه الروابط ، وينكر قيمتها الاعمق ، القائمة

---

* المصدر السابق ، المجلد ٢ ، ص ٢٢١ («مساهمة فى وصف الرومانسية الاقتصادية») .

* * المجموعة اللينينية ، رقم ٣٠ ، ص ٥٣ .

على وحدة الادوار فى الاقتصاد الوطنى ، لا على المصالح الاقليمية او المهنية او الدينية وغيرها» * .

فى المجتمع الاقطاعى كانت هناك ايضا الوان مختلفة من الاتحادات (المشاعات ، التعاونيات) ، ولكن فى ظل الرأسمالية ، كما يؤكد لينين ، «يكون العامل الموحِّد والمعمِّم هو الصناعة الآلية الكبيرة ، التى تحطم الحواجز القروسطية ، وتزيل الفوارق المحلية والاقليمية والمهنية» * * .

ولقيام الامة كان ثمة شأن كبير ، كما بيّن لينين فى مؤلفه «تطور الرأسمالية فى روسيا» ، لانخراط اهالى الريف فى العلاقات الرأسمالية . فالرأسمالية تقيم الروابط الاقتصادية على نطاق الامة بأسرها . وفى الامة ، التى اكتمل تشكلها ، تغدو هذه الروابط المؤشر الحاسم لها . ويسمّى لينين هذا المؤشر «المؤشر الاقتصادى» .

وبما ان مصطلح «وحدة الحياة الاقتصادية» الواسع الانتشار قد يفهم بمعنى تساوى او تكافؤ ظروف حياة الاستغلاليين والمستغلين ، يكون من المفيد ان نستخدم بدلا منه مصطلح «وحدة الروابط الاقتصادية» . وهذه الروابط تشمل ، تبعا للقوانين الموضوعية للرأسمالية ، مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية للامة (للبلد) المعنية وشتى اقاليمها ومناطقها ، مدنها وريفها .

وان كل تاريخ تشكل الامم الاوروبية وغيرها من الامم يثبت قانونية تشكل الامة على اساس وحدة الروابط الاقتصادية . فانهيار الاتحادات الضيقة والاقليمية والفئوية ذات النمط القروسطى قد مهد الطريق لاقامة اتحادات للسكان اوسع نطاقا ومن طابع آخر ، لظهور الامم الجديدة . فبفضل الدور الحاسم للمصالح الاقتصادية تظهر الامم ، التى يمكن لاى منها ان تتألف من شتى القبائل والقوميات حتى والاعراق . ومن ذلك ان المصالح الاقتصادية المشتركة لـ١٣ مستعمرة فى امريكا الشمالية كانت وراء قيامها بالثورة البرجوازية

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢ ، ص ٢٠٧ («مساهمة فى وصف الرومانسية الاقتصادية») .

* * المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(١٧٧٥ - ١٧٨٣) * ، وتذليلها لبعض النزعات الانفصالية ، وتعزيزها للروابط الاقتصادية فيما بينها. «ومن المعروف ان الظروف جد المواتية لتطور الرأسمالية فى امريكا والسرعة الخاصة لهذا التطور قد ادت الى ان الفوارق القومية الهائلة قد سويت هنا بدرجة من السرعة والجذرية ، لم يعرف لها مثيل فى مكان آخر ، لتتشكل الامة «الامريكية» الموحدة» ** .

وفى بلدان القارة الامريكية الاخرى كان الشرط الضرورى لتلاحم الامة هو تشكل روابط اقتصادية رأسمالية متينة ، وذلك ، فى المقام الاول ، فى اطار كل بلد منها . وفى الوقت ذاته فان تطور الرأسمالية السريع بهذه البلدان كان من المتعذر بدون نيلها للاستقلال الوطنى . وكان مطلب الاستقلال الوطنى عاما ومشتركا لكافة بلدان القارة ، فشكل اساس وحدة افعال كافة الطبقات فى ثورات النصف الغربى من الكرة الارضية . وبنتيجة هذه الثورات احرز الاستقلال الوطنى : فى الولايات المتحدة الامريكية - عام ١٧٧٦ ، والهايتى - عام ١٨٠٤ ، وباراغواى - عام ١٨١١ ، وفنزويلا - عام ١٨٢١ ، والارجنتين - عام ١٨١٦ ، والشيلى - عام ١٨١٠ ، وكولومبيا - عام ١٨١٩ ، والمكسيك والبيرو وبلدان امريكا الوسطى (كوستا ريكا والسلفادور وغواتيمالا وهندوراس ونيكاراغوا) - عام ١٨٢١ ، والبرازيل والاكوادور - عام ١٨٢٢ ، وبوليفيا والاورغواى - عام ١٨٢٥ ، والدومنيكان - عام ١٨٤٤ ، وكندا - عام ١٨٦٧ ، وكوبا - عام ١٨٩٨ ، وبناما - عام ١٩٠٣ .

«كانت مصالح النظام الرأسمالى الناشىء فى امريكا تتطلب ، وبالحاح ، تحويل المستعمرات البدائية التنظيم الى دول ذات ادارة مركزية . وان العملية التاريخية لتكون هذه

---

* المقصود حرب الاستقلال التى خاضتها فى اعوام ١٧٧٥-١٧٨٣ ثلاث عشرة مستعمرة بامريكا الشمالية ، والتى تم خلالها قيام دولة مستقلة (عام ١٧٧٦) ، هى الولايات المتحدة الامريكية . وكانت هذه الحرب تتسم بطابع الثورة البرجوازية .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، ص ٣٥٤-٣٥٥ («الاحصاء والسوسيولوجيا») .

الدول لا تزال مستمرة حتى ايامنا . لقد ارست الثورة بداية التحرك من اجل اقامة دول قومية ، ادى الى تغيرات جذرية فى مجمل المنظومة الاستعمارية السابقة . فمكان المستعمرات السابقة ظهرت ٢٢ دولة ، لها - بهذه الدرجة او تلك - ملامحها السياسية الخاصة واستقلالها الوطنى» * .

ولكن كيف حدث ان الثورة فى المستعمرات الانكليزية بامريكا الشمالية قد وحدت كل المستعمرات الثلاث عشرة فى امة واحدة ، وبمرور الزمن تشكلت منها دولة قومية موحدة قوية ، فى حين ان الثورة فى المستعمرات الاسبانية بامريكا قد اسفرت ، على العكس ، عن تشتت الامبراطورية الى عدد كبير من الدول المستقلة ؟ فسكان المستعمرات الاسبانية كانت لهم ، بدورهم ، لغة مشتركة (هى الاسبانية) ، والكثير من التقاليد والعادات المشتركة ، وكانوا يعتنقون نفس الديانة ويناضلون ضد عدو واحد . هذا ناهيك عن ان بعض رجالات الثورات الامريكية حاولوا ، ولاكثر من مرة ، توحيد الجمهوريات الامريكية فى امة واحدة ، وانه فى عدة مؤتمرات قارية اتخذت قرارات بهذا الصدد . فقد جاء فى القرار ، الصادر عن مؤتمر عدة دول فى ليما (١٨٤٨) ، «ان الجمهوريات الامريكية ، التى يوحدها اشتراك الاصل واللغة والدين والعادات ، وكذلك وحدة القضية التى تدافع عنها ، والتى لها مؤسسات واحدة ، ولها - وهذا هو الامر الرئيسى - متطلبات ومصالح مشتركة ، يجب ان تعتبر نفسها اجزاء لامة واحدة» * * .

ومع ذلك لم يتم الاتحاد ، فلم يكن بين الظروف ، المساعدة على الاتحاد ، الظرف الحاسم - وحدة الروابط الاقتصادية بين المستعمرات الاسبانية . فكانت هذه المستعمرات مشتتة جغرافيا ، ولم تكن فيها طرق مريحة ، وكانت برجوازيتها ضعيفة ، وكان اللاتيفونديون يعارضون ، وبحدة ، اية مخططات توحيدية . وفى وضع كهذا تتشكل وحدة

* وليم فوستر . موجز تاريخ امريكا السياسى . موسكو ، ١٩٥٣ ، ص ٢٣٨ .

* * المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

الروابط الاقتصادية داخل كل بلد ، وان يكن بصعوبة ، ولكن اقامة روابط كهذه بين مختلف البلدان كانت متعذرة ، حتى حين كانت هذه البلدان متجاورة ، وكان سكانها ذوى لغة واحدة وتقاليد مشتركة ، الخ . ففى حين كانت الروابط الاقتصادية الرأسمالية الناشئة تودى بالنزعات الانفصالية فى الولايات المتحدة الامريكية ، لم تقم مثل هذه الروابط فى امريكا اللاتينية ، مما وفر الظروف المواتية لنشاط الانفصاليين .

ان مثال ظهور وتطور الامم بامريكا اللاتينية يبين بجلاء قيمة وحدة الروابط الاقتصادية ومكانتها فى تشكل الامة وسماتها . وبالفعل ، فان غياب وحدة الروابط الاقتصادية بين المستعمرات الاسبانية السابقة لم يسمح لها ، برغم توفر سائر الروابط ، ان تنضم فى امة واحدة ؛ على العكس ، فان توفر وحدة الاقتصاد لهذه او تلك من مناطق البلاد كان يجمع سكانها فى امة واحدة ، برغم الفوارق فى اصلهم القومى ، حتى والعرقى . وليس هناك فى العالم منطقة ، فيها من اختلاط الشعوب ما بامريكا . وقد تشكلت الامم الامريكية (وخصوصا فى امريكا اللاتينية) من امتزاج ثلاث جماعات اتنية كبيرة ، تؤلف سكان نصف الكرة الغربى : الهنود الحمر الامريكان الذين ينتمون الى العرق الامريكى القريب من العرق الاسيوامريكى ، والزنوج الافارقة ، والبيض الاوروبيين المختلفى القوميات .

فمم تتألف ، مثلا ، الامة المكسيكية ؟ من المعروف ان قبائل الهنود الحمر كانت تقطن ، منذ القدم ، هذه البلاد ، ذات التنوع الجغرافى الكبير . والى اواخر القرن السادس عشر افلح المستعمرون الاسبان فى بسط وتوطيد سيطرتهم على البلاد ، معتمدين فى ذلك على استغلال الفوارق اللغوية بين مختلف الجماعات الاتنية للسكان الاصليين وتشتتها ، حتى والعداء بينها . واقيمت فى البلاد علاقات اقطاعية قنانية . ثم جلب الزنوج العبيد من افريقيا ، الذين كانوا ، بدورهم ، من قبائل مختلفة ، لكل منها لغتها وديانتها الخاصة بها . وعلى هذا النحو تواجدت فى المكسيك كل الجماعات الاتنية

الاساسية الثلاث : السكان الاصليون من الهنود الحمر ، والجماعات المتزايدة من المهاجرين الاوروبيين وخاصة الاسبان ، والزنوج من الافارقة . وبرغم ان المهاجرين الاسبان الحديثى العهد كانوا يعتبرون انفسهم عرقا أعلى ، حتى حيال اخلاف مواطنيهم الذين ولدوا هنا ، وان هؤلاء الاخلاف كانوا ، بدورهم ، يزدرون الهنود والزنوج ، كانت تجرى عملية اختلاط كافة الجماعات الاتنية ، ولا سيما الهنود والاسبان . وتعززت هذه العملية خاصة فى عهد تطور العلاقات الرأسمالية بالمكسيك . فتبعا لمعطيات عام ١٩٣٠ انتقل ٣,٤ مليون هندى ، من اصل ٥,٦ مليون من الهنود ، الى اللغة الاسبانية ، التى صارت لها ملامح محلية . ومن الامور المميزة ايضا كان الاختلاط بين العقائد المحلية ما قبل المسيحية والطقوس الكنسية الكاثوليكية . وصارت العلاقات الاقتصادية المتينة التى تغطى كافة مناطق البلاد ، ووحدة اللغة المتشكلة على هذا الاساس ، ارضية قيام الامة المكسيكية .

ويبين تاريخ كل شعب ان التلاحم القومى يرتبط بحل المشكلات الاقتصادية الاجتماعية المنتصبة امامه . وان مثال الامم فى امريكا اللاتينية لبالغ الدلالة من حيث انها تشكلت فى خضم صراع حاد بين طبقات الاقطاعية المتبقية والرأسمالية الناشئة .

وبعد التخلص من الاستعمار الاسبانى والبرتغالى حصلت بلدان امريكا اللاتينية على استقلالها منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر . ولكن الرأسمالية العاصفة النمو فى امريكا الشمالية استرقت القارة الامريكية كلها ، اقتصاديا ثم سياسيا ، وعززت التفاوت فى تطورها .

وقد اشار لينين الى ان الرأسمالية لا تكتفى بالسوق الداخلية ، وانما «تتجاوز حدود الدولة . ولذا يتعذر تصور الامة الرأسمالية بدون تجارة خارجية ، حتى وليس ثمة امة كهذه» * . تلعب هذه الحقيقة دورا كبيرا فى تلاحم

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣ ، ص ٥٦ («تطور الرأسمالية فى روسيا») .

الامم . ففى العصر الحديث ظهرت الامم ، وتظهر ، فى بلدان ، لم تنتصر فيها الرأسمالية بعد ، ولكنها جُرّت ، او تجر ، الى التقسيم الدولى الرأسمالى للعمل . ومن ذلك ان الكثير من بلدان امريكا اللاتينية قد تخلصت ، على هذا النحو ، من بقايا الاقطاعية .

وفى الوقت الحاضر ايضا فان حدود الامم التى تشكلت او تسير الآن فى طريق التشكل فى آسيا وافريقيا لا تتطابق ، دوما وابدا ، مع حدود الجماعات الاتنية او اللغوية . فعلى ارضية التلاحم الاقتصادى تتشكل امم جديدة من القبائل المتفرقة السابقة ، التى غالبا ما تختلف فيما بينها من حيث اللغة والسمات الاتنية الاخرى ، حتى وكانت تناصب العداء بعضها للآخر ايام سيطرة الدول الاستعمارية . وان عمليات التلاحم القومى هذه تجرى على نحو لا محيد عنه ، ذلك ان مصالح كادحى البلاد المتحررة تتطلب اقامة روابط اقتصادية قومية (ولكن غير رأسمالية) . وتبين الممارسة ان عمليات التلاحم القومى تجرى بنجاح فى بلدان التوجه الاشتراكى ، التى تطور القطاع الحكومى فى الاقتصاد وتتصدى لدسائس الاستعمار الجديد .

ان وحدة الروابط الاقتصادية المتينة مؤشر جوهرى للامة المكتملة التشكل ، ولكن هذه الروابط لا تتكون بحد ذاتها ، وانما تتشكل فوق ارض متكاملة معينة ، وتتطور بفضل وحدة اللغة .

وحدة الارض . اعتبر لينين تلاحم المناطق القومية ثانى الشروط الهامة لقيام الامة ، ومؤشرا ضروريا لوجودها ولنشاطها كعضوية اتنواجتماعية متكاملة . وقد دافع دوما عن هذه الموضوعة ، وخاصة فى مجرى النضال ضد نظرية «الاستقلال القومى الثقافى» المثالية ، القائلة بان وحدة الارض غير ضرورية لقيام الامة * .

ان نشاط الجماعات الاتنواجتماعية غير ممكن الا على ارض معينة . فحتى القبائل الرحل تعيش وتعمل ، فى كل حقبة

* انظر : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٣١ ، ١٧٤ ، ٣٩٣ ؛ المجلد ٢٥ ، ص ٢٥٨ ، وغيرها .

زمنية ، فوق ارض مشتركة ، تغدو ، بمرور الزمن ، ارضا ثابتة . وتتألف هذه الارض من اماكن السكن ومناطق القنص والصيد . وكان التعدى على وحدة هذه الارض يعتبر عملا عدوانيا . وبظهور الشعوب لم تعد وحدة الارض مؤشرا على وحدة الاصل الدموى لسكانها . فعلى قدم وساق اختلطت العشائر والقبائل ، التى صارت لها ، خلال ردح طويل من الحياة المشتركة والعمل المشترك فوق ارض معينة ، سمات اتنية مشتركة جديدة .

وفى الوقت ذاته فان السمات المشتركة تكون متنوعة فى اطار الشعب الواحد ، وذلك تبعا لاختلاف المناطق : الريف او المدينة ، المقاطعة او الناحية . ثم ان الاتصالات والاحتكاكات الدائمة بين الناس فى اطار هذه البقعة من الارض او تلك تولد لديهم مشاعر الانشداد الى تلك الامكنة ، مشاعر «الوطنية المحلية» والتعاضد الاقليمى المتميز .

وفى البلدان الكبيرة ، المتنوعة من حيث ظروفها الجغرافية والمناخية ، يمكن الوقوف على عدة انماط محلية من الحياة الاتنية . فوحدة التضاريس والمناخ والغذاء تؤثر ، بالطبع ، على نمط الناس الجسدى ، وعلى تكونهم النفسى وطبائعهم . فتتكون بعض السمات والعادات والطباع المتشابهة . وينبغى التنويه عموما بان تجانس السكان الاتنى ، وان كان يسهّل توحيد الارض ، فانه ليس شرطا ضروريا واكيدا لتلاحم الامة .

كما وتجدر الاشارة الى اهمية مسألة الحدود الجغرافية (حدود الارض) ، التى فى اطارها تمارس الامة وجودها ونشاطها . فاذا كانت للامة دولتها فان هذه الحدود تغدو حدودا للدولة ، ويصير الدفاع عنها امرا يمس الامة باكملها . وفى المجتمع التناحرى كانت نزاعات الحدود تؤدى احيانا الى صدامات عسكرية . ثم ان النضال من اجل وحدة الارض يعزز وعى الذات القومى ، ويوحد صفوف الامة . ومن الطبيعى ان حق الامم فى تقرير مصيرها ، بما فى ذلك الحق فى تشكيل دولة مستقلة ، ينطوى على حقها فى ارضها . والحقوق

الدولية المعاصرة تعترف بهذا الحق . وقد جاء فى بيان الامم المتحدة الخاص بمنح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة والتابعة ، والصادر فى ١٤ كانون الاول – ديسمبر ١٩٦٠ ، ان لكافة الشعوب حقها الذى لا ينتزع فى . . . وحدة ارضها القومية ، وان اية محاولة ، ترمى الى زعزعة الوحدة القومية ووحدة اراضى البلاد زعزعة جزئية او شاملة ، هى امر ، لا يتفق مع اهداف ميثاق هيئة الامم المتحدة ومبادئه .

ولكن ماذا تعنى «الارض القومية» ؟ قد يتراءى ، للوهلة الاولى ، ان المسألة بسيطة وسهلة ، فكل امة تتكون متشابكة عضويا بأرضها ، بحيث تبدو وكأنها وليد مباشر لها . ومن هنا قد يتكون انطباع بأن هذه الامة أو تلك ما كان لها ان تظهر الا فى الارض المعنية . ولكن دور الارض فى ظهور الامة لا يقوم فى ان ظروف تشكلها الجغرافية تؤثر على تشكل بعض سماتها البدنية والنفسية . فالارض تمثل القاعدة المادية لتشكل الروابط الاقتصادية بين ابناء الشعب ، وميدان نشاطهم وتطورهم . ويبين تاريخ البشرية كله انه على ما يدعى «بالارض التاريخية» تعاقبت وتبدلت شعوب مختلفة . ففى اليونان وروما المعاصرتين ، مثلا ، يعيش اناس ، بعيدون عن ان يكونوا من سلالة الاغارقة والرومان القدامى .

وبما ان الامم تشكلت وتتطور كحصيلة للاختلاط والتفاعل والاغتناء المتبادل بين عدة قبائل وشعوب ، كما بين ثقافاتها ، فان من الجلى ان الارض القومية ليست مجرد ورثة تركها الاسلاف . فالارض لا تغدو قومية بفعل الغزو العسكرى . فان حق الامة فى السيادة على اراضيها امر ، نالته بعمل اجيال عديدة . فقط اذا تشكلت الامة وتطورت فوق الارض المعنية يحق لها ان تنظر الى هذه الارض على انها جزء لا يتجزأ من وجودها . اما الاستناد الى الاتنوغرافيا ، ناهيك عن حملات الغزو القديمة ، بهدف اثبات الحق فى اراضى الغير ، فانه لا يدل الا على النوايا العدوانية لاولئك الذين يطرحون مثل هذا الحق .

واخيرا فان من الاهمية بمكان الأخذ بالحسبان ان الارض القومية ليست مجرد بقعة جغرافية ، وانما ترتبط عضويا

بالنمط الاجتماعى للامة التى تعيش فوقها . فبتشكل جمهورية المانيا الديمقراطية ، التى صفّى كادحوها الرأسمالية واقاموا صرح النظام الاشتراكى ، صارت مجزأة لا ارض الامة الالمانية الواحدة سابقا ، فحسب ، بل والامة الالمانية نفسها ، حيث انشطرت الى نمطين : الى امة المانية بجمهورية المانيا الاتحادية ، تقوم فى اراضيها دولة امبريالية ، وامة المانية اشتراكية بألمانيا الديمقراطية . وفى هذه الظروف تغدو الجوانب الاجتماعية الطبقية عوامل حاسمة فى تحديد سمات الامة . ومن هنا فان مسألة اعادة بناء الوحدة القومية تتحول من مسألة قومية (بمعنى التركيب الأتنى المتجانس) الى مسألة اجتماعية سياسية .

ويعرف التاريخ محاولات ، لا تزال تصادف فى ايامنا ايضا ، ترمى الى «تعديل» اراضى الامة وتوسيعها استنادا الى ضرورة ان تكون لكل امة حدودها الطبيعية . وقد سبق لانجلس فى مقالته «بو ورين» ان بين تهافت «نظرية الحدود الطبيعية» ورجعيتها . فقد أكد انه عند رسم حدود الارض القومية تلعب الدور الاساسى مصالح سكان المناطق المتنازع عليها ، لا الاعتبارات التاريخية العسكرية او الاستراتيجية العسكرية .

وفى كافة حالات نشوب نزاع حول الاراضى ينبغى ، كما قال لينين ، ضمان التخطيط الديمقراطى لحدود الدول ، بما يتلاءم كل التلاؤم مع مصالح السكان * .

ومن الطبيعى انه فى العالم المعاصر لا تزال هناك مطالب عادلة فى هذه الارض او تلك . فاكثير من الامم الفتية ، التى صارت لها حديثا دولتها القومية ، قد ورثت عن الانظمة الاستعمارية جملة لا يستهان بها من مشكلات الارض المعقدة والمصطنعة . وليس من النادر ان يعمل المستعمرون ، بهدف تأزيم العلاقات بين الدول الفتية المتجاورة والحفاظ على نفوذهم فيها ، على اختلاق وتأجيج الخلافات فيما بينها حول الاراضى . واخيرا ، فلا تزال ثمة امم فتية ، لم تتمكن بعد

* انظر : لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، ص ٢٢ («خلاصة مناقشة حول تقرير المصير») .

من خلع النير الاستعمارى من على كافة اراضيها . وجلى ان مثل هذه النزاعات حول الاراضى لا تضرب جذورها فى تاريخ موهوم ، بل تمس المصالح الحيوية المباشرة للامة المعنية . ولذا فان القوى التقدمية فى العالم مدعوة للمساعدة فى الحل العادل لهذه النزاعات .

ثم ان وحدة الارض ضرورية ايضا من اجل تطور الامم الاشتراكية ، رغم ان الحدود بين الامم فى الدول الاشتراكية المتعددة القوميات تفقد ما كانت عليه من اهمية اجتماعية واثنية . وفى الشيوعية الناضجة سوف تفقد الاراضى طابعها القومى الحكومى فى حياة الجماعات البشرية وعملها .

وتشغل **وحدة اللغة** مكانة خاصة فى حياة الامة . فهى تمثل شرطا ضروريا لتشكل الامة ، ومؤشرا جوهريا للامة المتشكلة ، وذلك الى جانب وحدة الروابط الاقتصادية ووحدة الارض .

وقد اشار لينين الى «ان اللغة اهم وسيلة للعشرة البشرية» . . . * وتقوم اللغة بهذه الوظيفة على نطاق الامة ، فتغدو لغة قومية «فى حال ازالة كافة العوائق ، التى تعترض تطور هذه اللغة وترسيخها فى الادب» ** . واللغة القومية قد تكون غير اللغة الام ، لان المهمة الرئيسية للغة القومية تقوم فى تأمين الاتصال وفى التوحيد ، الذى يشكل «عاملا هاما للسيطرة على السوق الداخلية ولتأمين الحرية الكاملة للتداول الاقتصادى» *** . ان العوامل الاقتصادية هى التى تفسر ، بصورة رئيسية ، عدم التطابق بين اصل الامم ولغاتها .

وبرغم اختلاف سبل تشكل وحدة اللغة فان من قانونياتها انه فى مجرى تلاحم الناس فى الامة تصاغ اللغة الادبية المشتركة كاداة جبارة فى مد وترسيخ الصلات القومية

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٥٨ («حول حق الامم فى تقرير المصير») .

** المصدر السابق .

*** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٤٧ («ملاحظات انتقادية حول المسالة القومية») .

الاقتصادية والاجتماعية ، وكشرط اهم فى تطور الامة اللاحق ، الاقتصادى والسياسى والثقافى . وتغدو وحدة اللغة مؤشرا للامة .

ولكن الدور الهام ، الذى تلعبه وحدة اللغة فى تشكل الامة وتطورها ، لا يعنى انها السمة الرئيسية ، بله الوحيدة ، من سمات الامة . فالشعوب الناطقة بالعربية ، مثلا ، تعتبر نفسها اجزاء من امة عربية واحدة ، ولكن من الجلى انه فى ظروف تناقض تطورها الاجتماعى السياسى تُحلّ مشكلة الوحدة على انحاء مختلفة .

ان سعى الناس ، الذين يتكلمون لغة واحدة ، نحو الاتحاد يعود ، فى المقام الاول ، الى مصالحهم المشتركة ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويمكن لهذه المصالح ان تضم فى امة واحدة حتى اناسا ذوى لغات مختلفة ، وان كانت تظهر لديهم ، بمرور الزمن ، لغة عامة مشتركة ، كما هو الحال فى البلدان الامريكية مثلا . فى عصرنا تتشكل جماعات لغوية جديدة فى بعض البلدان الافريقية والاسيوية . وليس بوسع اللغة المعنية ان تغدو مقدمة هامة وضرورية لكل نشاط مشترك ، وبالتالى ، مقدمة لتلاحم الامة ، الا بفضل وظيفتها كاداة للاتصال بين الناس . **والقضية ، فى نهاية المطاف ، ليست فى اللغة التى تتكلمها هذه الامة او تلك ، وانما فى كون الامة لا يمكن ان تقوم بدون وحدة اللغة .**

واللغة القومية تتشكل بسبل مختلفة . ولكن ايا كان النحو ، الذى تتكون عليه هذه اللغة ، فانها ، ما ان تظهر ، تغدو اللغة الام للأمة ، وتضرب جذورها فى حياتها . وعندما يجرى بواسطة اللغة (حتى ولو كانت مأخوذة عن الغزاة المقيتين ، كما هو الحال فى امريكا اللاتينية) تبادل الافكار والمشاعر بين الناس من ابناء الامة ، وتربية الشبيبة وتعليمها ، فانها تغدو اداة للتعبير عن ثقافة الامة وذاكرتها القومية ، ووسيلة لتطوير هذه الثقافة والذاكرة ، فتصبح بمثابة اللغة الأم للناطقين بها .

وفى حالات عديدة تتحدث امم مختلفة بلغة واحدة . فالصرب والهورروات يتكلمون اللغة الصربية الهورواتية ،

وهناك امم كثيرة تتحدث باللغة الانكليزية او الاسبانية ، مما يبين انه ليس ثمة لغة قومية خاصة ، هى وليدة شعب بعينه ومميزة له وحده . واخيرا ، فبالنسبة لكثيرين من ابناء هذه الامة او تلك ليس من الضرورى ان تكون اللغة الام هى اللغة المتصلة بنسبهم القديم . وان تشابه او قرابة اللغة واللهجات لدى شعوب وقبائل متجاورة امر ، يسرّع تشكل الامة ولغتها ، ولكنه ليس ضروريا واكيدا فى كافة الحالات . وفى ذلك يقول ماركس وانجلس : «. . . فى اية لغة عصرية متطورة يرتقى النطق ، الذى ظهر على نحو طبيعى ، الى مستوى اللغة القومية ، وذلك جزئيا ، بفضل التطور التاريخى للغة من مادة جاهزة ، كما هو الحال فى اللغات اللاتينية والجرمانية ، وجزئيا - بفضل اختلاط الامم ، كما هو الحال فىاللغة الانكليزية ، وجزئيا - بفضل تمركز اللهجات فى لغة قومية واحدة ، مما يعود الى التمركز الاقتصادى والسياسى» * .

وينبغى الأخذ بالحسبان ، اخيرا ، انه ليس من الضرورى ، فى الظروف المعاصرة ، ان يكون ممثلو هذه الامة او تلك يتحدثون لغة واحدة وحيدة . فتطور العلم والثقافة ، واكتساب مختلف جوانب حياة الشعوب طابعا اكثر فاكثر اممية ، يزيدان من عدد الناس الذين ليس بوسعهم الاكتفاء بلغتهم القومية وحدها .

وعليه ، فان اللغة ظاهرة اجتماعية تاريخية . وهى اداة للعشرة بين الناس ، ولتطور المجتمع . وفى ذلك تقوم ماهية اللغة . والرئيسى فى اللغة ليس تمييز الامم والشعوب احداها عن الاخرى ، بل وحدتها ، عموميتها ، التى بدونها - بغض النظر عن اصل اللغة - يتعذر قيام اية امة . ويدور اليوم صراع ايديولوجى حاد بين الماركسيين وخصومهم حول مشكلات اللغة ، وخاصة اشكالها القومية .

ونظرا لتعقد وحدة المشكلات اللغوية ، والدور الكبير الذى تلعبه اللغات القومية فى حياة الشعوب ، ولضرورة نقد

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٤٢٧ .

فهمها من مواقع العصبية القومية والشوفينية ، سوف نكرس الفصل التالى للنظر فـــى طبيعة اللغات القومية وماهيتهـــا ومكانتها ودورها فى التطور الاجتماعى . ثم ان للفهم الصحيح لهذه القضايا اهميته من اجل استجلاء الوجهة الطبقية للسياسة اللغوية ، وفى ظل الاشتراكية – من اجل بناء لغة مشتركة للشعوب المؤلفة للبلد المعنى .

اللغة واللغات القومية

ليس ثمة فى العالم لغة قائمة بحد ذاتها . فما يوجد فعلا ويتطور هو اللغات القومية ، التى ليست الا تجليات مختلفة للماهية الواحدة للغة – كونها اداة لتعاشر الناس . ومن المهم ، على طريق رسم سياسة لغوية علمية ، استجلاء العلاقة بين الماهية العامة للغة وبين خصوصياتها القومية ، واسباب ظهور اللغات المختلفة ، ونقد الجذور المعرفية والاجتماعية للاخطاء أو للتشويهات المعتمدة فى فهم العلاقة بين اللغة والمجتمع ، اللغة والوعى والتفكير والنفسية .

تذهب الماركسية اللينينية الى ان اللغة ، كأداة للعشرة بين الناس ، هى ظاهرة اجتماعية تاريخية . فهى ظاهرة اجتماعية لانه فقط فى مجرى عمل الناس المشترك تظهر الحاجة الى النطق والكلام ؛ وهى ظاهرة تاريخية لانها نشأت فى مرحلة معينة من صيرورة الجنس البشرى . وان النظرية ، التى طوّرها انجلس حول دور العمل فى ظهور الانسان ، لتشكل ، فى الوقت ذاته ، نظرية علمية فى نشوء اللغة * . وفى معرض التأكيد على وحدة الوعى واللغة كتب ماركس وانجلس : «ان اللغة قديمة قدم الوعى ؛ واللغة هى وعى فعلى ، عملى ، موجود بالنسبة للناس الآخرين ايضا ، وبذلك فقط يكون موجودا بالنسبة لى أيضا . واللغة ، شأن الوعى ، لا تظهر إلاّ من الحاجة ، من الضرورة الملحة فى الاتصال بالناس الآخرين» * * .

* انظر : ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٤٨٩ـ٤٩٠ (انجلس . ديالكتيك الطبيعة) .

* * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٢٩ («الايديولوجية الالمانية») .

١ – ظهور اللغات القومية

ان مسألة كيف ظهر تعدد اللغات القومية . قد حلّت على أنحاء مختلفة فى تاريخ فقه اللغة . فقد سبق لليبنيتز ان تهكم ، وبحق ، على الاسطورة القائلة بتحدر كافة اللغات من لغة واحدة (اللغة الاوروبية القديمة) * * . وهناك نظريات تقول بالوضع العشوائى للغات عن طريق التعاقد والاتفاق . وثمة نظريات ، ترى ان كل اللغات هى وليدة «الروح القومية» .

وتبين الابحاث الاتنوغرافية واللغوية ان الاشكال اللغوية لم يكن لها ان تكون واحدة بالنسبة لكافة البشر . فبما ان الجماعات البشرية البدائية كانت تعيش وتعمل معزولة بعضها عن بعض من الناحية الجغرافية ، فان من الطبيعى انه لم يكن لها ان تطلق تسمية واحدة على هذا الشىء او ذاك . وفى مجرى تطور القبائل المختلفة كانت كل لغة تكتسب شكلا ملموسا معينا . وكان تطابق الجماعة اللغوية مع الجماعة القبلية ظاهرة طبيعية . اما لغات الجماعات المنغلقة نسبيا فقد اكتسبت فى كافة عناصرها الاساسية (الصوتية والتعابيرية والنحوية) اشكالا مختلفة لا لان القبائل المختلفة ذات نفسيات مختلفة ، بل لان الحشد الكبير من الاصوات والامكانيات الكبيرة فى طرائق التأليف فيما بينها ، قد وفرت للناس فرصا لا محدودة فى الاختيار . وكان من المدهش حقا لو ان كل الجماعات البشرية ، التى تعيش معزولة بعضها عن الآخر

* يقصد باللغات القومية ليس فقط لغات الامم ، بل ولغات الجماعات الاتنواجتماعية الاخرى . وهناك الآن اكثر من ٢٥٠٠ لغة كهذه .

* * فى معرض انتقاده للطبيب وعالم اللغة الهولندى غوروبيوس بيكان (القرن السادس عشر) ، الذى زعم ان اللغة الفلامانكية كانت لغة آدم وحواء ، منها تحدرت باقى اللغات ، كتب ليبنيتز يقول : «ان الاشتقاق اللغوى لا يمكن اعتباره صحيحا إلاّ فى حال توفر كمية كافية من البيّنات ، وإلاّ سيكون ذلك تعسفا **غوروبيا فحسب»** (ليبنيتز . محاولات جديدة فى العقل الانسانى . موسكو – لينينغراد ، ١٩٣٦ ، ص ٢٤٨) .

(وان كانت هذه العزلة غير مطلقة) ، قد قامت باختيار واحد . ان كل جماعة بدائية من الناس قد وضعت رابطة صوتية ، مفهومة لاعضائها كافة ، وكانت تحاكى ، اول الامر ، الصور الصوتية المسبغة على ظواهر واشياء العالم الموضوعى .

ثم ازداد تفرع اللغات وتمايزها بسبب كون مختلف الجماعات قد سعت على مختلف الاصعدة ، بما فيها على صعيد اللغة ، للتأكيد على تمايز «نحن» عن «هم» . فقد كانت كل لغة ، بربطها بين اعضاء الجماعة ، تشكل ، فى آن واحد ، علامة على الانتماء اليها . فهى لم تكن مجرد اداة للعشرة ، بل ورمزا لوحدة الجماعة ودرعا لها وفى الوقت ذاته كانت القبائل الرحل تأخذ بعضها عن الآخر مختلف العناصر اللغوية . ومن هنا فان علماء اللغة السوفييت على صواب فى تصويرهم للوحة القديمة للغات سلسلة متصلة من اللهجات البدائية .

وثمة اخصائيون برجوازيون ، مثل عالم الاتنوغرافيا واللغة النمساوى ميولير ، يربطون تنوع اللغات بتنوع الاعراق والامم (ويعتبرون الامة مقولة بيولوجية) . واقترح البعض تصنيفا للغات على اساس المؤشرات الاتنية . وهناك ما يتحدث ، وبجد ، عن اختلاف لغات الشعور تبعا لشكل شعر رأسها ، ولكن الابحاث اللغوية العلمية قد اثبتت انه ليس ثمة ارتباط ضرورى وأكيد بين اللغة والعرق . ففى حين تورّث السمات العرقية يمكن للغات ان تنتقل من شعب عرق معين الى شعب عرق آخر ، كما ويمكن لها ان تستعار وتختلط بغيرها . وليس ثمة لغة خاصة متميزة ، تكون وليدة شعب **بعينه فقط** ، تلازمه وحده ولا تصلح لغيره .

ولكل مرحلة من تطور المجتمع مستوى معين من تطور اللغات والعلاقات بينها . ومع تقدم البشرية تطورت اللغات ايضا ، وازداد حجم وظائفها الاجتماعية . فاذا كانت لغة العشيرة او القبيلة فى المجتمع البدائى لا تخدم إلاّ بضع مئات من الناس (حتى واقل من ذلك احيانا) ، فان لغة الشعب يتكلمها عشرات ومئات الالوف من البشر . وفى الوقت ذاته كانت تتواجد فى اطار كل جماعة لغوية فوارق فى اللهجات ، حتى وكانت هذه الفوارق تزداد . ولتلاحم الناس فى امة

واحدة ، ولتطورها اللاحـــق ، كانت ثمة حاجة فى لغـــة «نموذجية» ، ادبية ، للامة كلها .

وتبين الابحاث اللغوية مدى تعقـد سبل تشكل اللغات القومية الادبية المعاصرة . فاللغة الانكليزية ، مثلا ، تُنسب عادة الى مجموعة اللغات الجرمانية الغربية ، وتعتبر حصيلة تطور لغات القبائـــل الجرمانية - الانكليز والسكسونيين واليوت ، التى نزحت الى بريطانيا فى القرن الخامس . ولكن فيما بعد جرى تفاعل معقد بين اللغة الانكليزية وبين جملة من اللغات الاخرى ، التى ينتمى بعضها الى مجموعات لغوية مختلفة ، بحيث ان بعض علماء اللغـــة الانكليز يعتبرون الانكليزية لغة مختلطة ، سواء بتركيبها او بقوامها اللغوى ، ويعارضون نسبة اللغة الانكليزية نسبة قاطعة الى مجموعة لغويـــــة معينة * . وفى مجرى تمركز انكلترا الاقتصادى والسياسى غدت لندن عاصمة ثقافية لها ، مما ساعد على تحول اللهجة اللندنية الى لغة عامة لانكلترا ، رُسمت بعد الثورة البرجوازية الانكليزية (١٦٤٢-١٦٤٩) لغة «ادبيـــــة» ، «نموذجية» . وفى العصور اللاحقة لم تتوقف عملية تسرب الكثير من الكلمات من اللغات اللاتينية واليونانية والايطالية والاسبانية وغيرها الى اللغة الانكليزية الجديدة ، حتى ان اللغة الايرلندية قد اثرت فى تغير البنى النحوية للغـــــة الانكليزية .

وهذه القانونية فى تشكل اللغة القومية فى مجرى التفاعل مع لغات عديدة والاغتناء المتبادل فيما بينها امر ، يمكن تتبعه فى البلدان الاخرى ايضا ، حيث كانت له خصوصياته تبعا لميزات التطور التاريخى لكل بلد ، ومن ذلك انه برغم كون العناصر ، التى شاركت فى تكوين اللغة القوميـــــة الروسية ، كانت اكثر تجانسا منها فى اللغة الانكليزية ، فان جوهر هذه العملية يظل واحدا . فقد ادت الوحدة الاقتصادية والمركزة السياسية للشعب الروسى الى توقف ظهور فوارق جديدة فى اللهجات ، وساعدت على تفاعل اللهجات القائمة

* انظر : Barker E. National character and the factors in its formation. L., 1939, p. 216.

وتمركزها فى لغة روسية قومية عامة . وقامت فى صلب اللغة الروسية الادبية لهجة موسكو ، التى كانت قد صارت عاصمة روسيا الاقتصادية والثقافية والسياسية . ومنذ القرن الثامن عشر رسخت اللغة الروسية الادبية مواقعها نهائيا بوصفها لغة قومية لعموم البلاد . ومع ذلك ، ونظرا لترسخ وتوسع العلاقات الاقتصادية لروسيا مع الغرب ، ازداد تأثير اللغات الاوروبية الغربية على اللغة الروسية .

وينبغى الاخذ بالحسبان ان التصنيف السلالى للغات قد لا يتطابق مع تصنيفها الاثنى . واذا كان علم اللغة التاريخى المقارن يصنف اللغات على اساس وحدة هذه او تلك من العناصر اللغوية ، فان سوسيولوجيا اللغة والاتنوغرافيا تركزان على السبل المعقدة لنشوء اللغات وانتشارها وتفاعلها ، وعلى كون بعض اللغات تزاح أو تذوب فى غيرها ، فى حين تنتشر لغات اخرى ، لتغطى اتنوسات مختلفة . ومن ذلك اختفاء اللغات السنسكريتية والآشورية البابلية واللاتينية والمصرية القديمة واليونانية القديمة . فأثرت التحولات الاجتماعية الكبيرة فى تغيير الملامح الثقافية اللغوية لبعض الشعوب . وصارت اللغات الانكليزية والاسبانية والفرنسية لغات للكثير من شعوب المستعمرات . وفى الوقت ذاته جرى تفاعل للغات بنتيجة الاختلاط بين الشعوب والقبائل . وهنا كانت احدى اللغات تبقى هى الغالبة . ذلك هو ، مثلا ، حال اللغة اللاتينية العامية بالنسبة للغات الرومانية ، التى ظهرت فى مجرى «رومنة» الشعوب التى تقطن مناطق واسعة فى جنوب اوروبا الغربية ووسطها وجنوب غربها . فاللغة اللاتينية ، التى زرعها الرومان ، اندرجت لاحقا فى اللغات الرومانية ، وذلك عبر التفاعل مع اللغات المحلية للسكان الأصلاء . ومن المعروف ان قسما كبيرا من الشعوب ، التى عاشت قديما وتعيش اليوم فى اراضى فرنسا واسبانيا ورومانيا والبرتغال وغيرها ، قد «ترومنت» ، ولكن هذا لا يعنى انها من سلالة الروم القدامى ، او ان لغاتها امتداد مباشر للغة اللاتينية . فمثل هذا التصور عن التوارث هو من الخطأ خطأ النظرة الى السرماتيين والاسقوثيين على انهم روس ، او اعتبار اليونانيين من سلالة برقليس . حتى

ويتعذر النظر الى اللغة اللاتينية ذاتهـــا بمعزل عن اللغات الاخرى . فقد وجد العلماء فى نحو اللغة اللاتينية العديد من السمات المشتركة مع اللغة اليونانية . واللغة اليونانية ، والناطقون بأشكالها المختلفة ، لهم ، بدورهم ، تاريخهـــم البالغ التعقيد * .

لا شك فى ان دراسة القرابة بين اللغات امر نافـــع وضرورى . ولكن اذا كانت هذه الدراسة ضيقة ، فاكتفت مثلا بمقارنة المبادئ اللغويـــــة ، بدون تحليل للتاريخ الاقتصادى والسياسى والثقافى للشعوب الناطقة بهذه اللغات او تلك ، فان استنتاجاتها ستكون احادية الجانب .

وثمة علماء ، يرون ان لفرضية اصل اللغات الواحد قيمة علمية ومعرفية . فهم يذهبون الى ان اعادة رسم شجرة نسب اللغات ، بدءا من اللغة الاصل ، من شأنها ان تجعل دراسة تاريخ اللغات اكثر جلاء . ولن نناقش هنا مسألة جدوى وضع مثل هذه الشجرة للاغراض المذكورة ، ولكننـــا ننوه بان محاولات القول ، بناء على ذلك ، بواقعية اللغة الاصل والوطن الاصلى ، اللذين تمتد منهما الخيوط الموصلة الى الشعوب واللغات المعاصرة ، لا يمكن لها إلاّ طمس كل تلك الاختلاطات والتغيرات التى طرأت تاريخيا على الشعوب ولغاتها .

وتبين مقارنة معطيات علم اللغـــة والاتنوغرافيـــا ان الشعوب ، الناطقة بلغات متقاربة ، قد لا تكون قريبة الاصل ، وبالعكس ، ثمة شعوب قريبة الاصل ، تتكلم بلغات مختلفة . وعند تحديد قرابة اللغات يمكن لتشابه مفرداتها ان يضلل الباحث . فقد تتشابه الكلمات من حيث الشكل ، حتى وتتطابق من حيث اللفظ والمعنى ، ولكن اصلها مختلف تماما ، ناهيك عن احتمال كونها مستعارة . فكلمتا «du» و «tee» بالارمنية والالمانيـــة واحدتان من حيث اللفظ والمعنى – «انـــت» ،

---

* ان اللغة اليونانية ، شأن اللاتينية ، تنتمى الى المجموعات اللغوية القديمة ، بدءا من السنسكريتية . ولهذا السبب تدعى هذه اللغات كلها هندواوروبية . ولكن فى اسرة اللغات هذه تشغل اللغة اليونانية ، ومعها الانكليزية ، مكانـــة منعزلة . ثم ان قرابة اللغات الباقية امر نسبى .

«شاى» ؛ وكلمة «bad» هى نفسها بالفارسية والانكليزية — «سيئ» ، ولكن اشتقاق هذه الكلمات اللغوى مختلف تماما . وقد سبق لعلماء اللغة ان لاحظوا ، ومنذ أمد طويل ، ان ثمة اوجه تشابه حتى بين لغات تنتمى الى عائلات لغوية مختلفة ، كما بين المجموعتين الهندوأوروبيــة والفينواوغورية . هذا فضلا عن ان اللغات ، التى تعتبر غير قريبة من الناحيــة اللغوية ، قد تكون واحدة الاصل . ولكن التفاعلات بين مختلف اللغات واللهجات غطّت على قرابتها هذه .

وبرغم ان التصورات حول هذه او تلــك من اللغات المتعددة القوميات بوصفها امتدادا مباشرا للغــة الشعب — الاصل ، ونتاجا لنفسيته «الخاصة» به وحده ، هى تصورات بعيدة تماما عن الواقع ، فان محاولات صنمنة اللغة لا تتوقف ابدا . فتسبغ على اللغة سمات خالق «الروح القومية» . وتعتبر هذه «الروح» الشرط الرئيسى لبقاء الامة . ومن هذه الزاوية فان الامة ، المحرومة من الارض ، تستطيع ان تحافظ على وجودها اذا صانت لغتها . اما تبديل اللغة فيعنى ، تبعــا لذلك ، تغيرا جذريا لماهية الامة المعنية ، فاللغة هى التى ترسم ملامحها الروحية .

٢ — اللغة والنفسية

ينطلق عالم اللغة الالمانى البارز فون جومبولت من فهم اللغة على انها صانعة الامة وخالقة الشعب . فاللغة ، عنده ، أشبه بالتعبير الخارجى عن روح الشعب ، فلغة الشعب هى روحه ، وروح الشعب هى لغته ، ومن الصعب تصور أمرين متطابقين اكثر من هذا التطابق . وهو يفترض ان «الصيغة الداخلية» للغة تنطوى على النظرة الذاتية الى العالم ، و«ان بنية اللغات فى الجنس البشرى تختلف بسبب تمايز الروح القومية وتبعا لاختلاف هذه السمات لدى كل شعب»* . وصارت

* فون جومبولت . حــول اختلاف عضويات اللغة البشرية وتأثير هذا الاختلاف على التطــور الذهنى للجنس البشرى . سان بطرسبورغ ، ١٨٥٩ ، ص ٣٧ .

المبالغة فى دور اللغة احد الجذور المعرفية للقول الخاطئ بان لكل لغة قومية (او فصيلة من اللغات المتقاربة) طبيعتها الخاصة ، التى تحدد ايضـــا خصوصية رؤية العالم ، حتى وسلوك الفرد ، فى الامة المعنية .

وعلى خطى جومبولت سار مواطنه شتينتال ، الذى صار احد مؤسسى الاتجاه السيكولوجى فى فقه اللغة ، فأكد ان الصيغة الداخلية للكلمة او للتصور شىء ذاتى . وهو يرى انها «ادراك لكل مضمون محتمل ، تنطوى عليه الروح . . .»*. ثم ان النظرة الى اللغة كصيغة لتفكير الشعوب ونفسيتها قد انعكست فى اعمال عدد من فقهاء اللغـــة الروس فى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . فكان بوتيبنيـــا واوفسيانيكو-كوليكوفسكـى يمثلان الاتجاه السيكولوجـى فى فقه اللغة ، وضمنا فى فهم سيمانطيقا العبارات . اما عالم اللغة السويسرى دى سوسيور ، رائد البنيوية الاوروبية ، يرى «ان كل ما فى اللغة نفسانى فى حقيقته ، بما فى ذلك تجلياتها المادية والميكانيكية . . .» ** . واللغة ، عنده ، ليست إلاّ «نسقا من الرموز ، الشىء الوحيد الهام فيه هو تآلف المعنى والصورة الصوتية ، علما بأن كلا هذين العنصرين نفسيان» *** .

أما فى الحقيقة فان الامر على النقيض تمامـــا من هذا التصور . فالكلمة ، أو اللغة ، ليست بحد ذاتها شيئـــا نفسانيا .

والموضوع الواحد قد يدل عليه برموز مختلفة فى اللغات المختلفة . ولذا فان الرمز لا يعكس مباشرة طبيعة الموضوع او الظاهرة . ومن وجهة نظر السيكولوجيا لا يمكن للرمز ان يعكس طبيعة الموضوع إلاّ فى وحدته مع معناه ، مع مفهومه . ثم ان المعنى بحد ذاته ، اى فى تجرده ، ليس ، هو الآخر ، شيئا نفسانيا .

ولا تغدو المعانى قريبة الى الفرد من الناحية النفسانية

---

* نقلا عن : التفكير واللغة . موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٣٦٠ .

** دى سوسيور . مقرر علم اللغة العام . موسكو ، ١٩٣٣ ، ص ٣٣ .

*** المصدر السابق ، ص ٣٩ .

إلاّ اذا انعكست عبر وعيه الشخصى ، فعندئذ فقط تكتسب بعدا «نفسانيا» . وليس ثمة وجـود فوق فردى للمعنـى ، ناهيك عن الرمز ، ولا لوحدتهما - للكلمة ، للغة . ولا اساس موضوعى لفهم اللغة كظاهرة من ظواهر «السيكولوجية القومية» . ثم ان الفوارق فى مستويـات تطور اللغـات القومية ، وبالتالى - فى قدراتها على التجريـد ، لا تعود الى معطيات طبيعية موهومة ، خاصة لهذه الامـة (الشعب) او تلك ، وانما ترتبط حصرا بالظروف التاريخية لتشكل تلـك الامة . وأخيرا ، ينبغى الاخـذ بالاعتبار ان النفسية تتغير تاريخيا بأسرع من تغير اللغة . وثمـة عناصر وقواعد فى اللغة القومية ، تصاغ فى مجرى العشرة الكلامية على امتداد حياة اجيال عديدة ، ذات نفسيات مختلفة .

ان الجذور المعرفية لرواج الفهم السيكولوجى للغة تقوم ، على ما يبدو ، فى ان كافة العمليات النفسية الشعورية تجرى من خلال نسق الرموز اللغوية . فاللغة ، حين تعطى لكل شيء ولكل ظاهرة فى العالم رمزا معينا ، انما تؤثر على نفسيـة الانسان من الزاوية الاعلامية بوصفها ممثلا للواقع ونائبا عنه . وبما ان اللغة لا تتواجد إلاّ فى صيغ قومية ، فانهم يربطونها احيانا بالخصوصيات القومية للنفسية . ولكن مثل هذا الربط يمكن ان يكون مثمرا شريطـة اعتبار الفوارق والاختلافات العديدة ، التى تظهر فى مجرى التطور التاريخـى للغات وللناطقين بها . وأهم ما فى الامر هنا انه ليست النفسية هى التى تحدد قرب اللغة من الناس ، وانما يجعلها كذلك ارتباطها الدائم بنشاط الشعب المعنى .

وقد برهن العلم المعاصر على ان مـا تشكل لدى هذا الشعب او ذاك ، على امتداد قرون عديدة ، من ارتباط بين لغة معينة ونسق معين فى الكتابة ، يترك بصماته ، العميقة الى ما فيه الكفاية ، على نفسية الناطقين بها ، ولكن اللغة نفسها لا تضرب جذورها فى هذه النفسيـة . وعلاقة الفرد بلغته تكون ذات صبغة عاطفية ، ففيها ينعكس كل ما يهم الناطقين بها : طبيعة الوطن الام وتاريخ الشعب . بعبارة اخرى : ان اللغة تغدو قريبة الى نفوس الناطقين بهـا لا

بسبب طبيعتها بحد ذاتها ، ولا بفضل ميزات خاصة بها ، بل لانه فى مجرى الاستخدام المديد لها كصيغة واداة للتعبير عن ثقافة الشعب ومثله وأمانيه وتطلعاته ، ولتطوير هذه الثقافة والمثل والتطلعات . ولهذا بالذات ينظر الى اللغة على انها ثروة قومية جليلة ، وتغدو موضوعا للعناية والحرص . فقط فى ظروف كهذه لا تعبر اللغة الام عن المشاعر القومية فحسب ، بل وتقوى هذه المشاعر . وكل انتقاص من شأن اللغة الام يصادف وقعا عميقا فى النفوس ، ويستدعى رد فعل حادا من طرف ابنائها .

واللغة القومية لا تحدد – بطبيعتها او ببنيتها – ذهنية الناس وسلوكهم ، ولكنه يمكن لها ان تؤثر على تصرفاتهم من حيث نيابتها عن الاشياء والظواهر (بما فيها الظواهر القومية) . وان لحقيقة «كون كل كلمة (نطق) ، بحد ذاتها ، **تعمم»** * ، وانه «فى اللغة لا يوجد إلاّ **العام»** ** ، اهمية حاسمة فى تشكل الوظائف النفسية العليا لدى الانسان ، وفى عكسه المنظومى للواقع ، وفى خلق منظومات وظيفية جديدة ، وادارة العمليات النفسية .

ان بنية الدماغ ووظائفه تتغير خلال الارتقاء المديد للانسان . وفى مجرى التطور الاجتماعى التاريخى للانسان تتشكل فى دماغه اعضاء وظيفية خاصة بتحويل طاقة مختلف المؤثرات الى وقائع للوعى . ولكن اللغة ، وما ينبع عنها من منظومات وظيفية معقدة لمناطق الدماغ السمعية والبصرية التى تعمل معا ، لا تنتقل بالوراثة . وهى لا تولد جاهزة بولادة الطفل ؛ هذا فضلا عن انها لا تتشكل بصورة مستقلة ، خارج المجتمع . فالطفل ، عند الولادة ، لا يملك الا المقدمات البيولوجية لتنظيم اللغة وتطورها .

وبما ان خصوصية اللغة القومية تقوم فى انها موجهة للناس المنتمين الى الجماعة القومية المعنية ، فان الطفل ، الذى يولد فى وسط هذه الجماعة ، يستوعب اللغة الجاهزة

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٩ ، ص ٢٤٦ («الدفاتر الفلسفية») .

** المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

فى مجرى الاحتكاك بالناس المحيطين به . وشيئا فشيئا تتشكل لديه ستيريوتيبات دينامية معينة ، منظومات معينة من ردود الفعل ، تتوافق مع الصيغ النحوية (تراكيب العبارات) للغة المحيطة به . ويألف تدريجيا النبرات الصوتية ، ويتعود على بنية العبارة المعقدة ، وعلى جملة المعانى المرتبطة بهذا النسق من الاصوات او ذاك ، الخ .

بعبارة اخرى : بما ان الشرط الحاسم لظهور النطق البشرى كان «**الانتقال من الاشارات المشروطة بيولوجيا الى الرموز المشروطة اجتماعيا**» * . فان الطفل سوف يصغى الى الكلام من حوله ويستوعب الرموز الكلامية لبيئته . وهنا ينبغى التنويه بأنه ليس من الضرورى ان يكون هذا الكلام باللغة الام . فالطفل ، الذى يولد لأبوين من قومية معينة ، ثم ينمو فى وسط بيئة قومية اخرى ، يستوعب لغة القومية الاخيرة ، التى تغدو لغته ، يتحدث بها ويعبر من خلالها عن احاسيسه . واذا ترتب على شخص كهذا الشروع ، فى سن النضج ، بدراسة لغته الام فسوف يصطدم بنفس الصعاب التى يعانى منها الناس عند دراستهم للغة أجنبية .

ومن الادلة الجلية على كون اللغة ليست وليدة السمات النفسية القومية يأتى مثال عدد من الامم الناطقة بالانكليزية والاسبانية ، والتى تتألف من فئات اتنية (واحيانا عرقية) مختلفة ، ولكنها تتحدث بلغة واحدة . وكذلك هو حال الامم ، التى استبدلت لغتها بلغة اخرى . فذلك هو حال الشعوب التى استعربت بعد الفتح الاسلامى . وفى بلجيكا تصدر الادبيات باللغتين الفرنسية والفلامندية .

وجدير بالذكر ايضا انه يمكن للغات مختلفة ان تعبر عن خصوصيات السيكولوجية القومية للامة الواحدة . وافصح الامثلة على ذلك مثال الامة السويسرية ، التى لها اربع لغات حكومية رسمية : الالمانية والفرنسية والايطالية والريتورمانية . ويتطور الادب السويسرى باللغات الاربع .

* ف . إ . ابايف . انعكاس عمل الوعى فى نسق اللغة السيمانطيقى . — فى كتاب : اللينينية والمشكلات النظرية لفقه اللغة . موسكو ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٨ .

فالتقاليد المشتركة لنضال التحرر الوطنى من اجل استقلال الاقاليم (الكانتونات) السويسرية ، ووحدة المشاعر والافكار لم تؤد بالسويسريين الى وحدة اللغة ، بل الى تكوين جماعة رباعية اللغة .

وعليه ، فانه برغم ما هو معروف واكيد من حب الناس للغتهم القومية ، فانه ليست اللغة هى التى تلعب الدور الحاسم فى المشاعر القومية . فالتوتر والنزاعات بين الامم ، التى تنطق بلغة واحدة ، قد تبلغ حدتها بين الامم المختلفة اللغات ، اذا كان الامر يمس مصالحها الاقتصادية والسياسية . وغنى عن البيان انه فى المجتمع التناحرى تساهم نفس اللغة فى التكوين والتعبير عن نفسيات متباينة لدى مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية .

٣ – اللغة والتفكير والوعى

درجت الادبيات العلمية ، ومنذ زمن بعيد ، على النظر فى مشكلة وحدة اللغة والتفكير . وان لحل هذه المشكلة اهميته بالنسبة لتفسير قدرة اللغة على التعميم ، على ان تكون اداة للتفكير ، ولتفسير قدرة التفكير ، بدوره ، على سبر اغوار الاشياء والظواهر والعمليات ، وعلى استجلاء قانونياتها ، وعكسها بصورة صحيحة . ولكن فهم الخصوصية القومية لعكس العالم وللادوات التعبيرية للغة يتطلب النظر الى علاقة اللغة ليس فقط بالتفكير ، بوصفه نواة الوعى ، بل وبعناصر الوعى الطرفية . ولكن قبل التحدث عن القانونيات الخاصة لوظائف النطق (اللغة) الاضافية ، ينبغى دراسة وظائفه الاساسية : العشرة (المفاهيمية) والتعميم . وحول هاتين الوظيفتين يتمحور حل مشكلة العلاقة بين اللغة والتفكير .

وقد بينت الماركسية اللينينية تواقت ظهور اللغة والفكر فى مجرى تشكل الانسان بفضل العمل ، وبرهنت على وحدتهما . اما من زاوية العصبية القومية فان هذه الوحدة

تعنى ان تعدد اللغات القومية يستتبع تعدد انماط التفكير ؛ فلكل لغة قومية او مجموعة من اللغات القريبة تفكير خاص يوافقها . ولكن هذا الاستنتاج يتناقض مع واقع الامور . صحيح ان للتفكير ولاشكال تجليه تاريخه فى التطور فى البيئة القومية الملموسة ، ولكن مراعاة التغيرات التاريخية ونمو قدرات الناس الذهنية من درجة دنيا الى اعلى على سلم تطور المجتمع ، أو اكتسابهم بعض الخصوصيات فى طريقة التعبير عن افكارهم (فى الادب مثلا) ، شيء ، والتمييز بين الناس تبعا لانماط التفكير العرقية والقومية ، شيء آخر . فالناس يفكرون تبعا لنفس قوانين المنطق ، بغض النظر عن اختلاف اللغات . فحتى التفكير «ما قبل المنطقى» لا يخرج عن اطار وحدة التفكير البشرى . وهذه الوحدة توجد لدى الناس من مختلف الشعوب والعصور . كذلك لا يتناقض مع وحدة الفكر البشرى ما شهده التاريخ من تعدد اشكال التفكير (الذهنية) . ولا يناقضها أنه تتواجد (حتى فى آن واحد) ألوان متعددة من التفكير – مادى ديالكتيكى ، مادى ميتافيزيقى ، مثالى .

كان الناس البدائيون يتمثلون عبر المفاهيم الاسطورية الروابط النافعة والضرورية عمليا بين حياتهم وبين البيئة المحيطة . وكان لديهم منطقهم ، مثلما كان للفيلسوف المثالى افلاطون منطقه ، حين تصور عالم الاشياء انعكاسا لعالم المثل ، فلم يفعل الا اسباغ رداء شبه علمى على نفس تلك التصورات البدائية الميثولوجية حول القوى السحرية . ويكشف التفكير العلمى عن اسباب الاعتقاد بالافعال السحرية ، بالقوى الغيبية الخارقة . وهو يبين ان الحديث لا يدور ، فى جوهر الأمر ، عن انماط من التفكير متغايرة جذريا ومنفصلة انفصالا مطلقا ، بل عن درجات مختلفة من تطور تفكير البشرية الموحد – من الفكر الميثولوجى الى الفكر العلمى .

وقد بين العلم أن التفكير المنطقى ، وبغض النظر عن مستوى تطوره ، أمر ملازم للبشر كلهم . أما الزعم بأن هناك من انماط التفكير بقدر ما يوجد من انماط الناس

العرقية الجغرافية ، حتى والقومية ، فيستند الى رد وحدة اللغة والتفكير الى التطابق المجرد بينهما .

واذا كان انصار النظرتين البيولوجية والسيكولوجية الى اصل اللغة يعتبرون اللغات القومية وليدة الاعراق او النفسيات المتميزة للشعوب ، فان مختلف مدارس الوضعية الجديدة ، وبينها منظرو النسبية اللغوية ، يذهبون ، على العكس ، الى أن النفسية والتفكير والذهنية والسلوك وليدة الطبيعة ، أو البنية ، الخاصة ، المميزة لهذه اللغة أو تلك . وقد ارست اعمال فون جومبولت واتباعه بداية نظرية «النسبية اللغوية» ، التى صاغها لاحقا عالم الاتنولوجيا واللغة الامريكى سيبير . ان سيبير ينطلق من موضوعة عن التفكير ما قبل المنطقى للشعوب التى تعيش فى المرحلة البدائية من التطور ، ليعممها على فكر الناس المعاصرين ولغتهم . لقد لفت سيبير الانتباه الى أن الناس ، الذين يعيشون فى مراحل التطور البدائى ، يستخلصون تعاويذهم من التصورات التى تطابق بين الكلمات والاشياء . ولكن سيبير يخلص من ذلك الى القول أن الناس المعاصرين أيضا لا يميزون تمييزا دقيقا وكاملا بين الامور الموضوعية وبين رموزها اللغوية ، وأن «العالم الواقعى» يبنى على اساس الصيغ اللغوية لهذه الجماعية الاتنية أو تلك * .

ويتبنى الباحث اللغوى والانتروبولوجى الامريكى اورف فكرة التبعية التامة بين تفكير كل شعب وبين لغته ، ويطورها الى الامام بصورة متسقة . فهو يقول صراحة أن الفكر والذهنية والسلوك لدى الناس تتوقف على الاشكال المألوفة فى استعمال الكلمات ، أى ، بعبارة اخرى ، على طابع اللغة القومية . ولدعم الرأى ، القائل أن ثقافة هذا الشعب أو ذاك ، أو الثقافات المتشابهة للشعوب القريبة ، تتحدد بخصوصيات اللغة ، مضى اورف الى حد الزعم أن تأثير اللغة على شتى ألوان نشاط الناس لا يقوم فى الحالات الخاصة لاستعمال اللغة ، بقدر ما يقوم فى قوانينها العامة ،

---

* انظر : Sepir E. Culture, Language and Personality. Berkley and Los Angeles, 1960, p. 8-9, 34-35.

التى تفعل دوما ، وفى تقييمها اليومى لهذه الظواهر أو تلك .

ان العالم ، فى نظر اورف ، تيار من الظواهر ، حشد من التصورات ، تقوم مختلف اللغات بتنسيقه وتنظيمه على أنحاء متباينة . «وهكذا فاننا نصادف مبدأ جديدا فى النسبية ، يقول أن الظواهر الفيزيائية المتشابهة لا تسمح برسم لوحات متشابهة للعالم الا فى حال تشابه الانساق اللغوية ، أو ، على الأقل ، تناسبها» * .

وقد أخذ أنصار «السيمانطيقا العامة» بهذا المبدأ ، الذى يدعى عادة «فرضية سيبير – اورف» . ان كافة مستويات التفكير العليا تتوقف ، عند اورف ، على اللغة القومية . ويزعم كوجيبسكى ، احد انصار «السيمانطيقا العامة» ، أنه «نظرا لكون كل لغة ذات بنية خاصة بها ، فانه تنعكس فى خصوصيتها بنية العالم كما يتصورها واضعو تلك اللغة . بعبارة اخرى : اننا نقوم لاشعوريا باسباغ بنية لغتنا على العالم» ** . ومن هنا يشير الباحث السوفييتى زفيغينتسيف الى «ان «السيمانطيقا العامة» هى ، فى حقيقة الأمر ، صيغة متطرفة من فرضية سيبير – اورف» *** .

ان النسبية اللغوية ، التى تصور اللغة عاملا من العوامل فى خلق العالم ، تصادف قبولا واسعا لدى مختلف مدارس الوضعية الجديدة . ومن ذلك قول الفيلسوف النمساوى فيتجنشتين : «**ان حدودلغتى تعنى حدود عالمى**» **** . صحيح أن ثمة فوارق بين النظريتين المذكورتين ، ولكنه يتعذر على المرء ألا يرى أن جذور فرضية سيبير – اورف ، مثلا ، متضمنة فى نظرية اللغة الوضعية الجديدة . واذا كانت النسبية اللغوية تجد أساسها الفلسفى فى نظرية اللغة

---

* Whorf B. Z. Language, Thought, and Reality. Ed. and with an introduction by John B. Carroll, 1966, p. 214.

** Korzybski A. Beziehungen, zwischen Sprache und Denken.—In: Wort und Wirklichkeit, S. 204.

*** ف . ب . زفيغينتسيف . دراسات فى تحليل المعرفة الفلسفية . يريفان ، ١٩٧٩ ، ص ٣١٤ .

**** ل . فيتجنشتين . الرسالة المنطقية الفلسفية . موسكو ، ١٩٥٨ ، ص ٨٠ .

الوضعية فان هذه الاخيرة ، بدورها ، تستند الى الاعمال اللغوية لسيبير واورف واتباعهما .

وتنطلق البنيوية ، الوثيقة الارتباط بالوضعية الجديدة و «السيمانطيقا العامة» ، من النسبية اللغوية ، لتستخلص منها ، مثلا ، قصور شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية عن التفكير المجرد ، عن تمثل الانجازات الرفيعة للحضارة المعاصرة . وهنا ينبغي التنويه بأن الشغف بالبنيوية ، الذى يصادف احيانا لدى بعض الماركسيين أيضا ، يغطى على طروحاته واستنتاجاته الجذرية الخاطئة . فينسى هؤلاء أنه اذا كان التناول المنظومى البنيوى للغة أمرا مشروعا باعتباره من مطالب الديالكتيك فى مراعاة الروابط الشاملة للظواهر الطبيعية والاجتماعية ، فان فصله عن الديالكتيك ، والمبالغة فيه ، لدى البنيوية اللغوية ، أو البنيوية عامة ، يؤدى الى الميتافيزيقا والمثالية .

ان انصار «السيمانطيقا العامة» — سواء منهم من يعتبر اللغة جوهرية فى التفكير أو من يقول ، على العكس ، بأن التفكير جوهرى فى اللغة يحاولون اثبات وجود نمط خاص من التفكير ، مميز لكل لغة قومية . وفى ذلك يقول خاياكافا ، احد اعلام المدرسة اليابانية فى السيمانطيقا العامة : «ان الانسان ، الذى يتحدث بلغة ، تختلف بنيتها اختلافا حادا عن بنية اللغة الانكليزية ، كاللغات اليابانية والصينية والتركية ، قد لا يفكر بتلك الافكار التى يفكر بها الشخص الناطق بالانكليزية» * .

ان مثل هذه الآراء تتناقض تناقضا صارخا مع الوقائع ، ومنها وجود رؤيتين للعالم ، مادية ومثالية لدى ابناء القوميات ذات اللغة الواحدة . وتبعا لطروحات انصار «السيمانطيقا العامة» ، فان المذاهب الفلسفية المثالية الالمانية ، مثلا ، قد ظهرت بفضل بنية اللغة الالمانية ، ولم يكن لها أن تنشأ على أرضية اللغة الانكليزية ، التى يزعمون

---

* نقلا عن : ج . أ . بروتيان . نظرية المعرفة فى السيمانطيقا العامة . يريفان ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٢ .

أنها صالحة لنمو الفلسفة البراغماتية تحديدا . ولكن من المعروف أنه بين الفلاسفة الناطقين بالالمانية لم يكن هناك المثاليون وحدهم (ناهيك عن أن المثالية ظهرت فى اللغات الاخرى أيضا ، والانكليزية بينها) ، بل فكان الفيلسوف المادى فورباخ ، ناهيك عن ماركس وانجلس ، اللذين صارت ماديتهما الديالكتيكية مفهومة وقريبة الى نفوس الملايين من البشر من كافة البلدان واللغات ، واخيرا ، فان بوسع كل فيلسوف ان يبسط افكاره بلغة اخرى ، غير لغته الام * .

وللهروب من مثل هذه الحقائق الجلية يقوم انصار «السيمانطيقا العامة» ، أول الأمر ، بفصل التفكير عن اللغة ، فيزعمون أن الفكر يوجد فى صورة «مجردة» بحد ذاته ، ثم يصورون الفكر منظومة من المصطلحات ، ويعلنون انه تعامل بكلمات ، باشارات اصطلاحية بحتة ، لا تتضمن أى محتوى واقعى .

ويذهب أنصار نظرية «السيمانطيقا العامة» الى أن بنية اللغات الهندواوروبية تتوافق مع «العقلية الغربية» . وهم يستخدمون ، وعلى نطاق واسع ، مفاهيم ، مثل العقلية «الامريكية» و«الروسية» و«الاسيوية» و«الاوروبية» و«الغربية» و«الشرقية» وما اليها . كما ويرون أن الافراد المبدعين هم الذين وضعوا مختلف اللغات القومية ، وأن بنية كل لغة تؤثر تأثيرا معينا على النشاط العصبى للانسان وعلى موقفه من الواقع وتقييمه لأشياء العالم وظواهره ، وأن بنية اللغة تعكس بنية الفكر ، وان كانت البنيتان ، كلتاهما ، لا تعكسان بنية الواقع ، فهذه الاخيرة ليست الا «اسقاطا» لبنية اللغة ، صورة لها .

ان نظرية الانعكاس اللينينية تقدم التفسير العلمى للعلاقة بين اللغة والفكر والواقع الموضوعى . فقد انطلق لينين من موضوعة انجلس القائلة «ان قوانين الفكر وقوانين الطبيعة لا بد وأن تتفق فيما بينها ، شريطة أن تكون قد

* ولا يتعارض هذا مع واقع أن عرض القضايا الفكرية والعلمية المعقدة ، وما تستلزمه من ادوات مقولاتية ، يتطلب تطورا معينا لهذه اللغة او تلك .

أدركت على نحو صحيح» * . وتبعا للنظرية اللينينية فان الفكر يعكس الواقع الموضوعى لأن الاثنين كليهما يخضعان لقوانين واحدة . وقد بين لينين ، فى ضوء معطيات العلوم الطبيعية ، أن الوعى مؤهل لعكس الطبيعة عكسا صحيحا ، ذلك أنه يمثل وظيفة للدماغ البشرى الذى ينطوى على «طبيعة الكل الطبيعى» . ويتم عكس الفكر للواقع فى مجرى النشاط العملى . ثم أن النشاط الذهنى لا يتولد عن الممارسة العملية ، فحسب ، بل ويملك واياها بنية واحدة من حيث الجوهر .

ان كافة العناصر الاساسية فى بنية الفكر (توفر مضمون ذهنى معين له سمات العمومية والتجريد ؛ توجه الفكر الى الموضوع ؛ توافق المضمون الذهنى مع الواقع) هى امور مشتركة بين الناس كافة ، بغض النظر عن انتمائهم القومى . وان منطق الافكار الواحد ينعكس فى الفكر المنطقى الواحد . فثمة واقع موضوعى واحد ، ولذا فانه يقبل الانعكاس والادراك فى مفاهيم عامة ، مشتركة بين الناس جميعا . واللغة هى الاداة العامة الشاملة للتعبير عن الافكار والمفاهيم . والفكر كصيغة عليا لعكس الواقع الموضوعى ، واللغة ، كلباس مادى للافكار ، يتواجدان دوما فى وحدة وثيقة ، لا تنفصم . واذا كان انصار «السيمانطيقا العامة» يزعمون أن الافكار توجد فى «صورة محضة» ، اما غيرهم من المثاليين فيوافقون على «ان كافة الافكار المصاغة تتطلب وجود الكلمات» ، فانهم ، ككل ، يشككون فى حتمية الارتباط بين الفكر واللغة * * وعلى العكس من هذه الآراء تبرهن المادية الديالكتيكية على أنه ليس ثمة لغة بدون فكر ، مثلما «ان الافكار لا توجد بمعزل عن اللغة» * * * .

ولكن العلاقة بين الفكر واللغة لا تقتصر على وحدتهما ،

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٥٣٩ـ ٥٤٠ (انجلس . ديالكتيك الطبيعة) .

* * انظر ، مثلا : ب . راسل . المعرفة البشرية . ميدانها وحدودها . موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٩٤ .

* * * ارشيف ماركس وانجلس . المجلد ٤ ، ص ٩٩ .

فهما مختلفان ايضا . فالمفاهيم العامة ، المشتركة بين ابناء الامم المختلفة ، تنعكس فى كلمات (رموز) متباينة . والفكر واللغة يقومان معا بوظيفة واحدة ، ولكنهما يفعلان على نحوين مختلفين . وهما لا يتواجدان احدهما بدون الآخر بمعنى أنه لا كلمات بدون مضمون ذهنى ، ولا افكار بدون صياغة كلامية ، لغوية . ولكن طابع هذه الصياغة ، طابع صوتيات اللغة ومورفولوجياها ، لا يتحدد بقوانين الفكر ، بل بقوانين تطور اللغة ذاتها ، وهى القوانين التى تضمن تأدية اللغة لوظيفة الدلالة (الرمز) .

ان مشكلة علاقة الرمز بالمرموز هى من القضايا ، التى تدور حولها النقاشات فى علوم النفس واللغة والفلسفة .

ان الكلمة ، اللغة ، هى وحدة الرمز والمدلول (المعنى) . فالفكر يعكس الاشياء والظواهر الواقعية فى مفاهيم * ، تلقى لدى مختلف الشعوب رموزا متباينة . وثمة صيغ قومية للكلمات والعبارات . وعليه ، فان المضمون الذهنى الواحد قد يتخذ ، وهو يتخذ فعلا ، صيغا لغوية مختلفة . «فان مقولات الفكر ليست معدات لدى الانسان ، وانما هى تعبير عن قانونيات الطبيعة والانسان معا» * * ، أما مقولات اللغة ، كأداة للتعبير عن الافكار ، فهى من معدات الانسان . وكل شعب يضع معداته اللغوية . أما المسألة فتقوم فى التالى : كيف توضع هذه المعدات ؟ فاذا كانت توجد لغات مختلفة ، لها منظومات رمزية متباينة ، وبالامكان استبدال احداها بالأخرى ، فهل يمكن اعتبار وضع هذه الرموز أمرا اعتباطيا وذاتيا ؟ من المتعذر اعطاء جواب واحد ووحيد على هذا السؤال .

ان الجانب الصوتى من الواحدات اللغوية لا يتوقف سببيا على خصوصيات الموضوعات الخارجية أو المفاهيم المعبرة عنها . بعبارة اخرى : ان كلمات اللغات القومية ليست

---

* سوف نرى ادناه أن معنى (مدلول) الكلمة لا يقتصر على المفهوم الذى تعبر عنه ، بل وما تمت اليه من حالات عاطفية وشعورية ، الخ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٩ ، ص ٨٣ (« الدفاتر الفلسفية ») .

تشكلات رمزية طبيعية . وقد سبق لماركس التنويه «بأن تسمية الشيء قد لا تمت بصلة الى طبيعته» * . وليس ثمة ارتباط عضوى بين لباس الفكرة المادى وبين موضوعها ، الأمر الذى تدل عليه واقعة أنه قد تقترن بالكلمة الواحدة مدلولات مختلفة تبعا لسياقها ، وأن الاشياء والظواهر الواحدة تسمى باسماء مختلفة لدى الشعوب المختلفة . وان وجود جملة من اللغات القومية يعود بالضبط الى أنه يمكن الرمز برموز مختلفة الى المفهوم (وبصورة أعم – الى المعنى اللغوى) الواحد . ومن الجلى أن الشعوب المختلفة ، حين ربطت مدلولا معينا (مضمون الوعى) بهذا الرمز أو ذاك ، فانها فعلت ذلك ، أول الأمر ، بصورة عفوية .

ان مفردات اللغات القومية شرطية ، اصطناعية ، ولكنها ، فى الوقت ذاته تلقائية . ولكن هذا القول انما يصح على اللغات التى اكتمل تشكلها ، وتتطور لاحقا وفقا لقوانينها الذاتية . خطوة فخطوة تتهذب وتتحسن المنظومة اللغوية كلها . ثم تبرر ضرورة ظهور كل رمز جديد ، فادراجه فى المنظومة اللغوية المعنية لا يتم عفويا ، وانما يخضع لقانونياتها الداخلية . صحيح انه عند رؤية شيء غير معروف تظهر فى ذهن الانسان المعاصر عدة تسميات ممكنة له ، لا تسمية واحدة ووحيدة ، ولكن تحليل روابطه ، وابراز اهم ما فيها ، يتيحان اطلاق التسمية المقبولة أكثر من غيرها .

ان المنظومة اللغوية المعمول بها تشترط الروابط لا بين الرموز القائمة فحسب ، بل وبينها وبين الرموز المتشكلة حديثا . ولكن حتى فى هذه الحالة فان رموز اللغة لا تتوقف ، فى نهاية المطاف ، على صفات الاشياء ، على مدلولها ، بل على نسق اللغة ، التى يكون فيها لهذه الالفاظ استقرار معين ، تضمنه التقاليد اللازمة للمجتمع . فبالنسبة لكافة اعضاء الجماعة المعنية تتمتع المعايير اللغوية ، الصوتية منها والنحوية ، بقوة الزام هائلة . فليس لأحد الاخلال بها دون المغامرة بالطرد من دائرة الروابط الاجتماعية الحيوية بالنسبة

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٣ ، ص ١١٠ (ماركس . رأس المال) .

له ، والتى تتخذ ، بمرور الزمن ، صيغة روابط قومية . وهنا تتأكد ، مرة أخرى ، حقيقة أن اللغة ليست مجرد اداة جبارة لتطور الروابط القومية ، بل هى نتاج لهذه الروابط ايضا .

وتمثل كل لغة قومية نسقا موضوعيا من الرموز . وهى تدل على المفاهيم ، وتكون حاملة لها . أما مسألة أى اللغات تغدو لغة أم للانسان فتتوقف على الوسط اللغوى المحيط به ، وعلى مدى احتكاكه بهذه اللغة أو تلك . واللغة لا تورث . فلا تتكرر لدى الطفل تصورات اسلافه (بما فيها التصورات الكلامية) . فما يكون كامنا عنده ، منذ الولادة ، هو فقط القدرة على تعلم اللغة الجاهزة ، التى تحيط به .

ومهما كان قويا اختلاف اللغات فيما بينها فان هذه الاختلافات ليست مبدئية . فوظيفة اللغة كأداة فى العشرة هى وظيفة عامة ، مشتركة بين كافة اللغات . وتختلف اللغات القومية فيما بينها بخصوصيات قوامها الرمزى . وفى اللغة القومية تندرج جملة معينة من الكلمات والادوات النحوية ، العامة والمشتركة بين ابناء الامة المعنية . ولكن ليس ثمة صيغ قومية من المنطق : من الاحكام والمفاهيم والاستدلالات ، الخ . ، وانما هناك صيغ كلامية ونحوية قومية للتعبير عنها . ان الفكرة ، كتعبير عن الواقع ، ليست قومية ، ولكنها ، كمضمون للعبارة اللغوية ، تكتسب صيغة قومية . وهى تكون ، فى آن واحد ، شكلا بالنسبة لموضوعها ، ومضمونا للصيغة اللغوية .

فى دراستنا لمشكلة وحدة الفكر واللغة دار الحديث ، بصورة رئيسية ، عن النواة المفهومية . ورغم أن هذه النواة ، كما يرى بعض علماء اللغة ، «تغلّف» بمسوح اضافية من الصفات التعبيرية والاسلوبية ، فان المفهوم يبقى الشىء الحاسم فيها . ولكن استجلاء خصوصية اللغة فى ارتباطها بالفكر يتطلب تمييز المفهوم عن المدلول (المعنى) اللغوى . فمصطلحا «المفهوم» و«المدلول» يؤخذان على نحو مختلف : الاول – فى ارتباطه بالموضوع ، والثانى – فى ارتباطه بالرمز اللغوى (بالكلمة أو العبارة) . وان من شأن

الخلط بينهما أن يؤدى الى استبدال وحدة اللغة والفكر بالتطابق بينهما ، استبدال القضايا المعرفية باللغوية ، مما يؤدى ، بالنتيجة ، الى تشويه الطبيعة الواقعية للغة . فان وحدة اللغة والفكر هى وحدة ظاهرتين ، تختلفان اختلافا عميقا فيما بينهما : المادى والمثالى * ، القومى والانسانى ، الرمزى والمضمونى .

ان دراستنا لمشكلة وحدة اللغة والفكر ، الرمز والمدلول ، الاممى والقومى فى اللغة تتيح تصور خصوصية اللغات القومية على نحو أكثر جلاء ووضوحا . ولكن الاستجلاء الكامل لهذه الخصوصية يتطلب النظر فى مشكلة وحدة الوعى واللغة ، لأن التفكير ليس الّا جزءا من الوعى .

٤ – وحدة اللغة والوعى

ان التفكير ، كنشاط معرفى عقلانى ، لا يرتبط بالموضوع ارتباطا مباشرا . فهو يسبر أغوار الموضوع ، متجسدا فى صورة مفاهيم واحكام واستدلالات وفرضيات ونظريات . والوعى ينطوى على التفكير ، ولكنه لا يقتصر عليه .

ولكى نأخذ بالحسبان القيمة العاطفية والجمالية للعناصر اللغوية ينبغى الانطلاق لا من العلاقة بين اللغة والتفكير ، بل من العلاقة بين اللغة والوعى ، وهى العلاقة التى تبدأ بالعكس الحسى وترتقى حتى مستوى الفكر النظرى . وعندئذ لا يغدو مدلول الكلمة مطابقا لمفهومها فقط . فهو ينطوى على المعلومات المنطقية والعاطفية معا . والوعى جملة من العمليات النفسية (الاحاسيس والادراكات والتصورات والمفاهيم) ، التى تشارك مشاركة فعالة فى تعقل الانسان للعالم الموضوعى ولوجوده الشخصى (وعى الذات) . ولذا فان الوعى ينطوى سواء على النشاط التجريدى أو على الخيال الخصب ، ويتضمن العواطف والارادة البشرية ، التى يمكن لها أن تتجلى سواء

* المقصود هو أن افكار الانسان تكون دوما مصاغة فى قالب لغوى ، مادى .

فى عمليات مستقلة أو فى عمليات لا شعورية . وان المراعاة العلمية لكافة هذه العناصر توفر التصور الصحيح عن الخصوصية القومية ، التى تتجلى فى اللغة . فان المبالغة فى هذه الخصوصية تقود الى التشويه الشوفينى للانسانى والأممى .

ولا تقف اللغة حيادية بالنسبة لتشكل الافكار ونقلها . فهى ، بوصفها عنصرا فعالا من عملية المعرفة ، تكمّل لوحة العالم المنطقية بلوحة لغوية . وتلعب هذه اللوحة اللغوية دورا هاما فى النشاط المعرفى الفنى . فالفوارق فى تصورات الناس من ابناء القوميات المختلفة تعود عادة الى الفوارق فى التعبير الكلامى عن الواقع المحيط بهم بهذه اللغة أو تلك . حتى ويعبر عن دور اللغة القومية هذا بمصطلح خاص ، هو **«التكاملية اللغوية»** .

ان مشاركة اللغة فى النشاط المعرفى الديالكتيكى – من التأمل الحى الى التفكير المجرد ومنه الى الممارسة العملية – تتم على نحو مزدوج . فدورها الرئيسى فى التأمل الحى هو التظليل الخفيف للوحة الواقع العيانى اللغوية . وهنا بالذات تنعكس سمات قومية معينة . أما عند رسم لوحة العالم المنطقية فان دور مختلف اللغات القومية واحد . فيترتب عليها كلها أن تعبر عن المفاهيم الانسانية العامة تعبيرا دقيقا ، بغض النظر عن اختلاف صياغاتها اللغوية . أما الظلال الخفيفة القومية ، التى قد تسبغ على هذه المفاهيم فانها لا تغير جوهرها ، ولا تخل اطلاقا بوحدة المنطق البشرى . ولذا فان مبدأ «التكاملية اللغوية» لا يشكل ابدا مبدأ مماثلا لمبدأ تكاملية بور فى الميكانيك الكوانتى . فدقة الوصف اللغوى للوحة العالم لا تتناقض مع وصفه المنطقى ، والعكس بالعكس . ويقدم الوصفان معا صورة شاملة وصحيحة للواقع . وتبدو الصور الكلامية وكأنها تشغل اطراف ميدان معرفة العالم ، وتكون أشبه بالارضية الشفهية لصورته المفهومية . وتساعد التصورات الشفهية على التعمق فى فهم العالم . وهى لا تغدو عائقا الّا عندما تبتعد بصاحبها عن الواقع .

وعليه ، فاذا كانت «النسبيــة اللغوية» الوضعية تحول اللغة الى خالق للعالم ، وتقول بوجود الفوارق القومية فــى المفاهيم ذاتها ، فان «التكاملية اللغوية» تتحدث فقط عــن ظلال اضافية عرضية ، تسبغ على لوحة العالم المنطقية من قبل الوسائط التعبيرية للغة . فهى ، اذ تجعــل هذا المفهوم أو ذاك أغمق أو أفتح ، لا يمكن لها أن تغير ، وهى لا تغيــر فعلا ، وحدة هذا المفهوم بالنسبة لابناء أى امة .

ان المدلول المنطقى ، المفهومى ، هــو لب المدلول اللغوى ونواته . وهذا المدلول يبقى ثابتا ، ويلعب الدور الحاسم فى الكلمة ، حيث يمثل ما فيها من جانب انسانى عام . أما المعنى الباطن اللغوى فيتحدد بخصوصيات اللغة القومية ، مما يشير الى بعض الفوارق فى كيفية رؤية العالم . وتتمتع دراسة الاشكال التاريخية لهذه الرؤية بأهمية خاصة بالنسبة لفهم الخصوصيات القومية للشعوب . ومن شأن تجاهــل هذه الخصوصيات ان يفقر تصوراتنا عن الثقافات ، فى حين تؤدى المبالغة فيها الى طمس الشىء الرئيسى ، العام ، فيها . وان من شأن ابراز الخاص ، وطرحه فى مواجهة العام (وفى الحالــة المعنية : طرح موديل المعلومات اللغوى ، الذى يتغير عادة ، فى مواجهة موديلها المنطقى ، بوصفها شيئا ثابتا) ان يساعدا فى الابقاء على الحواجز القومية وترسيخها ، وفى تقويــة العصبية القومية ، لان لوحة الواقع الفعليــة تتبدى آنذاك تجليات لـ«الروح القومية» ، وفــى احسن الاحوال — لسمات السيكولوجية القومية .

واذا كان تذويب قانونيات اللغة فى قانونيات الفكــر يتناقض تناقضا صارخا مع حقيقة وجود لغات مختلفة فى ظل وجود منطق انسانى عام واحد ، فان تبديل قوانين الفكــر بقوانين اللغة يؤدى الى القول بتعذر عكس العالم عكســا احادى المدلول بواسطة لغات مختلفة . وفى هذه الحالة تبدو التراجم من لغة الى أخرى أمــرا متعذرا . ويحل عندئذ عدم تفاهم مطبق بين الشعوب . ومن وجهة نظر الوضعيين الجدد لا يبدو هذا كله عبثا وهراء . فأنصار الفلسفة اللغوية منهم يبنون «عدم تفاهــم الشعوب» على المطابقة بين الكلمــة

والمفهوم ، وعلى القول بانه لا يوجد فى الواقع الا ما هو متضمن فى اللغة . ولكن ، كما نوهنا أعلاه ، ليس بين الكلمة والمفهوم تطابق ، وانما هناك توافق . ويقوم الفارق بينهما فى أن المفهوم ، كونه انعكاسا للواقع ، ذو معنى (مدلول) واحد لدى كافة الشعوب ، فى حين أن الكلمة ، التى تدل على هذا المفهوم ، تلفظ أو تكتب على انحاء مختلفة لدى مختلف الشعوب . والكلمة ، خلافا للمفهوم ، يمكن دراستها وتفسيرها فقط فى المنظومة الصوتية والنحوية للغة القومية المعنية . أما المفهوم ، برغم ارتباطه باللغة ، فله - من حيث المضمون - واقع موضوعى ، ويُدرس فى عملية المعرفة ، ويكون ، بالطبع ، أمميا ، انسانيا .

ان الخصوصيات القومية للغة تتجلى على أرضية الواقع بفضل التكاملية اللغوية . ويقدم الفلكلور والادب أمثلة جلية على تعدد مدلولات اللغات الحية ، على غنى الوانها فى تصوير الواقع ، والتعبير عن المشاعر . فقط بفضل هذه الصفات تغدو اللغة المحكية سفرا تاريخيا للشعب ، وصيغة للتعبير عن حياتها ومشاعرها وافكارها وآمالها ورغباتها وتطلعاتها . وبواسطة اللغة الحية لا ينقل الانسان الى الآخر شيئا ما فحسب ، بل ويؤثر ، على نحو ما ، على مشاعر وارادة السامع والقارئ . ومن هنا تزداد صعوبات الترجمة الدقيقة الامينة . فتنتصب ضرورة الاخذ بالحسبان حقيقة أنه بين العبارات الكلامية هناك - الى جانب المفاهيم والمشاعر والتصورات العامة لكافة البشر من كل الأمم - ما هو وليد خصوصيات الوسط الطبيعى والقومى والاجتماعى الطبقى لهذا الشعب أو ذاك ؛ هناك ، بالتالى بعض التصورات الاضافية المتفاوتة فى مجازيتها . وأحيانا يزداد دور هذه الأخيرة بحيث تتحول من مصدر مساعد للمعلومات عن الظواهر المدروسة الى مصدر أساسى . وعندئذ يبدأ الجدال عما اذا كان بالامكان ترجمة الادب بكل خصوصياته القومية . وينبغى القول أن الكثير من الاخصائيين فى ميدان اللغة والادب لا يسلمون الا بامكانية اعادة العرض (الانشاء) ، لا الترجمة الدقيقة الامينة . ومع

ذلك فالحق الى جانب اولئك الذين يقولون بامكانية الترجمة الدقيقة الامينة لأى أدب .

وبهذا الصدد كتب اللغوى الفرنسى المعروف فاندرييه يقول : «لا شك فى أن كل ما يمكن قوله بلغة ما يمكن قوله بأى لغة أخرى . . . فلا تظهر الفوارق الا فى بنية الصيغ ومدلولاتها الاضافية» * . والخصوصية القومية يمكن نقلها الى وعى ومشاعر القارئ الاجنبى . وتعود هذه الامكانية الى أن ما هو عام ليس المفاهيم وحدها ، بل وكل ما هو رئيسى فى المشاعر والادراكات والتصورات والانفعالات العاطفية لدى ابناء كافة القوميات . ولكى يؤثر العمل الفنى على القارئ الاجنبى تأثيرا مكافئا له لدى القارئ بلغة المؤلف الاصلية ينبغى على المترجم الاستعادة الدقيقة لمختلف وسائط الأصل النحوية والنبراتية ، لمختلف العناصر التعبيرية لمنظومته اللغوية من زاوية مضمونها العاطفى . وعندئذ يمكن فعلا نقل كل طيف المشاعر ، والخصوصية القومية للمدلولات اللغوية للكلمات والعبارات والاصطلاحات الخاصة ، مجازها واستعاراتها . وعليه فان المهمة تقوم فى اعداد كوادر من المترجمين ذوى الثقافة الرفيعة .

ولكن امكانية ترجمة أى نص أدبى لا تعنى تحققها العملى ، أو كونها ضرورية دوما وأبدا . فان ابناء شعوب وأمم عديدة يطلعون ، بصورة اساسية ، على الادب العالمى عبر التراجم الى لغة مشتركة بين عدة قوميات (أو عالمية) . بيد أن التأكيد على امكانية القيام بتراجم دقيقة امينة من لغة الى أخرى يهمنا هنا من الناحية المبدئية . فهو دليل آخر على أنه ليست المفاهيم وحدها ، بل ومشاعر الناس من كافة القوميات ، انسانية عامة ، ويمكن نقلها ، بكل خصوصيتها ، الى أية لغة أخرى .

ان ما درسناه اعلاه من جوانب خاصة بظهور اللغة وماهيتها ووظيفتها يبين ، بحد ذاته ، ان اللغة مشروطة بالمجتمع . ولذا لا يجوز رد علم اللغة الى وصف بنى

---

* Vendryes S. La comparaison linguistique. Bull. de Société de linguistique de Paris, 1945, p. 16-17.

اللغات ، كما يفعل البنيويون . فلا يمكن فهم اللغة القومية الاّ فى ارتباطها الوثيق بتاريخ المجتمع ، بتاريخ الامة . فحتى التغيرات فى الصوتيات والمفردات والاشتقاقات والمورفولوجيا والنحو والاسلوب انما تستدعيها ظروف خارجية ، اجتماعية . ومن هنا يتضح تهافت نظرية «النقاوة اللغوية» ، التى تستند الى فهم خاطئ للاصالة القومية ، وصارت احد العوائق على طريق الاغتناء اللغوى المتبادل بين اللغات .

وعليه ، فان حل كافة قضايا اللغة ، وضمنا موقف الطبقات من اللغات القومية ، يرتبط بمشكلة «المجتمع واللغة» .

صحيح ان اللغة غير طبقية بطبيعتها ، ولكن عدم طبقيتها لا يستبعد الموقف الطبقى منها . فانتشار نفوذ اللغة القومية كان يعنى بالنسبة للبرجوازية تعزيز سلطتها ؛ ومن هنا يأتى موقف البرجوازية القومى المتعصب من اللغة . أما البروليتاريا ، الكادحون ، فيحبون لغتهم ويقدرونها بدون عصبية قومية ، بدون انتقاص من قيمة اللغات الاخرى . والانتلجنسيا ، هى الاخرى ، معنية بترويج لغتها القومية . وفى ظروف الرأسمالية تحتد المنافسة بين اللغات . وينشأ هذا ، بصورة رئيسية ، من جراء الاجحاف بحق اللغات القومية للأمم المضطهدة ، من جراء تجاهل اعمال حتى العباقرة من رجالات ثقافتها ، فلا تترجم الى لغات الامم الكبيرة .

وليس من النادر أن تستخدم الامبريالية الشوفينية انتلجنسيا بلدها لأغراضها الخاصة ، فتفسدها بالوعود بتوسيع ميدان استخدام لغة الدولة-المتروبول بعد ترسيخ مواقعها فى المستعمرات . ذلك ما فعله المستعمرون فى الماضى ، وما يفعله المستعمرون الجدد اليوم .

وفى ظل الرأسمالية الناضجة يجرى صراع بين نزعتين . فمن ناحية ، تتطلب مصالح تقارب الشعوب الاقتصادى والثقافى ابراز لغات ، تكون مشتركة بين عدة أمم أو تكون عالمية ؛ ومن جهة اخرى ، فان اضطهاد بعض الامم لغيرها يعزز النزعات اللامركزية ، ويشحذ العزيمة على الدفاع عن

الاستقلالية فى كل مجال ، وفى ميدان اللغة ضمنا . وفى الدول البرجوازية المتعددة القوميات تقابل الشعوب بحدة خاصة ادخال لغة حكومية عامة ، تكون ، عادة ، لغة الأمة المضطهدة . ورغم أن الاضطهاد الاجتماعى فى الدول الرأسمالية يتم حتى فى ظروف انتشار اللغة القومية ، فان اللغة الاجنبية على شفاه الموظف أو الضابط أو القاضى تجعل السيطرة القومية بالغة الجلاء وأشد ايلاما للنفس .

ان السياسة اللغوية جزء من السياسة القومية ، ولذا لا يمكن لها ، فى المجتمع الطبقى ، أن تكون غير طبقية .

وعليه ، **فان اللغة اجتماعية ، سواء بمنشئها أم بتطورها أم بوظيفتها** ، ولا تولد اللغات القومية عقليات قومية متميزة . فاللغة القومية لا تغدو عزيزة على ابناء جماعة معينة الا حين ترتبط ارتباطا وثيقا بمجمل حياتها الروحية . ولذا فان الماركسية اللينينية ، اذ ترفض النظريات اللاعلمية حول الارتباط الجوهرى بين اللغة وبين «السيكولوجية القومية الخاصة» ، تقف ، فى الوقت نفسه ، ضد أى انتقاص من شأن اللغات القومية ، وتدعو الى الحرص عليها ، وتنادى بالمساواة بينها ، وبتوفير كافة الظروف الملائمة لتطورها ولاغتنائها المتبادل . **فقط فى ظل الاشتراكية يتم ضمان المساواة التامة بين اللغات القومية وتطورها الحر اللامحدود .**

السمات القومية للتكوين النفسى

تتشكل نفسية الانسان وتتطور فى مجرى تفاعله مع الناس الآخرين ومع العالم المحيط به ، وذلك على اساس طبقى .

ان كل ميدان من وجود الانسان يترك بصماته على نفسيته ، فتكتسب سمات متنوعة ، تؤثر تأثيرا فعالا على نشاطه الحيوى ، وثمة اهمية كبيرة للسمات القومية لنفسية البشر ، التى تتجلى فى خصوصيات طابعهم وعاداتهم واذواقهم وتقاليدهم . وان اخذ هذه السمات بالاعتبار من قبل الاحزاب الشيوعية الحاكمة لامر ضرورى من اجل رسم وتنفيذ سياسة علمية فى المسألة القومية ، ومن أجل ضمان الصداقة والتعاون والازدهار والتقارب بين شعوب مختلف القوميات فى ظل الاشتراكية .

ومن العوائق ، التى تنتصب على هذا الطريق ، تأتى محاولات طرح سمات التكوين النفسى القومية على انها نفسية قومية متميزة ، واستخدام ذلك بهدف تمتين «حواجز عدم التفاهم» بين الشعوب .

١ ـ نقد النظريات السيكولوجية فى الامة

ان النظريات السيكولوجية فى الامة ، فى الماضى والحاضر على السواء ، شكلت ، وتشكل ، ارضية صالحة للعصبية القومية والشوفينية والعنصرية . وقبل الشروع بتحليل الجذور الاجتماعية والمعرفية لهذه النظريات ينبغى التوقف ، ولو بايجاز بالغ ، عند بعض مصادرها النظرية الاساسية .

كانت السمات القومية لنفسية البشر ، المشروطة

بخصوصية البيئة والعلاقات القومية ، تعتبر ، فى الفلسفة والسوسيولوجيا والسيكولوجيا ما قبل الماركسية ، نفسية قومية متميزة ، وكانت تنسب الى كل شعب نفسية ، او روح ، خاصة به وحده .

وكان المثاليون ، ومعهم ماديو ما قبل الماركسية والتنويريون ، يسحبون فهمهم الخاطئ للنفسية البشرية على سمات سيكولوجية شعوب كاملة . ومن ذلك ان الفيلسوف الفرنسى البارز فى عصر التنوير ، شارل مونتسكيو ، وهو احد رواد الاتجاه الجغرافى فى علم الاجتماع ، قد استخدم مفهوم «روح الشعب» ، وجعله رهنا بالوسط الجغرافى ، ولكن تفسيرات ملامح الشعب الاخلاقية ، طابعه ونظامه الاجتماعى ، بالمناخ والتربة ومساحة الاراضى كانت ، عنده ، مادية بالشكل فقط . فقد كان يعتبر تأثير الوسط الخارجى مجرد تأثير سلبى ، بدون توسط نشاط البشر الفعال .

ولدى الفيلسوف الالمانى هيغل تتبدى «روح الشعب» فى صورة مثالية تماما . فهو يربط «روح الشعب» وخصوصيتها القومية بالتفاوت فى الظروف الجغرافية لوجود الناس . ولكن بما ان الطبيعة ، عند هيغل ، «روح مغرّبة» ، فان التجليات المختلفة للروح لا تكون ، فى حقيقة الامر ، نتاجا للطبيعة ، بل نتاجا لـ«الفكرة المطلقة» الكونية . «فالروح الموجودة فى ذاتها ومن اجل ذاتها ليست مجرد حصيلة للطبيعة ، ولكنها حصيلة ذاتها حقا ، فهى تولد ذاتها من المقدمات التى تخلقها لنفسها» * . ان النفس ، عند هيغل ، «**جوهر** ، الاساس المطلق لكل تميز للروح ولكل تفرع لها» * * . وبهذا الاساس يفسر هيغل «**الفوارق الروحية العرقية** للجنس البشرى ، ومعها الفوارق بين الارواح القومية» * * * . وهو يطرح مهمة «النظر فى الطبع القومى فقط بمقدار ما ينطوى هذا الطبع على الجنين الذى يتطور منه

---

* ج . هيغل . المؤلفات . موسكو ، ١٩٥٦ ، المجلد ٣ ، ص ٣٩ .

* * المصدر السابق ، ص ٥٧ .

* * * المصدر السابق ، ص ٦٣ .

تاريخ الامم» * . وينسب هيغل مواصفات «الارواح المحلية او القومية» الى تاريخ البشر الطبيعي ، جزئيا ، والى فلسفة التاريخ العالمي ، جزئيا .

ويبسط هيغل تاريخ البشر الطبيعي في مؤلف «فلسفة الروح» ، في قسم «الانتروبولوجيا» ، التي هي عنده مبحث «النفس» ، وهو يفسر مجمل تنوع «الارواح القومية» بفعل هذه «النفس» . وفي «فلسفة التاريخ» يعرض هيغل فعل «النفس الكونية» على نحو اكثر غيبية وصوفية ، فهو يستخلص منه «القيمة التاريخية العالمية للشعوب» . وتبعا لفلسفة هيغل المثالية الموضوعية فان «روح الشعب» عامة لا تتحدد بأي شيء آخر ، وانما توجد موضوعيا ، ككائن له قوى رفيعة ، يرسم مصير الشعوب ورسالتها . والمبدأ الفعال في الشعب هو «روحه ، التي تخلق من ذاتها العالم الواقعي العياني ، والتي تتثبت وتوجد ، في الحقبة المعنية ، في ديانة الشعب وطقوسه وعاداته وتنظيمه الحكومي وقوانينه السياسية ، في كافة مؤسساته وافعاله واعماله . ذلك هو جوهر الشعب ، ذلك هو هذا الشعب» * * . وفضلا عن ذلك فان هيغل يعتبر ان توزع الكرة الارضية الى اقسام معمورة يتوافق مع التوزع الى اعراق وما لها من «طبائع نفسية» مختلفة .

وفي «فلسفة التاريخ» الهيغلية تطورت النظرية «المركزية الاوروبية» الرجعية ، التي ترى «ان التاريخ العالمي يتوجه من الشرق الى الغرب ، فالغرب هو ، بلا شك ، نهاية التاريخ العالمي ، وآسيا - بدايته» * * * . وهنا تصور مبادىء الارواح القومية مجرد جوانب من الروح الكونية العامة الواحدة . وهي متواصلة فيما بينها ، ولكن لكل روح للشعب قدراتها المحدودة ، رسالتها ، تنجزها لتسلم المبادرة لشعب آخر . ولا يسلم هيغل بالتطور المتوازي للشعوب ،

---

* المصدر السابق ، ص ٧٦ .

* * ج . هيغل . المؤلفات . موسكو ، ١٩٣٥ ، المجلد ٨ ، ص ٧١ .

* * * المصدر السابق ، ص ٩٨ .

باغتنائها المتبادل . فهو يرتب الشعوب على سلم الروح العالمية ، بحيث لا يسمح لاى منها الارتفاع فوق الدرجة المعنية . وهكذا يتبدى الشعب ، عنده ، وكأنه يعيش حياة الفرد السائر نحو الشيخوخة ، الراضى بانه كذلك ، حتى والسعيد بذلك . وينيط هيغل بالشعب الالمانى دورا خاصا ، فيعتبره «شعبا تاريخيا ، وأمة عليا» ، تتربع على قمة تطور التاريخ .

اما الروح العالمية فانها ، عند هيغل ، لا تتطور بحد ذاتها ابعد من رسالتها ، والا لكان ذلك بمثابة بلوغ الشعب لرغبة شيء ما جديد ، «ولكان ذلك تصورا ارفع واعم عنه ذاته ، مما يعنى انه مضى الى ابعد من مبدئه» * . وان هيغل ، اذ يجعل الروح العالمية مسئولة عن كافة الفوارق والتعقيدات فى حياة الشعوب والعلاقات فيما بينها ، انما يعفى نفسه من ضرورة القيام بالابحاث العيانية والاجابة على هذه الاسئلة . وهو يسبغ على الشعوب تقييمات جد سطحية ، ذاتية ، حتى وعنصرية احيانا .

وقد صارت الفلسفة المثالية ، وخاصة الالمانية منها ، المعين النظرى للاتنوسيكولوجيا البرجوازية . فعلى ارضية مذهب ليبنيتز فى المونادات وقبلية كانط ومذهب هيغل فى الروح العالمية ، وما ساد فى القرن الثامن عشر من نزعة لتصوير النفس مبدأ فعالا ، ديناميا ، ولتطبيق لوحة فهم الوعى ، التى رسمها الفيلسوف الالمانى المثالى هربرت ، على التطور الذهنى لشعوب كاملة ، نمت وترعرعت اولى النظريات السيكولوجية البرجوازية حول الامة .

لقيت الاتنوسيكولوجيا البرجوازية تطويرها النشيط على ايدى اللغوى الالمانى شتينتال ومواطنه الفيلسوف المثالى لاتساروس ، وذلك فى المجلة التى كانا يصدرانها — «سيكولوجية الشعوب وفقه اللغة» (١٨٦٠-١٨٩٠) . وقد استندا الى نظرية هربرت السيكولوجية عن الوعى ، والى فكرته حول النفسية اللاشعورية (التى لعبت دورا ملحوظا فى الاعداد للفرويدية) ، ومذهبه فى النفس خاصة .

* المصدر السابق ، ص ٧٢ .

وقد اولى شتينتال ولاتساروس عناية خاصة لموضوعة هربرت حول التصورات كافعال للنفس ، تظهر قبل استيقاظ وعى الذات لدى الانسان . وقد سحبا هذه الموضوعة الى ميدان الاتنوسيكولوجيا ، وحولاها الى أحد فروع السيكولوجيا المثالية الاجتماعية والتاريخية الثقافية .

انطلقت الاتنوسيكولوجيا من «روح الشعب» باعتبارها جوهرا خفيا . وهذا الجوهر يبقى ثابتا برغم كافة التحولات ، وهو الذى يضمن وحدة الطبع القومى برغم كل الفوارق الفردية . «فلكل شعب عقله وارادته ، احساسه وخياله . وهذه تنعكس فى حياته وديانته وشعره» * . وكل ظواهر الحياة الاجتماعية صيغ متميزة من «فيض الروح الشعبية» . اما تطور الروح فيتوقف على عامل باطنى فيها * * . وهكذا تدور الاتنوسيكولوجيا البرجوازية فى حلقة مفرغة . فهى تحاول تفسير مجهول بمجهول آخر ، ناهيك عن طابعه اللاعقلانى الصرف .

وثمة سوسيولوجيون برجوازيون يسعون لتصوير ماهية الامة وحدة مستقرة لا طبقية بين الناس ، تقوم على اساس طبيعى . فالبرجوازية غير معنية بصياغة نظرية علمية فى الامة ، لان هذه النظرية تكشف عن الاسباب الحقيقية للظواهر القومية ، عن خلفيتها الطبقية . ولذا يحاول منظرو الامبريالية اسباغ لبوس صوفية على الامة . فبعضهم يعطى تفسيرا مثاليا صريحا ، دينيا ، لماهية الامة . ومن ذلك قول الفيلسوف الروسى الصوفى برديايف : «الامة لا تحدد عقلانيا . ومن هنا تشبه فكرة الامة فكرة الكنيسة» . وفى معرض الحديث عن الامة الروسية تحديدا يذهب برديايف الى «ان الفكرة القومية الروسية تغذت بمشاعر الاختيار الالهى لروسيا» * * * . ويرى فلاسفة برجوازيون آخرون ان الشعوب تختلف فيما بينها من حيث البيولوجيا والسيكولوجيا . وفى هذا الاطار يقول

---

* ه . شتينتال وم . لاتساروس ، افكار حول السيكولوجية الشعبية . سان بطرسبرغ ، ١٨٦٥ ، ص ٩ .

* * المصدر السابق ، ص ١١ .

* * * ن . برديايف . مصير روسيا . موسكو ، ١٩١٨ ، ص ١ .

الانتروبولوجي والسوسيولوجي الفرنسي ليبون «ان لكل شعب قوامه النفسي ، **الثابت والمستقر ثبات واستقرار** سماته **الاناتومية** ، ومن هذا القوام بالذات تنبع مشاعره وافكاره ومؤسساته ومعتقداته وفنونه» * . وهو لا يعطي جوابا واضحا على السؤال : ومن اين جاء هذا القوام النفسي المتميز ؟

ولا يندر ان يتمادى الفلاسفة البرجوازيون في محاكماتهم الغامضة المبهمة حول كون القومية جوهرا ماديا خاصا ، له قدرة خفية على توليد وحدة الطبع القومي ، وبما ان هذه القدرة الخفية لا تتجلى ، لا يبقى الا الايمان بوجودها . وعلى العموم فان عددا لا بأس به من الباحثين البرجوازيين يصرحون علنا ان الامة ماهية غير مدركة ، «شيء في ذاته» .

ان قوميي كافة البلدان ، اذ يتجاهلون العوامل الموضوعية المحددة للامة ، يقبلون دوما ، وبطيبة خاطر ، على المحاكمات القائلة بـ«روح قومية» خاصة بشعوبهم . وفي روسيا ، مثلا ، جاء في بيان القيصر نيكولاي بمناسبة انتفاضة الديسمبريين * * ، ان «العصيان» ليس من «سمات» الشعب الروسي المحب للقيصر . وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر صاغ المفكرون الرجعيون في روسيا نظرية «الشعبية الرسمية» ، التي تقول ان الشعب الروسي ديني بطبيعته ، ومخلص للارثوذكسية ، وامين للقيصر ، فيرى فيه خليفة الله على الارض ، ويرى في الاقطاعي اباه الحنون . . . وقد اعتاد على القنانة ، وهو راض تماما بها . وانبرى ايديولوجيو «الشعبية الرسمية» لاثبات وجود «الروح الروسية» ، المتميزة بمبادىء الارثوذكسية والقيصرية والشعبية . وكانوا يزعمون ان «الروح الروسية» (الطبع الروسي) هذه قد ضمنت قيام روسيا الاقطاعية «المستقرة» و«المطمئنة» ، على النقيض من الغرب المتفسخ والعاصف ، وعن «الروح السلافية»

---

* غ . ليبون . سيكولوجية الشعوب . سان بطرسبرغ ، ١٨٩٦ ، ص ٥ .

* * **الديسمبريون** – جماعة ثورية من النبلاء الروس ، قاموا في ديسمبر – كانون الاول ١٨٢٥ بانتفاضة ضد القيصرية والقنانة .

و«الطبع السلافي» الخاص والمتميز كثيرا ما تحدث السلافيانوفيليون * . فقد طرح دانيليفسكي ، زعيم السلافيانوفيلية المتأخرة ، نظرية «الانماط الثقافية التاريخية» الثابتة للشعوب ، وعارض بين الشعوب السلافية وشعوب اوروبا الغربية . وبالمقابل ، يبرهن ايديولوجيو الغرب البرجوازيون على تفوق الاوروبيين . ومن ذلك قول هربرت سبنسر ، الممثل البارز للسيكولوجيا الاقترانية اواسط القرن التاسع عشر ، انه تبعا لقانون الوراثة تكون ورثة الاوروبي من الدماغ ما بين ٢٠ الى ٣٠ بوصة مكعبة ، اى اكبر منه لدى ورثة غير الاوروبي .

وكتب الفيلسوف المثالي البرجوازي الفرنسي فوليه الكثير عن التفوق الروحي للشعوب الاوروبية ، وخاصة الشعب الفرنسي ، على الشعوب الاخرى . وزعم فوليه ، الذي روج لفكرة «تعاون» العمل والرأسمال ، ان الانشطار الاساسي للبشرية يتم حسب الامم ، وانه يوجد حتى «منطق قومي خاص» * * . وهو يرى انه في حين تكون بعض الشعوب الاوروبية (لا جميعها) مؤهلة للابداع ، فان الشعوب الاسيوية لا تملك الا المقدرة على الانتفاع بمنجزات الحضارة وتمثلها . وثمة باحثون برجوازيون كثيرون ، ينظرون الى الامة من زاوية عنصرية ، ويتبنون (ومعهم العنصريون «العلميون» اليوم) موضوعة ليبون القائلة «ان الشيء الاكثر ثباتا في كل عرق هو الاسس الوراثية لافكاره» * * * .

ان تحويل الواقع التاريخي الى سلسلة من التشكلات الروحية المنفصلة امر مميز لفلسفة اشبنغلر مثلا . ففي مؤلف «غروب اوروبا» يطور اشبنغلر نظرية «الحضارات

* **السلافيانوفيليون** ـ ممثلو اتجاه في الفكر الروسي بالقرن التاسع عشر ، قالوا بأن لروسيا طريقها الخاص في التطور ، الذي يختلف جذريا عنه في اوروبا الغربية . وقد بالغ هؤلاء في تقييم النظام الاجتماعي بروسيا القديمة ، وخاصة تقييم المشاعية الفلاحية ، وطوروا فلسفة مثالية دينية .

* * أ . فوليه . عوامل الطبع القومي ، اوديسا ، ١٩٠٦ ، ص ١٠ .

* * * غ . ليبون . سيكولوجية الشعوب ، ص ١٥٣ .

المحلية» المغلقة ، التى يزعم انها ترد الى السمات النفسية الاصيلة والخصوصيات الذهنية العميقة لمختلف الشعوب .

ثم ان النظريات السيكولوجية فى الامة ، التى راجت فى الفلسفة والسوسيولوجيا البرجوازيتين فى القرن التاسع عشر ، قد انعكست فى «الماركسية النمساوية» * . فكان كارل رينير (واسمه المستعار ر . شبرينغر) ، احد منظرى «الماركسية النمساوية» ، يرى «ان الامة اتحاد لاشخاص ، يفكرون على نحو واحد ويتحدثون على نحو واحد» ** . وقام منظر آخر من منظرى «الماركسية النمساوية» ، هو اوتو باوير ، باكبر محاولة للتأسيس السيكولوجى لنظرية الامة ، وطرح على هذه الارضية ، بالاشتراك مع ك . رينير النظرية الانتهازية حول «الاستقلال الثقافى القومى» . وقد اهتم لينين كبير الاهتمام بنقد هذه النظرية ، فقد كانت تطرح بوصفها نظرية ماركسية ، فى حين كانت ، فى حقيقة الامر ، تعبيرا مكثفا عن التأويلات المثالية والرجعية لماهية الامة . يذهب باوير الى «ان الامة هى **كل جملة الناس ، المرتبطين بوحدة الطبع وعلى ارضية وحدة المصير** . على ارضية وحدة المصير – هذا المؤشر يميز الجماعة الثقافية القومية عن الجماعات الامية ، كالمهنة والطبقة والشعب المؤلف للدولة ، وباختصار عن كل مثل هذه الجماعات ، التى تقوم على تجانس المصير ، لا على وحدته» *** .

---

* **الماركسية النمساوية** – تيار ظهر فى القرن العشرين فى اوساط الاشتراكية الديمقراطية النمساوية بتأثير الاعمال النظرية والنشاط السياسى لزعمائها وايديولوجييها ك . رينير وأ . باوير وم . ادلر ور . غيلفيردينغ وف . أدلر وغيرهم . وفى الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية كانت الماركسية النمساوية ككل تتميز بالكثير من السمات الاصلاحية للاشتراكية الديمقراطية الاوروبية . وبعد الحرب العالمية الثانية تخلت القيادة اليمينية للحزب الاشتراكى النمساوى تخليا نهائيا عن الماركسية .

** ر . شبرينغر . المشكلة القومية . سان بطرسبرغ ، ١٩٠٩ ، ص ٤٣ .

*** أ . باوير . المسألة القومية والاشتراكية الديمقراطية . سان بطرسبرغ ، ١٩٠٩ ، ص ١٣٩ .

ولكن فى هذا التعريف لم تبـــرز ، فى المقام الاول ، خصوصية الامة بالمقارنة مع القبيلة والشعـــب ، بحيث ان بالامكان نسبة ظهور الامم الى اقدم العصور . ثم ان باوير ، بتأكيده على ان البروليتاريا والبرجوازية فـــى الامة واحدة تجمعهما وحدة الطبع والثقافــــة والمصير ، اما بروليتاريا البلدان المختلفة فلا يجمعها الا تجانس المصير ، انمـا كان يبرر ويؤيد التعاون الطبقى داخل الامة الواحدة ، ومعـــه العصبية القومية والشوفينية حيـــال الامم الاخرى ، ولهذا الغرض استخلص من التعريف السيكولوجى الثقافى للامة الى نظرية «الابيرسيبتيا القومية» ، اى القول بلون خاص مـــن الادراك القومى ، من وعى العالم المحيط .

ان «الابيرسيبتيا» فى الفهم المادى لها تعنى الادراك الذى يتوقف على تجربة الانسان الحياتيـــة السالفة وعلى المضمون العام لحياته النفسية ، العائدة الى تأثيـــر العالم الخارجى عليه . اما باوير فيفهم الابيرسيبتيا فهما مثاليا ، قريبـا الى مونادالوجيا ليبنيتـــز والمذهب الكانطى فى الابيرسيبتيـا الترنسندنتالية والاتنوسيكولوجيا البرجوازية . فمن المعروف ان مونادات ليبنيتز هى جواهر روحية ، لا تتغير بالتأثيرات الخارجية ، «وليس لها نوافذ ، يمكن ان يدخلها عبرهـا شىء الى هناك او يخرج شىء من هناك» . ولا تمارس المونادات اى تأثير على العالم الداخلى احداها للاخرى ، ولا ترتبط بصلـة سببية فيما بينها ؛ فتوافق افعالها ينظم بالتنسيق المسبق ، الذى يتوقف على الموناذا العليا – الاله المطلق . ولذا فـان ليبنيتز ، الذى ينفى التجربة (الخبرة) الحسيـــة ، قد عارض المذهب الحسى للفيلسوف الانكليزى جـــون لوك ، الذى يشبه نفسية الانسان بلوحة بيضاء ، تأتـــى التجربة فتخط الكتابات عليها . فكان ليبنيتز يرى ان النفس تنطوى ، فى الاصل ، عـــلى معان وحقائق ، على ميـــول واستعدادات واعتيادات . تلك هـــى «بذور السرمـد» ، «الشرارات» ، «النيران الحية ، ومضات النور ، الكامنة فى داخلنا ، والتى تتكشف عند الالتقاء بالحواس ، شأن الشرارات التى تظهر فى

بندقية الصيد» * . وكـــان ليبنيتز ، كمثالى موضوعى ، يفترض ان «للعلاقـــات ، شأن الحقائق ، وجودها الواقعى ، الذى يتوقف على الروح ، ولكن ليس الروح البشرية ، فهناك عقل اعلى ، يحدد الارواح كلها فى كل زمان» * * .

ولدعم القول بادراك قومى خاص واصيل استخدمت ايضا الصيغ والمقولات القبلية الكانطية ، التى لا تختلف الا قليـلا عن الحقائق الازلية المحددة مسبقا عند ليبنيتز او «الافكار الغريزية» لدى ديكارت . فقد كـــان كانط يرى ان الوحدة الاصلية لكافة التصورات والمفاهيم والاحكام ، ولكافة اشكال التجربة ، تأتى من «الوحدة الترنسندنتاليـة للابيرسيبتيا» ، وانه فى صلب كل ضرورة يقوم دوما شرط ترنسندنتالى . ان «الابيرسيبتيا الترنسندنتالية» ، عند كانط ، هـــى الوعى الخالص الاولى الثابت ، الذى يقوم فى صلب العقل البحـت (الخالص) . ويسمى كانط مادة الظاهرة مـــا فيها من جانب ، يقابل الاحاسيس ، وصورة الظاهرة – ما بفضله ينتظم تنوع الظاهرة على نحو معين ، ليقول : «صحيح ان مادة كافة الظواهر لا تعطى لنا الا بعديا a posteriori ولكـــن صورتها يجب ان توجد كلية ، وبصورة جاهزة ، فـــى نفسنا على نحو قبلى a priori » * * * .

ان وحدة تصورات الناس ومفاهيمهم تأتى ، عند كانط ، من وعى الذات القبلى . «ولا يمكن لوعى الذات هذا ان يترافق بأى تصور آخر ، ولذا فانى اسميه ايضا **ابيرسيبتيا اولية** ، واسمى وحدته ايضا وحدة ترنسندنتالية لوعى الذات ، بحيث ادل على امكانية المعرفة القبلية عـــلى اساس هذه الوحدة ، وبالفعل ، فانه لم يكن للتصورات المتنوعة ، المعطاة فـــى

---

* ج . ف . ليبنيتز . محاولات جديدة فى العقل الانسانى . موسكو – لينينغراد ، ١٩٣٦ ص ٤٦ .

* * المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

* * * ا . كانط . المؤلفات . موسكو ، ١٩٦٤ ، المجلـد ٣ ، ص ١٢٨ .

تأمل ما ، ان تكون كلها معا تصوراتى **انا** لو لم تكن منتمية كلها الى وعى ذات واحد» * .

وقد اخذ باوير علنا بالافكار الكانطية وطور فهم الابيرسيبتيا عند ليبنيتز وكانط من منظور الاتنوسيكولوجيا . ولكن باوير يتظاهر وكأنه يذلل ثنوية كانط ويناضل ضد المثالية والروحانية نضال نصير للمادية الفلسفية الماركسية . ومن ذلك قوله انه منذ ظهور مؤلف كانط «نقد العقل البحت» ، «لا نعرف الا الظواهر النفسية المعطاة بالتجربة ، فنحاول ادراكها فى تبعيتها المتبادلة» ** . ولكنه يفهم التجربة فهما مثاليا ، ويحاول استبدال دراسة الاسس المادية لتشكل الامة بدراسة العلاقات الوظيفية بين الظواهر النفسية .

يستند باوير فقط الى التوارث ، الى «اكتشاف» البروتوبلازما الجنينية ، التى لها ، على حد زعمه ، «قدرة خفية على ان تولد من ذاتها افرادا ، يتميزون بخصوصية معينة» *** ، ويرى فى هذا مادية قومية ، ينصبها فوق الروحانية القومية ، وان كان المقصود هو فقط استبدال قوة خفية بأخرى مثلها . فهو يذهب الى انه عبر الوراثة «تحدد مصائر الاسلاف المتغيرة طابع كل اخلافهم ، فيرتبط هؤلاء بوحدة الطبع ، بالامة» **** . وحتى قدرة هذه الامة (الشعب) او تلك على النضال تفسرها «المادية القومية» لا بالظروف المعاصرة لحياة الامة (الشعب) المعنية ، بل بظروف وجود الاسلاف . «فالصفات الموروثة لدى الامة ما هى الا بقية ماضيها ، تاريخها المتجمد» ***** . وهنا يتجاهل باوير الحقيقة المعروفة للجميع ، وهى انه فى نفس بقعة الارض ، كما فى اليونان وايطاليا مثلا ، تبدلت وتعاقبت

---

* المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

** أ . باوير . المسألة القومية والاشتراكية الديمقراطية ، ص ٩ .

*** المصدر السابق ، ص ١٤ .

**** المصدر السابق ، ص ١٩ .

***** المصدر السابق ، ص ١٢ .

واختلطت قبائل وشعوب جد مختلفة ، ولذا يتعذر الحديث عن خيط مباشر في التوارث .

ويعمم باوير التشابه البدني والروحي على الامة الاسطورية ، التي يزعم انها تتحدر من زوج بشرى واحد . ولكنه يسلم بوجود امم ، يجرى في عروقها دم شعوب مختلفة . وهو يرى أنه في حالات كهذه يرث الاخلاف طبائع العناصر المكونة للامة المعنية ، فالفرنسيون ، مثلا ، ورثوا صفات الغاليين والرومان والجرمانيين . ولكن ماذا يبقى عندئذ من تعين الطابع القومي ؟ للخروج من هذه الصعوبات يلتفت باوير الى ظروف الحياة المعاصرة له ، حيث تبدع الشعوب قيما ثقافية معينة لتورثها من جيل الى آخر .

وهو يشير الى اسلوبين في التوارث ، بواسطتهما تحدد مصائر الاسلاف طبع الاخلاف ، فينوه بوحدة الامة ، الطبيعية والثقافية ، ليقول ان الامة ليست الا وحدة المصير ، الذى يتكون نتيجة نقل : ١ - الموروثات الطبيعية ، ٢ - القيم الثقافية . وبفضل وحدة المصير هذه ، وبفعل آلية الابيرسيبتيا القومية ، فان أي تصور جديد ، اى مضمون ثقافي ، يستوعب ويدرك من قبل كل فرد تبعا لماهيته القومية . ولكل امة «انا روحية» ، تستوعب وتعكس كل ما يحيط بها على نحو فردى ، أصيل ، لا يتكرر . وينسب باوير الى الطبع القومي تكوين (Bestimmtheit) الارادة . «ففي كل فعل معرفي تتجلى الارادة في الاهتمام ، فمن جملة كاملة من الظواهر المعطاة بالتجربة لا يتوقف الاهتمام الا عند بعض منها ، وتغدو هذه ، وحدها ، موضوعا للابيرسيبتيا عنده» * . وحتى طرق البحث العلمي ونتائجها يعتبرها باوير امورا ، تختلف من قومية الى أخرى . ومن هنا يلزم انه ليس بوسع ابن الامة المعنية ان يدرك اليوم اى شيء ادراكا مباشرا وموضوعيا . فكل التجربة الماضية لامته تحوم فوق ادراكه . والامة تقوم بابيرسيبتيا العالم المحيط كله وفقا لنشاط نفسي فعال ، هو ما يشكل «روح» الامة . وهكذا يطبق

---

* المصدر السابق ، ص ١١٣ .

باوير مذهب كانط حول «الابيرسيبتيا الترنسندنتالية» علـــى فهم ماهية الامة والمسألة القومية ، فهو يرى فى الطابـــع القومى ، الذى يتعذر الوقوف عليـــه ، الوحدة المزعومة ، الاصلية وما قبل التجريبية ، لادراك العالم الخارجى والظواهر الاجتماعية لدى هذه الامة او تلك . بعبارة اخـرى ، تنحصر «الابيرسيبتيا القومية» فى بعث «روح قومية» خفية جديدة ، هى التى تسير مجمل تاريخ الامة ، وتبقى ثابتة برغم كـــل تغيرات هذه الامة .

هذه «الروح القومية» الخفية هى ما يطرحه باوير على انه الطبع القومى الذى لا يتكرر . وهو يرى ان تطور المجتمع لن يؤدى ابدا الى التقارب بين الامم ، حتى ولا يسلـم بامكانية اى تآلف بينها حتى فى الطور الاعلى من الشيوعية . على العكس ، فان الاشتراكية ، تبعا لنظرية باوير فى الابيرسيبتيـــــا القومية ، «تؤدى الى تمايز مطرد للقوميات فى المجتمـــع الاشتراكى ، الى مزيد من الفعل الحاد بين طبائعها ، الى تفتح اكبر لفرادتها الجماعية» * . فالشيوعية (التى يسميها باويـــر تشكيلا اجتماعيا من المرتبة الاعلى) «سوف تمثل ، بلا شك ، لوحة مبرقشة من الاتحادات القومية والتجمعات الجغرافية» * * .

تلك هى الاستنتاجات الاساسية ، التى يخلص اليها صاحب نظرية «الابيرسيبتيا القومية» . ولدحض هـــذه الاستنتاجات يكفى الالتفات الى ما تكدس حتى الآن مـــن تجربـــة التطور الاشتراكى للامم فى الاتحـــاد السوفييتى وفى باقـــى البلدان الاشتراكية . ونحن ، اذ نتابع تبيان التهافت النظرى والضرر السياسى لنظرية «الابيرسيبتيا القومية» ، ننوه ايضا بان هذه النظرية ، وموضوعاتها الفرعية ، حافلة بالتناقضات . ففـــى محاولة لاثبات وحدة وعى الامة يستند باويـــــر وانصاره الى وحدة اصل افراد الامة . وبما ان وحدة الاصل كانت قائمة فى المجتمع العشائرى فانهم ينظرون الى العشيرة نفسها على انها امة ، ترجع ، بدورها ، الى الجماعـــة الطبيعية . وعندما يبدأ تفسخ الجماعة العشائرية القبلية ، ومن مختلف القبائل تظهر

* المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

* * المصدر السابق ، ص ٥٤٣ .

الشعوب ، ومن ثم الامم ، التى يتعذر استخلاص وحدتها من الاشتراك فى الاصل ، فان التركيــز يتم على وحدة التربية . ولكن هنا تظهر صعوبــة أخرى . ففى المجتمــع الطبقــى التناحرى لا تكون ثمة وحدة حقيقية فى التربية ، لان كل طبقة تتربى ، فى المقام الاول وبصورة رئيسية ، فى ظروف حياتها الخاصة بها ، فيجرى الانشطار فــى الثقافة وفى الاخلاق . ويحاول باوير تذليل هذه الصعوبة بأن يعلن الامة جماعــة ثقافية ، ولا ينسب اليها الا الطبقات السائدة ، فالجماهيــر الشعبية ، فى رأيه ، لا تشارك فى خلق الثقافة ، ولذا فانهـا تشكل مجرد «ارضية للامة ، سوادها» . ولكـن ماذا تعنيه ، فى هذه الحالة ، وحدة الطبــع القومى ، اذا كانت الجماهير الشعبية لا تدخل فى الامة ؟ يرى باوير ان الرأسمالية تشرك البروليتاريا تدريجيا فى الوحدة الثقافية (مع البرجوازية !؟) ، وبالتالى – فى وحدة الطبع القومى .

وعليه فان انصار النظريــة السيكولوجية فى الامــة ينتقلون من تطرف الى آخر ، امــلا فى تسوية التناقضات وتذليلها . ومع ذلك تحتفظ هــذه النظرية بحيوية قوية . فالمبالغة فى قيمة بعض السمات العامة لطابع افراد الامــة تستخدم «لاثبات» الوحدة الروحية لابناء الامة الواحدة بغض النظر عن انتمائهم الطبقى ، وذلك بهدف تصوير الامة مقولة طبيعية ، وبالتالى غير عابرة ، والقول بضرورة التعاون الطبقى لما فيه مصلحة الطبقات الاستغلالية .

وللتستر على مثالية وميتافيزيقية نظريتــه السيكولوجية فى الامة يحاول باوير استخدام العديد من موضوعات ماركس وانجلس . ولكن جوهــر نظريته واستنتاجاتها تفضح هذا التنكر . فان باوير ، الذى بدأ تأسيس آرائه بنقد الروحانية القومية ، قد انتقل ، هو نفسه ، الى مواقعها . وقد شكلت مختلف المذاهــب المثالية فى الفلسفة والاتنوسيكولوجيـا البرجوازيتين الجذور الفكريــة النظرية لنظرية باويــر السيكولوجية فى الامة ، اما جذورها المعرفية فهى تضخيــم بعض السمات العامة فــى نفسية الطبقات المتعادية بالامة الواحدة ، والمبالغة المفرطة فى هذه الوحدة ، وتصويرهـا

المقوم الحاسم للامة . والجذور الاجتماعية لنظرية باوير هى نفس الجذور ، التى تغذى الاشتراكيــة الاصلاحية عامة . ان نظرية باوير السيكولوجية فى الامة مثال كلاسيكى على وحدة النزعة الانتهازية والعصبية القومية .

وقد لخص لينين ، فى نقده لنظرية باوير السيكولوجيــة فى الامة ، هذه النظرية كما يلى :

«أ – نظرية مثالية فى الامة

ب – شعار الثقافة القومية (=شعار برجوازى)

جـ – عصبية قومية خالصة صافية ، مطلقــة ، انتهاء بالاشتراكية

د – النسيان التام للاممية» * .

ان النقد اللينينى للنظرية المثالية ، السيكولوجية فــى الامة هو اليوم اكثر حيويــة والحاحا . ويعود هذا الى ان المنظرين البرجوازيين والانتهازيين المعاصرين ، الذيــن يسعون لتأسيس العصبية القومية وينظرون الى الطبع القومى على انه المقوم الرئيسى ، حتى والوحيــد ، لماهية الامة ، ينطلقون ، على نحو او آخر ، من نظرية باوير السيكولوجية . ومن ذلك ان الباحــث الامريكى لوو ، الذى ينسب النزعة القومية الى الاشتراكية ، يستند مباشرة الى باوير . وهــو يهاجم ايضا الماركسية اللينينية لانهــا تبحث عن اسباب النزاعات القومية فى الظروف المادية لحياة الامم ، وليس فى طابعها ، فى نفسيتها القومية ** .

ويصادف بين الفلاسفة البرجوازيين من لا يستند علانية الى باوير ، ويأخذ كاملا بنظريته السيكولوجية فــى الامة ، وعلى سبيل المثال يكرر باركر عمليا طروحات باوير ، فيقول «ان الامة هى قاعدة مادية ببنيان فوقى روحى» *** . ويشير باركر الى مختلف العوامل المادية والروحية فى تشكل الطبع

---

* لينين . المؤلفات الكاملــة ، المجلــد ٢٤ ، ص ٣٨٧ («موضوعات تقرير حول المسألة القومية») .

** Low A. D. Lenin on the Question on Nationality. N.Y. 1958, p. 30, 60, 118.

*** Barker E. National Character and the Factors in its Formation, p. 2.

القومى ، ليخلص الى القول «ان الامة ليست حقيقة فيزيائية لدم واحد ، وانما هى حقيقة نفسية لتقاليد واحدة» * . وثمة باحثون ، يبرهنون على «ان الطبع القومى هو تكوين الذهن ، الذى يتجلى فى القيم الثقافية : فى الادب والفن والفلسفة» * * . ويكشف باركر عن المغزى الحقيقى لهذه الموضوعات ، حيث يعلق على موضوعة هيغل فى «ان الدستور لا يتطور الا من الروح القومية ومعها» ، فيقول : «هذه حقيقة مطلقة ، واذا كانت حقوق الامة ودستورها تتطور من مشاعر الحق والروح القومية ، فان الطبع القومى ينعكس فى منظومة القوانين والمؤسسات» * * * .

وفى العصر الحاضر لا تتناقص ، بل تتزايد المحاولات الرامية الى وضع تصنيف سيكولوجى للامم ، وتقسيمها تبعا للطبع القومى . وفى معظم الحالات ، كما يشير اصحاب تقرير اليونيسكو ، «صارت دراسة الطبع القومى دراسة للثقافة القومية من وجهة النظر السيكولوجية» * * * * .

ان كافة اتجاهات الاتنوسيكولوجيا البرجوازية تأخذ بالنظرية السيكولوجية فى الامة . وهى تستند الى مختلف تيارات السيكولوجيا الفرويدية والسلوكية وغيرها ، وتسيطر فى الفلسفة والسوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة . وثمة سيكولوجيون برجوازيون يسحبون ، هم انفسهم ، مذهبهم المثالى على فهم سيكولوجية الشعوب . ومن ذلك ان كارل يونغ ، مؤسس أحد اتجاهات السيكولوجيا الاعماقية – «السيكولوجيا التحليلية» ، ذهب الى ان ثمة طبقة عميقة فى النفسية ، هى اللاشعور الجماعى ، الذى يعكس تجربة الاجيال السالفة . وهذه النماذج الاولية ، كما يرى يونغ ، تنطبع فى بنية الاساطير والرموز والفن ، الخ * * * * * .

ان الاتنوسيكولوجيا تستخدم الفرويدية الجديدة على

---

* Ibid., p. 12.

* * Duijker H.C.I., Frijda N.H. National Character and National Stereotipes. Amsterdam, 1960, vol. 1, p. 28.

* * * Barker E. Op. Cit., p. 143.

* * * * Duijker H.C.I., Frijda N.H. Op. Cit. p. 23.

* * * * * ان ابتعاد يونغ عن فرويد فى فهم الليبيدو لم يغير الطابع

نطاق واسع . واذا كانت الفرويدية الكلاسيكية تعتبر القوى البيولوجية البدائية (الليبيدو) المحرك الوحيد لسلوك الانسان ، فان الفرويدية الجديدة ، ممثلة بهورني وفروم وغيرهما من الفلاسفة البرجوازيين ، تلتفت الى العوامل الاجتماعية ، ولكن بما ان الانسان ، فى رأى الفرويديين الجدد ، لا يعيش بانسجام مع المجتمع ، فان سلوكه يكون ، مرةلا اخرى ، تحت سلطة الدينامية اللاشعورية للدوافع . وعلى الارضية الفرويدية ظهر اتنوسيكولوجيون ، امثال بنيديكت ولينتون وميد ، الذين راحوا يستخدمون مفاهيم مدرسة التحليل النفسى فى دراسة طبائع شعوب كاملة ، فينسبون اليها العدوانية ، والنزوع الى العنف ، والكذب ، والتوجس ، الخ ، ويربطون سمات الطبع تلك بخصوصيات ثقافة هذا الشعب او ذاك . ومن ذلك قول الطبيب النفسانى والاتنولوجى الامريكى كاردينر انه بتأثير الوسط غير المادى (الاساطير والمعتقدات والميول المعقلنة) تتشكل «البنية الاساسية للشخصية» ، المشتركة بين كافة افراد الامة المعنية . وهو يرى ان الشعوب المستعمرة تشعر بحكم سماتها السيكولوجية بحاجة مازوخية ان تكون مستعبدة من قبل جماعات اتنية اقوى . ان الاتنوسيكولوجيين ، الآخذين بمبادىء مدرسة التحليل النفسى ، يرتكزون الى النزعات الغرائزية واللاعقلانية فى السيكولوجيا الاجتماعية ، وهى النزعات التى ساعد فرويد ، الى حد ملحوظ ، فى تطويرها . فان فرويد ، الذى لم يتفهم القفزة النوعية من السيكولوجيا الحيوانية الى السيكولوجيا الانسانية ، ينزل بهذه الاخيرة الى مستوى الغرائز البهيمية .

ومضت السلوكية الى ابعد من ذلك فى الانتقاص من دور العقل . ومع ذلك فان بعض الاتنوسيكولوجيين يعملون لان

المثالى الذاتى لرؤيته للنفسية كمنظومة مستقلة مغلقة . وفى اطار هذه المنظومة يقترح يونغ ان يفهم بـ«الليبيدو» اية حاجة ، لا الجنسية فقط . وفى هذه المنظومة تتوضع النماذج الاولية التى تنظم تجربة الاعراق والشعوب .

يكيفوا مع الفهم السيكولوجي لماهية الشعوب وثقافاتها حتى السلوكية – هذه «السيكولوجيا بدون نفسية» ، التى تقول بالسلوك شبه الآلى (الحافز-رد الفعل) . وراح هؤلاء يؤولون على طريقتهم الخاصة موضوعة بعض السلوكيين القائلة انه عن طريق التحكم بالمهيجات الخارجية يمكن «تحضير انسان» يتمتع بالتكوين النفسى المطلوب ، وهم يرون ان السلوك يمثل «تجليا للشخصية احيانا ، فى حين لا يكون فى احيان اخرى الا تأدية للمعايير والقوانين الثقافية» * ، و«ان القيم والعلاقات يمكن ان تنبع من اعماق الشخصية» ** . ثم ان الافراد ، الذين يتمثلون هذه القيم ويعكسونها على نحو واحد ، يشكلون جماعة قومية . اما الامم ذات التوجهات القيموية الاخرى ، والسلوك غير الملائم للامبريالية ، فينبغى ، فى رأى منظرى الامبريالية ، روبتتهم (Robotization) بواسطة الهندسة الوراثية . فتبعا لتوصيات سكينر ، زعيم السلوكية الفعالية الامريكية ، ينبغى «اصلاح «الطبائع القومية» للشعوب التى يعوق سلوكها حرية الامبرياليين فى التصرف بها وادارتها بما يخدم مصالحهم الطبقية الانانية .

واحيانا تحمل النظريات السيكولوجية المثالية تسميات مضللة ، ومن ذلك التوجه «التفاعلى» (interaction – التفاعل الاجتماعى) فى علم النفس . فيزعم منظر هذا الاتجاه ، الفيلسوف المثالى والسيكولوجى الاجتماعى الامريكى جورج ميد ، ان التفاعليين ينطلقون فى تحليلهم للسلوك من «الكل الاجتماعى المعنى لفعالية جماعية معقدة» *** . ولكن التفاعليين ينظرون الى الروابط الاجتماعية على انها الوان من العشرة بين الافراد ، بدون توسط نشاطهم الاجتماعى التاريخى ، ولذا فانهم يبقون فى مواقع المثالية الذاتية .

ان السوسيولوجيين والاتنوسيكولوجيين البرجوازيين

---

* Duijker H.C.I., Frijda N.H. National Character and National Stereotypes, vol. 1, p. 43.

** Ibid., p. 45.

*** Mead G.H. Mind, Self, Society. L., 1934, p. 7.

المعاصرين ، الذين ينظرون الى الحياة الاجتماعية على انها حياة سيكولوجية اجتماعية (نسبـــة الى السيكولوجيا الاجتماعية) ، ويسعون لتجزئة المجتمع الى «جماعات» ، توحد بين افراد كل منها ، على حد زعمهـــم ، دوافع ومواصفات سيكولوجيـــة متجانسة ، يفهمون ماهية الامة ايضا فهما لاتاريخيـا . ثم ان التأثير الذى تمارسه على الاتنوسيكولوجيا توجهات سيكولوجية اجتماعية ، مثل السلوكية الجديـــدة والفرويدية الجديدة (مدرسة التحليل النفسى) والتفاعلية والادراكية ، التى يبالغ كل منها فى جانب معين من النفسية ويضخمه ، انما يؤدى الى المثالية ، ويرتبط باحتدام التناقضات الطبقيـة للامبريالية . ويفسر منظرو الامبريالية هـــذه التناقضات ، والكبت وعدم الثقة بالمستقبل لدى الناس ، بقوى نفسية لاعقلانيـة ، تفعل - كما يزعمون - على انحاء مختلفة من شعب الى آخر . أمـا اضفاء طابع صوفى خفى على الخصوصيات القومية للنفسيـــة فيستخدمونه لاثبات جبروت «صوت» العرق والدم بالمقارنة مع «صوت» الطبقات ومصالحها .

والى اهداف مماثلة ترمى نظرية باوير فى «الابيرسيبتيا القومية» ، التى يكتسب تفنيدها طابعا ملحا اليوم ، حيـــث غدت ركيزة لنظرية اصالة وفرادة السبل القومية فى التطور الاجتماعى . فهذه النظرية ، التى شكلت اساسا للادريـــة الاجتماعية الكانطية الجديدة ، تستخدم على نطاق واسع فـــى عصرنا الحاضر ليس فقط من قبل ايديولوجيى الرأسمالية بل ومن طرف التحريفيين ، بهدف تأسيس الفرادة القوميـــة لاممهم ، وللقول بأولوية التعاضد القومى بالنسبـــة للتعاون الطبقى ، اولوية القومية ازاء الاممية . واخيرا ، يعتمد عـلى نظرية «الابيرسيبتيا القومية» فى اثبات الموضوعة القائلة ان كل امة تفهم الاشتراكية على نحو فردى ذاتى ، اصيل وفريد ، ولذا فانه يجب ان يكون من «الماركسيات» و«الاشتراكيات» بعدد ما فيه من الامم . وقد سبق لبليخانـوف ان وصم هذا التأسيس النظرى للشيوعية القومية بانه تكييف الاشتراكية مع القومية .

ومن موضوعة «اشتراكيات بعدد الامم» ينطلق ايضـــا

التحريفيون اليمينيون ، الذين يروجون لمذاهب «الشيوعية القومية» . ومن مواقع هؤلاء يقترب التحريفيون «اليساريون» وهكذا فان النظريات السيكولوجية القديمة تشكل ، اليوم ايضا ، مصدرا للعصبية القومية بكافة صيغها وتجلياتها ، وان كان انصار النزعة القومية لا يرغبون احيانا فى الاعتراف بهذه الحقيقة . وان حيوية الفهم السيكولوجى العرقى ، حتى والبيولوجى العنصرى ، لماهية الامة تتكشف على اشدها فى اى من الوان العصبية القومية المعاصرة ، حتى ولو كان يتستر بشعارات تقدمية .

وقد بينت النظرية الماركسية اللينينية ، والممارسة الاشتراكية لتطور وتقارب الامم والشعوب ، رجعية العزل السيكولوجى بين الامم ، فالحاجز على طريق وحدة الشعب الاممية ليس التكوين النفسى «المتميز» ، بل السيكولوجية العصبية القومية والشوفينية ، التى تنبع من مجمل نمط حياة البرجوازية وسياستها وايديولوجيتها ، والماركسية اللينينية تفسر سلوك الجماعات الاتنواجتماعية لا بالنفسية الخاصة ، «المميزة» لها وحدها ، وانما بنظامها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وتبين ، فى الوقت ذاته ، اهمية مراعاة سماتها السيكولوجية من اجل اشاعة الصداقة والتعاون بين الشعوب .

٢ - الواحدية الماركسية فى فهم النفسية البشرية وسماتها

ان نفسية الانسان وظيفة لدماغه . ولكن النفسية ليست مشروطة بيولوجيا ، ميكانيكيا . كما انها ليست معطى اوليا . فنفسية الانسان تتكون فى مجرى نشاطه كذات وكموضوع اجتماعى . واذا كان كل المدافعين عن النظريات المثالية حول النفسية البشرية ، وعن الاتنوسيكولوجيا التى تشكلت على أساس تلك النظريات ، يفهمون السيكولوجيا علما عن الروح المستقلة القائمة بذاتها ، فان ماركس وانجلس قد سحبا الواحدية المادية على فهم النفسية البشرية . فقد بينا ان العلاقات السببية بين الانسان ومحيطه ، التى تلعب الدور الحاسم فى صيرورة صفات الانسان النفسية ، انما تتحدد

بنشاطه العملى الانتاجى . لقد انطلق مؤسسا الماركسية من العالم الواقعى ومن الانسان الواقعى ، من الشخصية ، التى تقوم ماهيتها «**لا** فى طبيعتها الفيزيائية المجردة ، **بل فى صفتها الاجتماعية**» * . كما وكانا اول من نظر الى النفسية ، الى الوعى ، لا ك«روح بحتة» او كنتاج لتأثير العالم الخارجى على الانسان ، بل كتفاعل ، يتم بتوسط ممارسة الانسان الانتاجية ، الاجتماعية التاريخية .

ففى «موضوعات عن فورباخ» الشهيرة ، التى وصفها انجلس بانها اول وثيقة تتضمن «الارهاصات العبقرية للرؤية الجديدة» ، كتب ماركس يقول : «ان النقيصة الرئيسية فى المادية السابقة باسرها – بما فيها مادية فورباخ – هى ان الشىء ، الواقع ، الحساسية ، لا تؤخذ فيها الا فى شكل **موضوع** ، او فى شكل **تأمل** ، لا فى شكل **نشاط بشرى حسى** ، **ممارسة** ، لا من وجهة ذاتية . ونجم عن ذلك ان الجانب **العملى** انما طورته المثالية ، على النقيض من المادية ، على نحو تجريدى ، فالمثالية ، بالطبع ، لا تعرف النشاط الواقعى الحسى بما هو كذلك» * * . وتتخلل هذه الفكرة الموضوعات كلها ، وخاصة الثالثة والسادسة والثامنة والتاسعة .

وفى الواحدية المادية الديالكتيكية ، القائلة بوحدة العالم فى ضوء ماديته ، وبالانسان نتاجا للطبيعة وجزءا منها ، تم تذليل سواء المثالية ، التى تصور النفسى جوهرا روحيا خاصا ، معزولا عن مجمل الوجود المادى ، او ثنوية الروحى والجسدى . وتثبت السيكولوجيا العلمية المعاصرة «ان الخاصية الرفيعة للمادة ، المسماة نفسية ، لا يمكن عزلها ، سواء بوجودها (اى انطولوجيا) أو بمعرفتها (اى غنوصيولوجيا) عن باقى اشكال الوجود ، كما ويتعذر طرحها فى مواجهتها» * * * .

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١ ، ص ٢٤٢ (ماركس . مساهمة فى نقد «فلسفة الحق» الهيغلية) .

* * المصدر السابق ، المجلد ٣ ، ص ١ .

* * * م . غ . ياروشيفسكى . السيكولوجيا فى القرن العشرين . موسكو ، ١٩٧١ ، ص ١٠٠ .

ان الواحدية الماركسية المتسقة فى فهم النفسية البشرية تقوم فى اعتبار صيرورتها صيرورة للانسان ذاته . وان نظرية دور العمل في صيرورة الانسان ، وتبيان ارتباط الاحاسيس والوعى والقدرات والمواهب بالتقسيم الاجتماعى للعمل ، بطابع النظام الاجتماعى ، قد صارا ، فى مؤلفات ماركس وانجلس أساس الموضوعة الماركسية الهامة ، القائلة بان ماهية النفسية البشرية ، ومعها ماهية الانسان ذاته ، اجتماعية دوما .

يقوم جوهر اكتشاف ماركس وانجلس للمستوى البشرى الخاص ، المحدد للنفسى ، فى ان الانسان ينظر اليه لا ككائن أرضى مجرد ، كفرد بيولوجى ، ينتمى الى العالم الطبيعى فقط ، بل باعتباره نتاجا للتاريخ وذاتا له ، باعتباره «ذلك الفقرى ، الذى تتوصل فيه الطبيعة الى وعى ذاتها ، الا وهو الانسان» * . اما كيفية ظهور النفسية البشرية الفريدة ، التى تمنح الانسان الفعالية والقدرة على الابداع وتطوير الذات ، فتفسرها الصيرورة البشرية الاجتماعية ، الانتقال من المشروطية البيولوجية الى المشروطية الاجتماعية . فالمجتمع والانسان يظهران معا ، وينتجان احدهما الآخر : المجتمع ينتج الانسان ، والانسان ينتج المجتمع . وليست هذه عمليتين ، بل عملية واحدة . ولذا فان نفسية الناس ، برغم كل ما بينهم من فوارق ، تدرسها السيكولوجية الفردية ، تكون اجتماعية دوما .

وتنطوى نفسية الانسان المفرد سواء على اساس اقتصادى اجتماعى ، أم على سمات خاصة : انسانية ، قومية ، مهنية ، وغيرها . كما وتنطوى أيضا على سمات فردية ، تكتسب بتأثير البيئات الصغيرة المحيطة بحياته الشخصية . وفى الوقت ذاته فان السمات الجماعية للنفسية ، وان كان ليست مجموعا لنفسيات اعضاء الجماعة المعنية ، انما تتألف من سمات عامة لنفسية كل منها ثم ان الانسان ، حين يصنع اشياء الثقافة المادية والروحية ، فانه يخلق متطلبات جديدة

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٥٧ (انجلس . ديالكتيك الطبيعة) .

وجديدة ، ويطور الصفات النفسية البشرية عبر التفاعل مع بيئته المحيطة – الطبيعية والاجتماعية .

وفى مجرى هذه العملية يخلق الناس الثروات الموضوعية فيخلقون ذواتهم ، نفسيتهم ، التى تستوعب تلك الثروات بطريقتها الخاصة . وان صفات النفسية انما تتجلى فى الثقافة لانها تتشكل فى مجرى صنعها ، ولذا فان علينا ، اذ نأخذ بالاعتبار وحدة هذه العملية ، البحث عن سمات النفسية والثقافة ، على حد سواء ، فى أساسهما التاريخى الاجتماعى المشترك ، لا البحث عن سمات احداهما فى الاخرى .

ويتوسط بين العالم الداخلى (الدماغ ، الحواس ، كل الجملة العصبية العليا لدى الانسان) والخارجى نشاط الناس الانتاجى ، الاجتماعى التاريخى ، وتبادل هذا النشاط فيما بينهم . تلك هى المشروطية الاجتماعية للنفسية ، التى يمكن فهمها فى ضوء النظرية الفلسفية الماركسية اللينينية حول حياة المجتمع المادية وقانونيات تطوره . «فكل ما يدفع بالانسان الى النشاط يجب ان يمر اولا عبر دماغه . . . فتأثيرات العالم الخارجى على الانسان تنطبع فى ذهنه ، وتنعكس فيه على شكل احاسيس وافكار وبواعث وتجليات للارادة ، وباختصار – على شكل «ميول مثالية» ، وتغدو ، فى شكلها هذا ، «قوى مثالية» * .

ان الواحدية المادية قد اتاحت لماركس وانجلس ، وللمرة الاولى ، تفسير الوعى على انه نتاج لتفاعل الانسان مع الطبيعة والمجتمع . فصار ينظر الى النفسى لا كجملة من ظواهر الوعى ، بل كجملة من القوى الجوهرية البشرية ، التى تتطور وتتجسد فى النشاط العملى الانتاجى . وهذه القوى الجوهرية ليست فطرية ، ليست من طبيعة الدماغ البشرى .

ان فهم ماركس وانجلس لماهية الانسان باعتبارها جملة العلاقات الاجتماعية يفسر لماذا كانا ينظران الى السيكولوجيا على انها علم واحد ، ولكنه ذو سمات مختلفة (مهنية ، قومية ،

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٢٩٠ (انجلس . لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية) .

وغيرها) . وصحيح ان ماركس وانجلس ولينين لم يضعوا مؤلفات خاصة حول السيكولوجية الاجتماعية ، ولكن دراسة تركتهم النظرية الغنية تبين انهم لم يصوغوا المبادئ المنهجية لدراسة النفسية الاجتماعية ، فحسب ، بل ودرسوها دراسة متمعنة ، وكشفوا عن جوهرها الطبقى .

ان المصالح والبواعث الطبقية ، وما يتصل بها من نشاط ، تحدد اساس سيكولوجية الناس . ولذا كان ماركس وانجلس يتتبعان باهتمام تطور نفسية وامزجة الطبقات والفئات الاجتماعية فى مجرى الصراع الطبقى ، ولاسيما فى الفترات الثورية . فقد اشارا ، مثلا ، الى ان البرجوازية الصغيرة جبانة فى تجنبها المغامرة بأى شىء . اما عندما كان الحديث يدور لا عن المصالح العامة ، وانما يمس مصالحها مباشرة ، فانها تتكشف عن سمة مختلفة تماما من سمات الجبن . «فان احدا فى ايام حزيران (من عام ١٨٤٨ – **المؤلف**) لم يناضل بمثل هذا الاندفاع من اجل انقاذ الملكية والعودة الى الكريديت نضال البرجوازية الصغيرة الباريسية»* .

وفيما يخص مصطلح «الطبع القومى» فانه يصادف فى بعض اعمال ماركس وانجلس ، ولكن بمعنى سمات الطبع القومية ، فالحياة المشتركة الطويلة فى وسط واحد تولد لدى الناس بعض الاعتيادات المشتركة ، بعض السمات النفسية العامة ، وتساعد على ظهور تقاليد مشتركة . وكان ماركس وانجلس يقدران اهمية هذه الامور ، وينصحان بمراعاتها فى العلاقات بين الامم ، كما بين الانكليز والايرلنديين مثلا . ولكنهما لم يكونا يعتبران ان بالامكان تحديد ماهية الامة بالطبع القومى او بوحدة المشاعر بين المضطهِدين والمضطهَدين فى القضايا الجوهرية . وقد نوه انجلس بانه لو كان ما يحبه الرأسماليون ويحترمونه يحبه العمال ايضا لكانوا اشبه بالحيوانات . ولكن العمال «لا يستمدون وعيهم والاحساس بكرامتهم البشرية الا من الكراهية

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٧ ، ص ٣٦ («النضال الطبقى فى فرنسا») .

المتأججة ، من الامتعاض الداخلى اللاهب ، ضد سلطة البرجوازية الحاكمة» * .

وقد اثبتت السيكولوجيا العلمية ان الظروف الاجتماعية هى من الاهمية فى تشكيل الطبع (وضمنا – الطبع القومى) ، بحيث يمكن لها ان تدخل تعديلات معينة حتى على مزاج الناس الطبيعى . فطبائع الناس من ابناء القوميات المختلفة ، الذين يعيشون فى ظروف اجتماعية واحدة ، تبدو وكأنها تغدو اممية . وعندما كتب انجلس يقول «ان الطبقة العاملة بالذات هى التى تحافظ على خيرة سمات الطبع القومى الانكليزى» * * فانه يقصد طبع الشعب ، طبع الكادحين ، لا الطبع «العام» الخرافى للطبقات المتناحرة فى الامة الانكليزية (او أية امة اخرى) .

ويتراءى لبعض الباحثين انه لا يكفى التحدث عن وحدة فقط بعض سمات طبع الناس من ابناء هذه الامة او تلك . وهنا ينسبون الى ماركس وانجلس ولينين التسليم بوحدة الطبع القومى كواحد من المؤشرات الاساسية للامة ، وكمحدد لماهيتها . فيقال ، مثلا ، أنه بالنسبة للامة الانكليزية كان كلاسيكيو الماركسية اللينينية يؤكدون على طبعها الاعتيادى ، العملى ، ونفورها من النظريات المجردة . فعلى اى اساس يقوم هذا القول ؟ انه يستند الى كون ماركس وانجلس ولينين قد اسبغوا ، فى مناسبات مختلفة ، تلك الاوصاف على الانكليز ، مع انهم ، بالمناسبة ، كانوا يضمنونها مدلولات مختلفة تبعا للمسألة المطروحة . ففى «الانتخابات فى انكلترا» يشير ماركس الى «ان الانكليز شعب اعتيادى الى درجة يصعب معها ان يعتبر الذكريات صالحة لشىء سوى نظم المآسى» * * * . ويقول انجلس : «لقد اخذ كارليل الكثير عن الالمان ، وكان

---

* المصدر السابق ، المجلد ٢ ، ص ٣٤٧–٣٤٨ (انجلس . وضع الطبقة العاملة فى انكلترا) .

* * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٢ ، ص ٣١٩ (انجلس . مقدمة الطبعة الانكليزية لمؤلف «تطور الاشتراكية من الطوباوية الى العلم») .

* * * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٨ ، ص ٣٥٨ .

بعيدا ، بما فيه الكفاية ، عن النزعة العملية التجريبية الفظة» * . ويقول لينين «ان الانكليز ، الذين ينفرون من النظريات المجردة ، ويتباهون بنزعتهم العملية ، لا يندر ان يطرحون المسائل السياسية على نحو **اكثر استقامة** ، فيساعدون اشتراكيي البلدان الاخرى فى الوقوف على المضمون الفعلى **فى اطار** أى من اللغات (بما فيها اللغة «الماركسية») * * .

ان النظر المتمعن فى هذه الاستشهادات وسياقها المختلف يبين ان ماركس يمتدح ، فى مناسبة ، تجليات النزعة العملية الانكليزية ، فى حين يدينها انجلس فى مناسبة أخرى ، اما لينين فينوه ، فى مناسبة ثالثة ، بايجابية النفور الانكليزى من النظريات المجردة . هذا فى حين يرى بعض الباحثين ان الاوصاف ، التى يستخدمها كلاسيكيو الماركسية اللينينية بالنسبة للانكليز ، تحدد فرادة طبع الامة الانكليزية .

كان ماركس وانجلس يهتمان ، فى المقام الاول ، بالسمات القومية للطبقات المختلفة . فقد اشارا ، مثلا ، الى ان الطبقة البرجوازية الانكليزية تشتمل على «النبلاء الجدد» . وكان هذا وراء العديد من سمات البرجوازى الانكليزى – نزعة المحافظة ، والافراط فى احترام التقاليد والالقاب وشجرات النسب ، وروح المساومة . ويمكن ذكر سمات للبرجوازى من الامم الاخرى . واذا قارنا السمات المميزة لبروليتاريا البلدان المختلفة يمكن العثور على فوارق ، لا تعود الى الوضع الطبقى ، بل الى البيئة القومية . وان كلاسيكيى الماركسية اللينينية قد اناطوا بالمتطلبات والمصالح المشتركة الدور الحاسم فى شكل اى من تجمعات البشر . «**المصلحة** – ذلك هو ما يربط بين اعضاء المجتمع المدنى . فالحياة **المدنية** ، لا **السياسية** ، هى التى تشكل الرابطة **الفعلية** بينهم» * * * .

ان المصالح العامة لطبقة معينة ، وخاصة منها المصالح

---

* المصدر السابق ، المجلد ١ ، ص ٥٨٥ («الوضع فى انكلترا») .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٦٩–٢٧٠ .

* * * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢ ، ص ١٣٤ («العائلة المقدسة») .

الاقتصادية ، تلعب الدور الحاسم فى تشكل نفسيتها . «ففوق مختلف اشكال الملكية ، فوق ظروف الوجود الاجتماعية ، يرتفع بنيان فوقى كامل من شتى المشاعر والاوهام وانماط التفكير والنظرات . وان الطبقة كلها تخلق وتشكل هذا كله على ارضية ظروفها المادية والعلاقات الاجتماعية المعنية» * . ولذا فان التفتيش عن القوى المحركة للسلوك البشرى يجب ان يكون فى ميدان متطلبات الناس ، لا فى الوعى بحد ذاته ، فحتى التلاحم القومى كان وليد الحاجة الى تذليل التمزق الاقطاعى ، بهدف اطلاق العنان للقوى المنتجة .

وثمة باحثون يقومون عمليا بتحويل الاستقلالية النسبية لظواهر البنيان الفوقى الى استقلالية مطلقة ، فهم يحاولون مثلا ، التفتيش عن تفسيرات لظواهر النفسية الاجتماعية فى النفسية نفسها ، بدون كشف عن اسبابها الاصلية ، وذلك استنادا الى ان موضوعة «الوجود الاجتماعى يحدد الوعى الاجتماعى» حقيقة ، استوعبت منذ امد بعيد . ولكن فقدان هذه الارضية ، اى الاسباب الاصلية لمشاعر الناس وآرائهم ، قد يؤدى – كما حذر ماركس – الى «ان الفرد ، الذى تنتقل اليه هذه المشاعر والآراء بالوراثة وبنتيجة التربية ، قد يتوهم انها بالذات هى البواعث الحقيقية ونقطة الانطلاق لنشاطه» * * .

وقد اعار لينين اهتماما كبيرا لدراسة عمليات تباين مشاعر الطبقات المختلفة وامزجتها تبعا لظروف حياتها . ولكنه ، شأن ماركس وانجلس ، لم يستخدم مصطلح «تكوين الامة النفسى» ، وان كان بالامكان ، بل ومن الضرورى ، التحدث عن «التكوين النفسى» للطبقة ، وعن اهميته الكبيرة للحركة العمالية . ففى مقالة «مهمات جديدة وقوى جديدة» (١٩٠٥) يحلل لينين انتقال الحركة العمالية الجماهيرية فى روسيا من حلقات الدعاية الى التحريض الاقتصادى الواسع فى اوساط الجماهير ، ومن ثم الى التحريض السياسى والتظاهرات

---

* المصدر السابق ، المجلد ٨ ، ص ١٤٥ («الثامن عشر من برومير لويس بونابرت») .

* * المصدر السابق .

العلنية فى الشوارع ، انتهاء بالانتفاضة المسلحـــة ، يقول لينين : «ان كلا من هذه الانتقالات جاء ، من جهة ، حصيلة عمل الفكر الاشتراكى فى اتجاه معين غالب ، وكان ، من جهة ثانية ، نتيجة التغيرات العميقة فى ظروف الحياة وفى مجمـل التكوين النفسى للطبقة العاملة ، نتيجة نهوض فئات جديدة وجديدة نحو النضال الاكثر وعيا ونشاطا» * .

وقد اناط لينين بامزجة الجماهير فائق الاهمية . فقام ، هو نفسه ، بجمع ودراسة كافة الوقائع ، التى تبين امزجة الجماهير النفسية ، وطالب كافة الماركسيين «ببذل كافة الجهود لجمع واختبار ودراسة هذه المعطيات الموضوعية المتعلقة بسلوك وامزجة **الجماهير** ، لا الافراد والجماعات» ** . وكان لينين يرى ان الثورى ، الذى يخل بهذا المطلب ، ينزلق الى مواقـــع النزعة الذاتية والارادية ، فيقدم رغباته و«رأيه» وتقييماته على انها ارادة العمال ، على انها مطالب الحركة العمالية .

كيف تستقبل الجماهير برنامج ونشاط هذا الحزب او ذاك ، وكيف تقترب منه وتدعمه او تنصرف عنه — هذه كلها امور ، ينبغى معرفتها لاختبار صحة او خطأ خط الحزب . وقد بينت احداث هنغاريا (عام ١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (عام ١٩٦٨) وبولونيا (عامى ١٩٨٠-١٩٨١) عواقب الاخلال بهذه المطالب . وكان لينين يرى ان الدراســـة المتمعنة لمزاج الجماهير النفسى ضروريـــة ايضا لتجنب الوقوع فى الاخطاء والانعزال عن الجماهير ، وللعمل على تكوين امزجتها وتوجيه سلوكها .

وان لينين ، الذى كان يتتبع ادق الانعطافات فى النفسية الاجتماعية ، كان يعرف جيدا نفسية مختلف الطبقات والفئات والتجمعات ، ولكنه لم يذهب ابدا الى ان للامة تكوينا نفسيا (او نفسية قومية) واحدا وغير طبقى . واحيانا يؤول موقف لينين فى هذه المسألة تأويلا خاطئا . فثمـة باحثون يرون ، مثلا ، ان لينين ، حين كتب فى مقالـــة «وضع البوند فى

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، ص ٢٩٤ .

** المصدر السابق ، المجلـــد ٢٥ ، ص ٢٤٥ («المعطيات الموضوعية حول قوة مختلف التيارات») .

الحزب» بصدد الحديث عن الاساليب الخاصة للتحريض بين العمال اليهود : «ما علاقة التكنيك هنا ، حيث يدور الحديث عن خصوصيات اللغة والنفسية والظروف المعيشية ؟» * — انما يقصد «النفسية القومية» . ولكن لينين يتحدث ، كما هو واضح ، عن خصوصيات النفسية وتحديدا نفسية العمال ، لا الامة ككل . وفضلا عن ذلك ، لا يجوز قول ذلك لسبب آخر ، هو ان الفكرة الرئيسية للمقالة هى انه ليس ثمة امة يهودية .

ولا يندر ان يستند «شارحو» لينين الى ما جاء فى رسالة لينين الى شاوميان من اشارة الى دور «**النفسية** ذات الاهمية الخاصة فى المسألة القومية» * * ، والى انه فى مذكرة «بصدد مسألة القوميات او «الاستقلال الذاتى» يأتى لينين على ذكر «النفسية القومية» * * * . ولكن هنا ايضا تفسر فكرة لينين على نحو غير دقيق . ففى الحالة الاولى كان يقصد اهمية حسبان النفسية فى المسألة القومية ، ولا يعنى «نفسية الامة كلها» . فكان يحذر من عواقب ردود الفعل السلبية على اللغة الروسية (فى حال فرضها قسرا) من طرف الشعوب المضطهدة من قبل القيصرية (لا من طرف البرجوازية الكسمو بوليتية) . وفى الحالة الثانية لم يصدر مصطلح «النفسية القومية» (وتلك هى المرة الوحيدة التى يصادف فيها هذا المصطلح فى اعمال لينين) عن لينين نفسه ، بل جاء فى معرض ايراده لاقوال غيره . فهنا يورد لينين آراء خصومه ، ولا يوافق على عزل طرح المسائل المتعلقة «بالنفسية القومية ، بالتعليم القومى» * * * * . وبهذه المناسبة ينبغى الاخذ بالاعتبار ايضا انه بعد ثورة اكتوبر الاشتراكيــــة العظمـــــى عام ١٩١٧ كان الحديث يدور عن سيكولوجية الجماهير الشعبية من القوميات المختلفة .

وكان لينين يؤكد على ضرورة اتخاذ التدابير لحمايـــة الشعوب ، التى كانت القيصرية تضطهدها ، من رواسب النزعة

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٨ ، ص ٦٧ـ٦٨ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٨ ، ص ٢٣٤ (رسالة الى شاوميان بتاريخ ٦ كانون الاول ـ ديسمبر ١٩١٣) .

* * * المصدر السابق ، المجلد ٤٥ ، ص ٣٥٧ .

* * * * المصدر السابق .

القومية للامة الكبيرة ، وكان يرى «انه ينبغى التعويض ، على نحو او آخر ، من خلال التوجه او التنازلات لابناء الاقوام الاخرى عن ذلك التوجس وعن تلك الاهانات ، التى لحقت به ، فى الماضى ، من قبل حكومة الامـــة «الكبرى»» * . وفى هذا كله كانت عناية لينين عناية بكادحى القوميات غير الروسية ، لا ببرجوازيتها .

ان الاهمية المنهجية للمعارضة اللينينية بين «النظريـــة التاريخية الاقتصادية والنظرية السيكولوجية فى المسألـــة القومية» * * تقوم فى ان هذه المعارضـــة تتيح خوض نضال متسق ضد العدمية القومية ، من جهة ، وضد التحويل القومى الشوفينى للسمات القومية فى النفسية الى نفسية قوميـــة (او تكوين نفسى) متميزة يزعم انها تحدد طابع تطور الامـم وعلاقاتها ، من جهة اخرى .

لقد كان نقد لينين للنظريات السيكولوجية (وخاصة نظرية باوير) جانبا هاما من نظريته التاريخية الاقتصادية فى الامة ، وكان موجها ضد شتى الاوهام حول وجود نفسية عامة مزعومة لامة مؤلفة من طبقات متعادية ، ومما له دلالته بهذا الصدد رد لينين على الاشتراكى الايطالى لاتسارى . فقد قال لينين فى كلمته بالمؤتمر الثالث للاممية الشيوعية حول المسألة الايطالية : «قال لاتسارى : «نحن نعرف نفسيـــــة الشعب الايطالى» . اما انا ، شخصيا ، ما كنت لاقدم على قول ذلك بالنسبة للشعب الروسى» * * * . وان المضمون العميق لسخرية لينين ، الذى كان على معرفة ممتازة بنفسية كل طبقة وكل فئة اجتماعية فى الامة الروسية ، ليتكشف فى نظريته حول وجود امتين فى كل امة ، ثقافتين قوميتين فى كل ثقافـــة قومية .

وهكذا فانه حتى الاستعراض السريع لآراء ماركس وانجلس ولينين حول مشكلات النفسية الاجتماعية كاف لتبيان ان نفسية

---

* المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٦١ («بصدد مسألة القوميات او «الاستقلال الذاتى») .

* * * المصدر السابق ، المجلد ٤٤ ، ص ١٧ .

الانسان ، بكل سماتها وخصوصياتها ، انما تتشكل ، كما يرى كلاسيكيو الماركسية اللينينية ، فى مجرى نشاطه المتعدد الجوانب على طريق تغيير الطبيعة والمجتمع ، على طريق اخضاعهما لمتطلباته ومصالحه . وتأتى نفسية الانسان حصيلة لكافة علاقاته الاجتماعية ، وخاصة منها العلاقات الطبقية ، فهى التى تحدد باقى العلاقات ، وضمنا – العلاقات القومية . وان الخصوصية القومية لوجود الناس لا تذهب ابعد من تلوين نفسيتهم بالصبغة القومية . ومن شأن التقييم الصحيح والمراعاة للسمات القومية فى النفسية ان يساعدا على الاغتناء المتبادل لثقافات الشعوب المختلفة ، وعلى تعاونها وتقاربها . اما تجاهلها ، ناهيك عن ازدرائها ، فيعزز العصبية القومية ، ويزيد من عزلة الشعوب ، ويقوى توجسها الواحد من الآخر ، حتى والعداء فيما بينها .

٣ – السمات القومية للنفسية فى ضوء نظرية الانعكاس اللينينية ومعطيات السيكولوجيا العلمية

ان مكانة ودور وشأن السمات القومية للنفسية البشرية فى التطور الاجتماعى لا تتبين الا فى السيكولوجيا العلمية ، التى لعبت دورا كبيرا فى تشكلها نظرية الانعكاس اللينينية ، تطوير لينين للواحدية الماركسية فى فهم النفسية .

وقد اناط لينين ، منذ بداية نشاطه الثورى ، اهمية بالغة بالدراسة العلمية ، اى المادية التاريخية ، لنفسية مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية . ففى كتاب «من هم اصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين ؟» ينتقد لينين النزعة القبلية apriorism فى تحديد المجتمع ومختلف مقولات تطوره ، فيقول : «ان السيكولوجى الميتافيزيقى يتحدث عن مسألة ما هى النفس ؟ ذلك تناول اخرق قديم . فلا يجوز التحدث عن النفس بدون تفسير العمليات النفسية مثلا : هنا ينبغى ان يقوم التقدم فى نبذ كافة النظريات العامة والانشاءات الفلسفية عما هى النفس ،

وفى المقدرة على ارساء دراسة الوقائع ، الخاصة بهذه العمليات النفسية او تلك ، على ارضية علمية» * .

ان السيكولوجيا العلمية الماركسية ، التى تطورت بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، ترتكز الى نظرية الانعكاس اللينينية . ففى مؤلف «المادية ومذهب نقد التجربة» يفند لينين عودة الماخيين الى المطابقة البيركلية بين الروحى والمادى عبر تصوير الاشياء مجموعات من الاحاسيس ، كما وينتقد مذهب التوازى النفسى الفيزيائى .

وقد برهن لينين ، فى معرض الكشف عن تهافت التفسيرات غير العلمية للنفسية البشرية ، على هراء المزاعم ، القائلة «ان المادية تقول بان الوعى» أقل «واقعية» * * . كما ودحض الفهم المادى المبتذل للنفسية بوصفها افرازا من افرازات الدماغ او الحواس (المثالية الفيزيولوجية) أو لونا خاصا من الطاقة (النزعة الطاقوية) ، وغيرها من ضروب الفهم المثالى والميتافيزيقى للنفسية .

تذهب نظرية الانعكاس اللينينية الى ان العالم الموضوعى هو المصدر الوحيد لكافة احاسيس الناس وادراكاتهم وتصوراتهم ومفاهيمهم . والناس متساوون من حيث توفر المقدمات البيولوجية والسيكولوجية لعكس العالم الموضوعى . ويتمتع ابناء مختلف الاعراق والقوميات بجملة عصبية واحدة ، وباعضاء واحدة لعكس العالم الخارجى عكسا صحيحا الى هذا الحد أو ذاك .

ولكن هذا لا يعنى ان الناس كلهم يعكسون ظواهر العالم الموضوعى على نحو واحد . فالموضوعة اللينينية : «الاحساس صورة ذاتية للعالم الموضوعى» * * * — انما تؤكد ، من جهة ، على الوجود الموضوعى لكل ما ينعكس ، وتؤكد ، من جهة اخرى ، على ان الصورة هنا لا تتطابق مع الاصل . وهى تكشف عن الوحدة الديالكتيكية بين الموضوع وصورته المشروطة به ، بين الظاهرة وبين الجوانب الذاتية التى تسبغها ذات المعرفة

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١ ، ص ١٤١–١٤٢ .
* * المصدر السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٢٩٦ .
* * * المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

عليها . وهنا ترتبط الجوانب الذاتية بحالة الجملة العصبية ، وبالتجربة ، وبمعارف الانسان المعنى ، وتتوقف ، والى درجة اكبر ، على الانتماء الطبقى او القومى ، الخ .

ان نفى ارتباط النفسية بحاملها المادى يحولها الى ماهية غيبية ؛ اما نفى مبدأ الانعكاس العملى الفعال فيجعل من غير المفهوم كيف ظهرت فى مدارك الناس صور الصفات المتعددة للاشياء والظواهر بكل خصوصياتها ، بما فيها الخصوصيات القومية .

وان نظرية الانعكاس اللينينية ترسى السيكولوجيا على أرضية علمية ، وذلك ، قبل كل شيء ، لانها تنطلق من الواحدية المادية ، فتبين ترابط المبدئين : ١ - وحدة العالم النابعة من ماديته ؛ ٢ - قدرة النفسية ، بوصفها وليدة العالم المادى وجزءا منه ، على تصوير هذا العالم تصويرا صحيحا . وتتجسد هذه القدرة بفضل نشاط البشر الانتاجى الاجتماعى ، وتأثيرهم الفعال على العالم . وكان لينين يرى لب نظرية الانعكاس كاساس لعملية المعرفة فى القول «ان الاشياء موجودة خارجنا ، وان ادراكاتنا وتصوراتنا صور لها ، وان التحقق من هذه الصور ، وفصل الصحيح منها عن الخاطئ ، يتم بالممارسة» * .

اما السيكولوجيون المثاليون المعاصرون فينظرون الى الدماغ على انه عضو مولّد للنفسية البشرية ، على انه جهاز معطى منذ البداية ، ينطوى فى صورة جنينية على الملامح العريضة للعالم المدرك . واستنادا الى هذه المعطيات «العلمية» راح انصار النزعة العنصرية والقومية الشوفينية يسبغون على الشعوب «صفات» و«قدرات» نفسية مختلفة . فالدماغ ، على حد زعمهم ، يبدو وكأنه يطلق هذه الصفات والقدرات . وان هذا الفهم لوظيفة الدماغ يشكل ، فى حقيقة الامر ، لونا من المثالية الفيزيولوجية . ومن المعروف ان عالم الطبيعة الالمانى ميولير ، رائد المثالية الفيزيولوجية ، قد صاغ «قانون الطاقة الخاصة للحواس» ، الذى ينص على ان

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٨ ، ص ١٠٩-١١٠ («المادية ومذهب نقد التجربة») .

الاحاسيس الضوئية والصوتية وغيرهـا من الاحاسيس التى تتولد لدى الانسان انما هى نتيجة لتجلى الصفات الداخليـة («الطاقات الخاصة») لاركان الحس . فشبكية العين ، مثلا ، مجهزة برسوم تخطيطية للمكان ، يضمنها الانسان احاسيس معينة . بعبارة اخرى : لا تفسر بنية الحواس بطبيعة المهيج ، بل ، على العكس ، فان الضوء والصوت والمهيجـات الاخرى تعتبر وليدة للطاقة الخاصة لاركان الحس .

وعلى النقيض من المثاليـة الفيزيولوجية يقوم التفسير المادى لدور الحواس فى انها لا تملك «طاقة خاصة» بل هى ذات وظائف خاصة ، متولدة عن طبيعة المهيج . فخلال الارتقاء المديد للعضوية ، وبتأثير العالم الخارجى ، ظهرت وتطورت الحواس المختلفة ، التى صارت اكثر فاكثر تمايزا ، واكثر فأكثر دقة فى عكس مختلف الاشياء والظواهر . وبهذا الصدد يقول ماركس : «فقط بفضل الغنى العملى الشيئى الواسـع للكائن البشرى يتطور ، وجزئيا – يولد للمرة الاولى ، غنى الحساسية **البشرية** الذاتية : الاذن الموسيقية ، والعين التى تحس بجمـال الصورة ، وباختصار – تتطور **الاحاسيس** ، المؤهلة للتمتع البشرى ، والتى ترسخ نفسها كقوى جوهرية **بشرية** . فليست الحواس الخارجية الخمس وحدها ، بل وما يدعى بالمشاعر الروحية والاحاسيس العملية (الارادة ، الحب ، الخ) ، وباختصار – الحس **البشرى** ، انسانية الحواس ، انما تظهر فقط بفضل توفر الموضوع **المقابل** ، بفضل الطبيعـة **المؤنسنة**» * .

هل تتحدد صفة الشىء المدركة بالتنظيم الخاص للجهاز المدرِك ، بالطاقة التى يطلقها ، ام انه ، على العكس ، توجد الصفات على نحو موضوعى ، ولادراكها الصحيح تتكون حواس خاصة ، لها وظائف معينة – ان الاجابة على هذا السؤال تميز المثاليين عن الماديين . **ثم ان الاجابة عليها تمت بصلـة مباشرة الى الادراك الذاتى للظواهر القوميـة** . فهل تقحم الخصوصية القوميـة الذاتية على مدارك الناس من قبـل

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلـد ٤٢ ، ص ١٢٢ (ماركس . مخطوطات ١٨٤٤ الفلسفية الاقتصادية) .

سيكولوجية قومية خاصة ، ام عن طريق تكيف الادراك مع السمات القومية الموضوعية للرسم والموسيقى ، وغيرها ، مثلا . ان للتعريف اللينينى للحواس ، ولنقد المثالية الفيزيولوجية ونظرية الرموز فى ضوئه ، اهمية كبيرة من اجل الاجابة المادية الصحيحة على المسألة المطروحة . وقد اشار لينين الى ان ««ارتباط» الفيزيولوجيا بالمثالية الفلسفية ، وخاصة المنحى الكانطى ، قد استغل فيما بعد ، ولردح طويل من الزمن ، من قبل الفلسفة الرجعية» * . وهو يستغل الآن ايضا من قبل انصار العصبية العنصرية والقومية ، الذين يفسرون خصوصية الادراك بتميز الدم والنفسية لدى ابناء القوميات المختلفة .

وقد كتب لينين فى معرض الكشف عن جذور مثل هذه التأويلات فى الفيزيولوجيا المثالية : «ان اللون هو نتيجة تأثير الموضوع الفيزيائى على الشبكية ، اى ان الاحساس هو نتيجة تأثير المادة على الحواس» * * .

ويقول الاكاديمى فافيلوف فى معرض تبيان سر كمال افعال العين وآليتها وقدرتها التخيرية على التمييز بين الالوان : «ان هذا كله هو حصيلة تكيف العين مع ضوء الشمس على الارض .

فمن المتعذر فهم العين بدون فهم الشمس . على العكس ، فانه تبعا لصفات الشمس يمكن التدليل نظريا ، فى الخطوط العامة العريضة ، على خصوصيات العين ، وكيف يجب ان تكون ، دون علم مسبق بها .

ولذا فان العين شمسية ، كما يقول الشعراء» * * * .

ويمكن قول الشىء ذاته عن الارتباط بين طبيعة المؤثرات الاخرى وبين محللاتها . فآلية التكيف التدريجى لكل محلل معنى مع التقاط مؤثرات متميزة تغطى القسم الاطرافى (أو

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٨ ، ص ٣٢٢ («المادية ومذهب نقد التجربة») .

* * المصدر السابق ، ص ٥٢ .

* * * س . ا . فافيلوف ، العين والشمس . موسكو ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٠ .

التقبلى) والقسم الناقلى والقسم الدماغى (أو المركزى) من المحلل . وكما يقول لينين «فان الاحساس هو ارتباط الوعى المباشر حقا بالعالم الخارجى ، هو تحول طاقة المؤثر الخارجى الى ظاهرة للوعى» * . وقد لقيت هذه الموضوعة تأسيسها العلمى فى نظرية المحللات ، التى وضعها الاكاديمى السوفييتى بافلوف .

فقد قال ان الحقيقة الاساسية لفيزيولوجيا المحللات هى ان كل جهاز اطرافى هو محول خاص للطاقة الخارجية المعنية الى عملية عصبية . وقد بينت نظرية بافلوف فى المحللات ان ما يولد الاحاسيس ليس المتقبلات الاطرافية ، وانما الدماغ ، الذى يشكل مع الحواس آلية موحدة لتحليل وتركيب التأثيرات الخارجية والداخلية ، فيعكس العالم الموضوعى فى صورة احاسيس وادراكات وافكار .

وبما ان هذه الآلية كلها تتشكل وتتطور بتأثير العالم الموضوعى ، وتتكيف باستمرار مع خصوصية المؤثر لكى تستطيع عكس هذا العالم عكسا تفاضليا ، فان من الجلى ان صورة الموضوع المعكوس بكل سماتها (بما فيها السمات القومية) ستتحدد بالموضوع نفسه ، بسماته . وهكذا فان دحض العلم لـ«المثالية الفيزيولوجية» ذو اهمية ايضا من اجل تذليل فهم الخصوصية القومية بتميز السيكولوجية القومية . وبفضل اعمال الفيزيولوجيين الروسيين سيتشينوف وبافلوف تفهم وظيفة المحلل على انها جملة من الروابط المؤقتة المتكاملة ، كنشاط معقد تكيفى له ، يرمى الى تنفيذ مهمة سيكولوجية معينة . ويجرى هذا التكيف المعقد فى البيئة القومية ايضا . وان الدماغ ككل ، ولحاءه من حيث هو اكثر اجزاء الجملة العصبية العليا تطورا ، يمثلان ارفع مستويات تحليل الاشارات وتركيبها ، وهما لا يولدان «صفات» الانسان و«قدراته» النفسية ، وانما يتكيفان مع الموضوع . وان تطوير التكيف النيرودينامى مع سمات الموضوع (بما فيها السمات القومية) بهدف تأمين مزيد من التفرع فى عكسه ،

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٨ ، ص ٤٦ («المادية ومذهب نقد التجربة») .

انما يجرى بنتيجة مجمل التطور الاجتماعى التاريخى للانسان ، ونشاطه الملموس . فيلس ثمة مراكز «فطرية» فى النشاط العصبى الاعلى لدى الناس .

يصور السيكولوجيون البرجوازيون نفسية الانسان شيئا انسانيا عاما سرمديا ، «نورا داخليا» . اما فى الحقيقة فان ممثلى الطبقات المختلفة يتمتعون بنفسيات متباينة ، حتى ومتعارضة على الاغلب ، ناتجة عن انماط حياتهم ونشاطهم . ثم ان الصفات والقدرات النفسية العليا ، البشرية حقا ، لا «تنمو من الداخل» . فتطور النفسية البشرية فى الاونتوجينيا لا يتحدد كليا بتطور النفسية فى الفيلوجونيا .

ان نفسية الانسان تتطلب نضوجا مديدا ومعقدا فى الاونتوجينيا . فكل فعل من افعال النفسية ، حتى ولو كان يرتبط للوهلة الاولى بمضامين «غير اجتماعية» ، انما هو ظاهرة مشروطة اجتماعيا . ولم تغد السيكولوجيا علما الا بعد توصلها الى هذه الموضوعات . وتقدم اعمال السيكولوجيين السوفييت (فيغوتسكى ، ليونتيف ، لوريا ، روبنشتين وغيرهم) وبعض الباحثين التقدميين الاجانب (فالون ، جانيه ، بوليتزر وآخرين) الفهم المادى التاريخى للنفسية كنتاج معقد لتطور البشر الاجتماعى التاريخى . فمن وجهة نظر السيكولوجيا المعاصرة تمثل **وظائف الانسان النفسية العليا عمليات انعكاسية معقدة ، اجتماعية باصلها ، ومتوسطية ببنيتها ، وشعورية باسلوب عملها»** .

ثم ان هذه او تلك من الجماعات الاتنواجتماعية انما ترتبط بوسطها من خلال متطلباتها ومصالحها الذاتية ، فتؤثر فيه ، وتعكس خصوصيته . وبالمقابل ، فان الوسط القومى ، بظروفه الطبيعية وسماته الاجتماعية الثقافية المتكونة تاريخيا (نمط الحياة ، العادات والتقاليد ، الخ .) ، يقوم بتشكيل السمات القومية للنفسية . فليست النفسية القومية «المتميزة» هى التى تولد هذه او تلك من المشاعر والتصورات والمفاهيم عن اشياء الوسط المعنى وظواهره ، بل ، على العكس ، فان سمات الوسط ، والتفاعل المديد معها ، تولد لدى الفرد رد فعل خاصا عليها ، ثم يغدو رد الفعل هذا سمة قومية فريدة ،

وفى مرحلة ، متأخرة نسبيا ، من العمر يصبح رد الفعل الخاص هذا امرا ملازما داخليا لنفسية الفرد بحيث لا يندر تصوره وليد سيكولوجية خاصة . كما وتبين التجربـــة العلمية ان الخصوصية الفعلية للعملية الذهنية تعود الى ما يجرى فى المرحلة التحضيرية لرد فعل الفرد على هذه او تلك من الظواهر القومية ، وذلك قبل ادراك المؤثر الذى يسبب الرد . وعلى هذا النحو تظهر مشكلة اللاشعور فى النفسية ، وهى المشكلة التى لم يحلها فرويد ، وانما انتهى بها الى مأزق النزعـــة الجنسية الكلية .

كان وعى مكان اللاشعور ودورها وشأنه فى النفسيـــة يتطلب تذليل الحاجز الذى اقامته السيكولوجيا الذاتية بين اللاشعور والوعى (الشعور) . وصار هذا ممكنا بفضل مبدأ وحدة النفسية والنشاط ، الذى توصل اليه العلماء السوفييت . ولكن اذا كانت صفات الانسان وعملياته النفسية تتشكل فى مجرى نشاطه ، فانه يجب التفتيش فى هذا النشاط بالذات عن تفسير لا للوعى فحسب ، بل وللاشعور أيضا .

ويدرس عالم النفس السوفييتى اوزنادزه اللاشعور فى وحدته مع نشاط الانسان لينظر الى النفسية اللاشعورية على أنها حصيلة تفاعل الفرد مع حالة تلبية حاجاته ولينوه بأنه اثناء هذا التفاعل يظهر التوجه . وبما ان الحاجة ، والحالة معها ، قد تكونان قوميتين ، فان التوجهات ، التى تظهر من تفاعلهما ، قد تكون قومية ، وتبعا لطابع حاجات الفرد وحالات تلبيتها «تظهر عنده حالة خاصة ، يمكن تسميتها **استعدادا** ، توجها نحو نشاط معين» * . ويشير اوزنادزه الى ان الذات الواقعيـــة «موجهة» دوما ، وتبعا لطابع التوجهات التى تظهر على ارضية الحاجات (والتى قد تكون قومية) يتوقف ايضا اسلوبها فى الادراك والسلوك ورد الفعل .

تظهر التوجهات من الحاجات ، ولكنها تتكشف فى الادراك . ولذا فان المثاليين ، اذ يعتبرون الادراك (القومـــى ، مثلا) ظاهرة مستقلة محض نفسية ، انما يغفلون الدور الحاســـم

* د . ن . اوزنادزه . الاسس التجريبية لسيكولوجية التوجه . تبيليسى ، ١٩٦١ ، ص ١٧٠ (وانظر ايضا : ص ١٦٥ـ١٧٩) .

للعلاقات الاجتماعية فى تكوين الشخصية ، بواعثها وسلوكها . اما الطبقات الاستغلالية فتسبغ على الادراك الاجتماعى الوجهة الملائمة لها . وهى تكون الافراد ذوى الامزجة القومية ، «المتوجهين» قوميا ، على نطاق امم باكملها . ويقدم الماضى القريب (النازية فى المانيا) والحاضر (العسكرية العدوانية فى الولايات المتحدة وبلدان الناتو) الكثير من الامثلة ، التى تبين كيف انه بنتيجة تشويه الوعى الطبقى للجماهير الواسعة تسود البواعث الشوفينية فى سلوكها * . وفى حالات كهذه تصور موجات العصبية القومية وكأنها وليدة «النفسية القومية» ، او «الروح القومية» ، التى تفعل بحد ذاتها .

ان السيكولوجيا العلمية لا تنفى واقعية النفسية ، ولكنها لا تنسب اليها وجودا منغلقا على ذاته . وليس للنفسية استقلال مطلق . ولكن فى مجرى تكون الشخصية ، كما يؤكد عالم النفس السوفييتى سميرنوف ، «يستبدل الخارجى بالداخلى ، ويكتسب هذا الداخلى استقلالية معينة» ** . وهكذا فان القول بثانوية الظواهر النفسية واستقلاليتها النسبية لا يقلل ابدا من شأنها الكبير فى تكوين الفرد ، سواء فى المنحى الايجابى او السلبى .

وتميز السيكولوجيا بين ثلاث زمر كبيرة من الظواهر النفسية : ١ – العمليات النفسية كعكس دينامى للعالم فى مختلف الصيغ النفسية (المعرفية والعاطفية والارادية) ؛ ٢ – الحالات النفسية باعتبارها المستوى القائم فى اللحظة المعنية للنشاط النفسى (حالة الاهتمام ، الحالة العاطفية او المزاج) ؛ ٣ – الصفات النفسية كتشكلات ثابتة نسبيا ، تضمن مستوى كميا وكيفيا معينا لنشاط نفسية الفرد . وتتركب

---

* هنا يكفى التذكير بالموجة الشوفينية التى اجتاحت انكلترا بنتيجة التوجه الاستعمارى لحزب التورى ، الذى ادى فى عام ١٩٨٢ (نيسان – حزيران ، ابريل – يونيو) الى شن حرب عدوانية ضد الارجنتين بسبب جزر الفولكلاند ، او توجهات النزعة العدوانية فى الولايات المتحدة الامريكية ، التى قامت بعدوان سافر على ليبيا .

** أ . أ سميرنوف . سبل تطور السيكولوجيا السوفييتية . موسكو ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥ .

الصفات النفسية فى اطار تشكل بنيوى معقـــد (التكوين النفسى)، تهمنا فيه هنا عناصره الاساسية التالية : ١ – موقف الشخصية الحياتى واعتقاداتها ومثلها ومستوى فعاليتها، التى تتحدد بمتطلباتها ومصالحها الملموسة ؛ ٢ – المزاج كمنظومة للسمات النفسية لنشاط الشخصية ؛ ٣ – القدرات كمنظومة من الصفات الذهنية والعاطفية ؛ ٤ – الطابع كمنظومـــة من العلاقات واشكال السلوك .

وعلى ارضية المتطلبات (المادية والروحيـــــة) تظهر المصالح، التى تنقسم، بدورها، الى مادية وروحية . وبما ان المشاعر والافكار تشكل البواعث المباشرة لسلوك او تصرف معين لدى الناس، قد تبدو النفسية، او الدوافع الفكرية، القوة الاخيرة والحاسمــــة، ولكن استجلاء دور المصالح وطبيعتها يتيح تقديم التفسير المادى لسلوك اية فئة اجتماعية . فالمادية التاريخية لا تنتقص من دور وشأن الايديولوجيا، وكذلك السيكولوجيا، فى التاريخ، وانما تبين ان استقلاليتهما نسبية، وليست مطلقة . وعندما كتب انجلس يقول «ان العلاقات الاقتصادية لكل مجتمع معنى تتجلى، قبل كل شىء، فى صورة **مصالح**» *، فانه يقدم بذلك مفتاح فهم آلية انعكاس الوجود الاجتماعى فى الوعى الاجتماعى (سواء فى الايديولوجيا او السيكولوجيا) .

وللامة، للشعب، مصالحها القومية، التى تنعكس كذلك فى نفسية الناس المنتمين الى الجماعة الاتنواجتماعية المعنية . وجلى انه مثلما لا تكون هذه الجماعات مجرد حاصل جمـــع لافرادها، لا تكون سيكولوجية هذه الفئة الاجتماعية او تلك مجرد حاصل جمع للسيكولوجيات الفردية . **وقد رأينا، فى دراستنا للنفسية البشرية فى تجليها الفردى حينا والاجتماعى، حينا آخر، انه يصعب التمييز بين هذين الجانبين ؛ وليس هذا من قبيل الصدفة** . فقد نوه ماركس بتعذر المعارضة بين «المجتمع»، كتجريد، وبين الفرد . «فالفرد **كائن اجتماعى** . ولذا فان أى تجل لحياته – حتى ولو لم يتبد مباشرة فى صيغة

* ماركس وانجلس . المؤلفات، المجلـــد ١٨، ص ٢٧١ (حول مسألة السكن) .

تجل حياتى **جماعى** ، يتم بالاشتراك مع الآخرين – انما **يكون** تجليا **للحياة الاجتماعية** وترسيخا لها» * . وان نفسية الفرد ذاتها انما تتشكل بتأثير العلاقات الاجتماعية ، وبذلك تكون نفسية اجتماعية فى جوهرها . ولكنه لا يجوز ، فى الوقت ذاته ، اغفال ان النفسية الطبقية ، ومعها سماتها القومية والمهنية وغيرها ، لا تتكون خارج حملتها ، ليست فوق فردية .

فلننظر فى العناصر الاساسية للتكوين النفسى ، بهدف استجلاء مدى صحة اعتبارها عناصر قومية .

فمن الامور البديهية ، مثلا ، تعتبر وحدة المزاج القومى temperament . ولكن ، اولا ، يمكن لامم مختلفة (كالشعوب الامريكية اللاتينية والقفقاسية) ان تكون على نمط واحد تقريبا من الحركية والاستثارة ، فى حين انه داخل البلدان الشاسعة ، ذات المناطق الجغرافية والمناخية المتنوعة ، يمكن ان تعيش جماعات كبيرة من الناس ، تنتمى الى قومية واحدة ، ولكنها ذات اشكال مختلفة من المزاج . ثانيا ، اذا كانت السيكولوجيا العلمية قد اثبتت انه حتى لدى الاشخاص المنفردين لا تلاحظ ، على الاغلب ، انماط «نقية» من المزاج ، وانما صيغ متوسطة وانتقالية منها ، فانه يلزم من ذلك الاستنتاج بعدم مشروعية الحديث ، على الصعيد العلمى ، عن مزاج معين لامة كاملة ، ناهيك عن اختصاص هذا المزاج بها وحدها . وحتى فى حال وجود عدد كبير من الافراد فى هذه الامة او تلك ، يتمتعون بنمط معين من المزاج ، كالمزاج الحاد مثلا ، فان هذا لا يكفى بحد ذاته لتعميم هذا الوصف على الامة بأسرها . فلا يجوز ، مثلا ، القول عن امة معينة بانها غضوبة وعصبية ، تتسم بنزعة دورية فى نشاطها وانفعالاتها ، بحيث يمكن لها ان تنتقل من النشاط العاصف الى الخمول العاطل .

ترى السيكولوجيا المادية ان الدور الحاسم فى تشكل السلوك لا تلعبه الصفات الفطرية للجملة العصبية بحد ذاتها .

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٤٢ ، ص ١١٩ (ماركس . مخطوطات ١٨٤٤ الفلسفية الاقتصادية) .

وانما علاقات الناس الواقعية ، ظروف حياتهم وعملهم ، تربيتهم وتعليمهم . وبتأثير التأثيرات الحياتية تتغير الصفات الاولية الاصلية لنمط النشاط العصبى ، وتحدث تحولات فى دينامية سلوك الانسان تشكل صيغا انتقالية من المزاج . وعليه فان ابراز ما فى المزاج من جوانب تعود الى استعدادات الجملة العصبية ومن جوانب تشكلت من جراء تغير الجملة العصبية بتأثير ظروف الحياة ، هو امر ، أصعب بكثير مما يظن .

ان منظومة الروابط المؤقتة ، التى تظهر فى حياة الانسان الاجتماعية ، تأتى وكأنها «تغطى» على مزاجه الطبيعى . فالجملة العصبية ، برغم كونها جهازا طبيعيا ، هى من المرونة بحيث تتأثر الى حد كبير بظروف حياة الانسان الاجتماعية . ولذا سيكون من الاصح التحدث عن غلبة تجليات معينة لهذه او تلك من انماط المزاج فى هذا الوسط القومى او ذاك ، لا عن مزاج قومى متميز . فان عبارة «المزاج القومى» ليست مفهوما علميا ، وان كانت تصلح للاستعمال العادى .

وليس ثمة اساس علمى لتقسيم الاعراق والامم تبعا للقدرات . فالوحدات الاجتماعية الكبيرة ، التى تضم جملة من الناس بكل قدراتهم ، تكتسب قدرة تكاملية على حل مهمات اجتماعية وعلمية تكنيكية وغيرها من المهمات التى يعجز عن حلها اى من افرادها على حدة . وتملك كافة الشعوب امكانيات متساوية لا محدودة لتطوير قدراتها الذهنية والعاطفية . ولتحويل هذه الامكانيات الى واقع يلزم شرط واحد ، هو ان تحرر من اصفاد الاضطهاد الاجتماعى والقومى ، وان تبنى المجتمع الانسانى حقا ، المجتمع الشيوعى .

اما الطبع character فتمارس الظروف الاجتماعية تأثيرا كبيرا متميزا على تكونه . فالطبع ، من جهة ، عنصر من التكوين النفسى ، وهو من جهة اخرى ، ذو بنية معقدة ، تشتمل على جوانب من هذا التكوين . وعلى هذا الاساس يمضى بعض المؤلفين لوضع علامة المساواة بين التكوين النفسى وبين الطبع . ولكن العوامل المادية والروحية ، التى تساهم فى تشكيل النفسية والطبع ، تتفاعل فيهما على انحاء مختلفة ، وتتجلى فى صيغ متباينة . والجوانب الطبيعية تكون موجودة

فى الطبع اكثر منه فى النفسية ، وتغطى عليهـا التأثيرات الاجتماعية والتربية . ولا تتجلى كافة الصفات النفسية على نحو واحد فى الطبع ، فتبين السيكولوجيا ان الانسان ، وان كان لا يتغير ، يكون ، مع ذلك ، قادرا على تغيير زخم حركاته وافعاله ، وعلى ضبط مشاعره ، وكبح مؤثرات المتطلبات العضوية ، وعلى البقاء فى مستوى المتطلبات الاخلاقية التى يطرحها المجتمع عليه . ولكن اذا كان طبع الشخصية يتحدد ، فى اساسه ، بعلاقاتها الاجتماعية ، فان من الاحرى بطابع الوحدات الاجتماعية ان يكون نتاجا للوجود الاجتماعى .

ان كل انسان يمثل هذه او تلك من الطبقات والفئات الاجتماعية ، من الشعوب والامم ، ويكون من ابناء مهنة معينة وجنس وجيل ، الخ . ولكن هذا لا يعنى انه يكون ذا نفسيات منفصلة : طبقية وقومية ومهنية وجنسية وعمرية . فنفسية الانسان واحدة ، تتحدد بالعلاقات الاجتماعية . وبما ان العلاقات القومية شكل من العلاقات الاجتماعية تكون لنفسية الانسان سماتها القومية .

وينطلق البعض من حقيقة كون القومى ليس شيئا فوق الطبقات ، وكون الامة تتألف من طبقات ، ليخلصوا الى استنتاجات خاطئة ، تقول ان لكل طبقة نفسيتها القومية ذات السمات الطبقية . اما ، فى الواقع ، فان الامر على العكس من ذلك : ان الوضع الطبقى فى كل امة هو الذى يحدد نفسية الناس كنفسية طبقية ، تكتسب ، فى الامة المعنية ، سمات (خصوصيات) قومية . ومن الضرورى دراسة هذه السمات ومراعاتها من حيث هى سمات للنفسية ، لا بوصفها هى النفسية ذاتها .

ان الباحثين ، الذين يذهبون الى ان السمات القومية للنفسية ، نظرا لاستقلاليتها النسبية ، يمكن اعتبارها نفسية (او تكوينا نفسيا) قومية خاصة ، يطرحون عادة الحجج التالية : ١ – ان وجود التكوين النفسى القومى امر بديهى ، ينبع من مجرد وجود امم مختلفة ؛ ٢ – ليست الامة ظاهرة اجتماعية فقط ، بل وظاهرة طبيعية ؛ ٣ – ان الامة ككل تشكل ذات النفسية القومية ؛ ٤ – ان التكوين النفسى هو غير

النفسية ؛ فوحدة التكوين النفسى تعنى شكل تجلى النفسية ، لا مضمونها .

ثمة عدد من الناس ، الذين يؤمنون بان مجرد وجود امم مختلفة – انكليز ، نمساويين ، فرنسيين ، الخ . – يدل على وجود تكوين نفسى خاص بكل امة .

صحيح انه فى مجرى التواجد والتعاشر المشترك تتكون لدى الطبقات المتناحرة بعض السمات العامة لتجلى النفسية ، ولكن هذه السمات لا تشكل وحدة التكوين النفسى للامة . وان قناعة جمهور واسع من الناس بوجـــود وحدة التكوين النفسى كواحد من المؤشرات الاساسية للامـــة تتسم ، فى حقيقة الامر ، بطابع نفسى لاشعورى . وذلك ان تجلى بعض الافعال المشتركة (عسكرية وغيرها) والمشاعر المشتركـــة حيال الاحداث التى تمس الامة كلها ، الخ ، يستوعب عـــلى انه وحدة التكوين النفسى . ويترسخ هذا الاعتقاد خاصة فى حال التعزز الحاد والرواج الواسع للعصبية القومية . كما ان الايمان بوجود «روح قومية» تربط بين ابناء الامة الواحدة يشكل ، بدوره ، احد المصادر ، التى تغذى العصبية القومية وتقويها . صحيح انه لا وجود لـ«روح قومية» (وهنا لا نقصد الاستخدام المجازى للعبارة) فى الواقع ، ولكن مجرد الايمان بوجودها يمارس تأثيرا فعليـــا على سلوك الناس . ومن الضرورى مراعاة ما تكوّن لدى الناس فعليا من قناعات ، ايا كانت هذه القناعات . هذا ناهيك عن ضرورة حسبان تأثيـــر الدعاية القومية ، والتأثير الفعلى للبرجوازيـــة وثقافتهـــا وايديولوجيتها على جمهور الكادحين . ولكن اخذ وجود الاوهام القومية بعين الاعتبار لا يعنى التكيف معها ، وانما النضال ضدها .

ولا يندر ان يستند القائلون بوجود تكوين الامة النفسى ، وبكونه واحدا من المؤشرات الاساسية للامة ، الى الزعم بان الامة ليست ظاهرة اجتماعية فحسب ، بل وطبيعية ايضا .

ان انصار الفهم الثنوى للامة (كظاهرة تاريخية وطبيعية معا) يتجاهلون كون «العناصر الطبيعية» للشعب المعنى ليست واحدة فى مختلف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية . كما ان العناصر البنيويـــة للتكوين النفسى (للنفسية) – الطبع ،

والقدرات ، ومعها جملة العادات والتقاليد والاذواق المستقرة ، حتى والاوهام – انما تمثل ، هى الاخرى ، نتاجا للعلاقات الاجتماعية ، وفى المقام الاول – للعصر المعنى .

ان الوسط القومى المتميز وكذلك بعض التطابق فى المصالح القومية لا يمكن ان يحددا الا خصوصيات تجلى النفسية ، لا مضمونها ، الذى يكون طبقيا واجتماعيا دوما .

وان المؤشرات الموضوعية للامة هى عامة فعلا لكافة ابنائها ، ولكن هناك عوامل هامة فى تطور الامة ، مشروطة بالوضع الطبقى لكل من افراد الامة . وبين هذه العوامل تأتى الثقافة والنفسية .

وثمة باحثون ، يستندون الى وحدة التكوين النفسى كمؤشر للامة ، المؤلفة من طبقات متناحرة ، فى الزعم بأن هذه الوحدة ليست وحدة مضمون النفسية ، بل وحدة شكل تجليها فقط . واحيانا تظهر حتى محاولات لاثبات لاطبقية التكوين النفسى برد تجليه الى الفيزيولوجيا . ولكن الاستناد الى ارتباط التكوين النفسى بنشاط الجملة العصبية العليا ، وبصورة ادق – الجملة الاشارية الثانية ، انما يؤكد ، مرة اخرى ، المشروطية الاجتماعية التاريخية للوظائف النفسية العليا . فان نفسية الانسان من طبيعة اجتماعية دوما ، فلا يمكن لاى تفسيرات طبيعانية ان تكشف عن ماهيتها . ثم ان بيلجة ماهية الامة تجعلنا عزلا فى الكفاح ضد الخرافات العنصرية .

ولاثبات واقعية وحدة التكوين النفسى للامة تطرح احيانا الموضوعة التالية : ان جملة الصفات المعنوية الروحية للامة تكون طبقية الطابع ، اما تكوينها النفسى فلا . ولكن النفسية تندرج ، هى الاخرى ، فى جملة الصفات المعنوية الروحية . فنفسية مختلف تجمعات الناس ، مشاعرها وافكارها وتطلعاتها وامزجتها وعاداتها وتقاليدها حتى واوهامها ، الخ ، تندرج فى حياة المجتمع الروحية ، ولذا فان الملامح الروحية لهذه الجماعات او تلك لا تنعكس فى ايديولوجيتها فقط ، بل وفى سيكولوجيتها ايضا . ولتذليل هذه الصعوبة يعلن بعض الباحثين وحدة التكوين النفسى شكلا لتجلى النفسية ، لا مضمونا

لها ، فهم يعترفون بطبقية هذا المضمون . هنا يصادفنا فهم ميتافيزيقى للشكل على انه شيء خارجى ، مقحم على المضمون .

فلو كان التكوين النفسى مجرد شكل خارجى للنفسية لكان حل مهمة تذليـــل التكوين النفسى البرجوازى والبرجوازى الصغير ، وغرس التكوين النفسى التقدمـــى فى الجماهير الكادحة ، امرا ، لا صعوبة فيه .

فان كون التكوين النفسى هو النفسية ذاتها ، لا مجرد تجل لها ، هو الذى يجعله جزءا لا يتجزأ من الملامح الروحيـــة للطبقات والفئات الاجتماعية ، فلا يكون عاما ومشتركا لامة مؤلفة من طبقات متعادية . ولكن هل تختفى هنا بعض السمات القومية العامة للنفسية ؟ لا ، أبدا . فالطبقات قومية ، وان كان ذلك ، بالطبع ، لا يعود الى السمات النفسية المشتركة . فلكل من الطبقات نفسيته القومية **الطبقية** ، ومن هذه النفسيات يمكن ابراز بعض السمات العامة المشتركة ، التى تسبغ على النفسية المعنية خصوصيتها القومية ، ولكن هذه السمات لا تعبر عن المصالح القومية الجذرية ، وهى ليست من الاهمية بحيث تعتبر من المؤشرات الاساسية للامة .

وفى السنوات الاخيرة صار مصطلح «التكوين النفسى» اقل فاقل استعمالا ، ولكن مصطلح «السيكولوجية القومية» لا يزال يستخدم احيانا . وفى الحالتين كلتيهما يتم عمليا تجاهل تناقض هذين المصطلحين سواء مع موضوعات مؤسسى الماركسية اللينينية حول ماهية النفسية ، ام مع الحقائـــق الجديدة التى توصلت اليهـــا العلوم المعاصرة حول هذه المسألة ، وخاصة علم النفس . وبنتيجة ذلك يطرح بعض الباحثين مصطلحات غير دقيقة على انها مسلمات ، او يكتفون هنا بالاستناد الى استخدام هذه المصطلحات من قبل بعض «الثقات» ، الذين استخدموها (او يستخدمونها) ، هم انفسهم ، بدون تمعن . وغالبا ما يعللون ذلك بالقول ، مثلا ، ان مفهوم «السيكولوجيا القومية» اجل شأنا من مفهوم «السمات القومية للنفسية» . ولكن الامور يجب ان تؤخذ على حقيقتها . هذا اولا . ثانيا ، ان اهمية الظاهرة يجب ان تنبع من جوهرهـا ،

لا من التأويل الموسع لها . وينسحب هذا على مصطلح «الطبع القومى» ايضا .

وهنا تجدر الاشارة ، قبل كل شىء ، الى انه نظرا لكون الطبع عنصرا أساسيا من النفسية ، ناهيك عن التداخل بينهما فى كثير من الجوانب ، فان المبادئ المنهجية فى دراسة السمات القومية للنفسية وللطبع تكون عامة مشتركة . ولذا فانه لكيلا يستوعب مفهوم «الطبع القومى» ، الواسع الانتشار ، بمعنى طبع عام مميز للامة كلها ، يكون من الافضل استبداله ، هو الآخر ، بمفهوم «السمات القومية للطبع» . وان مدلول هذا الاخير لن ينقص ابدا من جراء هذا التدقيق على العكس ، فانه يغدو مطابقا لمضمونه .

ولفهم مكانة واهمية سمات الطبع القومية ينبغى معرفة آلية تشكل طبع الناس فى جماعات قومية معينة . فبما ان فهم طبع الشعب يتطلب ، قبل كل شىء ، دراسة تاريخه ونظامه الاجتماعى وثقافته ، فان هذه الدراسة بالذات هى التى تؤدى بنا الى استجلاء السمات النفسية القومية لهذا الشعب او ذاك ، وللناس الذين يتألف منهم .

ونحن ، اذ نتذكر تنويه لينين بأنه وان كان الفردى لا يندرج كلية فى العام ، فان العام ، مع ذلك ، لا يوجد الا فى الفردى ، لا يمكننا التجرد ، فى مسألة دراسة سمات طبع اى من الوحدات البشرية ، عن طبع الناس الذى يتشكل فى اطار هذه الوحدة . ونظرا لهذا الارتباط يتم فهم طبع الانسان من مواقع طبقية ، اى من زوايا جد مختلفة .

وكمثال على ذلك نورد تعريف الطبع فى معجمين فلسفيين . فقد جاء فى المعجم ، الذى وضعه فلاسفة مثاليون : «الطبع هو السمة الاساسية لسلوك الانسان ، التى تتجلى فى تصرفاته وعقليته . **ويحدد الطبع كل التغيرات الجارية فى الانسان ، وكذلك شدة المقاومة للتأثيرات الخارجية ، ليشكل اساس الشخصية وركائزها المعنوية»** * (خط التشديد لى — **المؤلف**) .

* المعجم الفلسفى . ترجمة عن الالمانية ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٦٣٤ .

أما المعجم ، الذى وضعه ماديون ديالكتيكيون ، فيعرف الطبع بانه «جملة خصوصيات الانسان النفسية المستقرة ، **التى تتوقف على نشاطه وظروف حياته وتتجلى فى تصرفاته**» * (خط التشديد لى – **المؤلف**) .

ويكفى الانتباه الى الكلمات التى شددنا عليها فى الاستشهادين حتى يتضح تضاد الفهمين المثالى والمادى الديالكتيكى لـ«الطبع» . فالطبع ، بالنسبة للمثاليين ، شىء اولى ، لا يتغير بالتأثيرات الخارجية ، بل انه ، على العكس ، هو الذى يحدد كل ما يجرى فى الانسان من تغيرات ، ويشكل اساس شخصيته . اما الماركسيون فيقولون ، بالاتفاق مع العلم ، ان ظروف حياة الانسان المادية ، نشاطه العملى الانتاجى ، هى اساس تشكل وتغير وتطور طبعه . وفى المجتمع الطبقى يتحدد طبع الانسان عموما بوضعه الطبقى . اما الوجود القومى للانسان فيصوغ خصوصيات طبعه القومية .

ويصادف احيانا فى الادبيات الخاصة بموضوعنا رأى ، يذهب الى ان الطبع القومى صعب رصده ، وانه ينعكس فى وحدة الثقافة القوميـة (ويدقق بعض الدارسين : فى وحدة السمات الخاصة للثقافة القومية) ، ولذا يمكن استجلاؤه فيها بالذات . ولكن الخصوصية القومية للثقافة ، بدورها ، تفسر هنا بطابع الامة . ويبدو ان بالامكان الخروج من هذه الحلقة المفرغة بدراسة الاساس المادى والماهية الجوهرية للثقافة نفسها عامة ، ولسماتها القومية خاصة . وللكشف عما فى الثقافة من عناصر يمكن اعتبارها قومية ، ومن عناصر لا يصح اعتبارها كذلك ، ينبغى التمييز بين مفهومى «ثقافة الامة» و«السمات القومية للثقافة» .

---

* المعجم الفلسفى . موسكو ، ١٩٧٥ ، ص ٤٤٩ .

ثقافة الامة
والسمات القومية للثقافة

ان الثقافة culture بالمعنى الاوسع للكلمة هى كل ما صنعه الناس وما يصنعونه . والثقافة ، شأن نفسية الانسان وطبعه ، تتشكل فى مجرى نشاطه المادى العملى ، فى مجرى تفاعله مع الوسط المحيط (الطبقى والقومى والمهنى وغيرها) .

وكان العمل اساس ظهور الانسان والمجتمع فى وقت واحد ، وذلك لانه كان ، منذ البداية ، عملا خلاقا ابداعيا . فتحضير حتى ابسط المعدات الخشبية او الحجرية جاء حصيلة وحدة النشاط المادى والروحى .

وتندرج فى الثقافة النتائج الشيئية واساليب نشاط الناس التحويرى ، الهادف الى تغيير العالم المحيط وتغيير ذواتهم – كل منتوجات العمل المادى والروحى . اما الاستخدام الواسع لمفهوم «الثقافة» بمعنى «الثقافة الروحية» فمسموح شريطة عدم نسيان انه لم يوجد ، ولا يمكن ان يوجد ، نشاط مادى بحت ونشاط روحى بحت ، وبالتالى لا وجود لثقافة مادية او روحية بحتة .

والثقافة لون خاص من تجلى النشاط الحيوى للانسان الذى يشكل ذات (صانع) هذا النشاط وموضوعه ايضا . وفى العالم المعاصر ينبغى الاخذ بالحسبان الظروف الطبقية والقومية وغيرها من الظروف التى تولد الثقافة ، بتنوعها وغناها . كما وينبغى رؤية الطابع الانسانى والاممى للثقافة التقدمية ، وماهيتها الطبقية فى الوقت ذاته ، وكذلك مكانة ودور سماتها ، وهى – فى الحالة المعنية – السمات القومية ، فى تطور الشعوب ، والبشرية عامة .

١ – تطور البشرية الثقافى والسمات القومية للثقافة

ان الثقافة ، التى صنعتها أمم وشعوب مؤلفة من طبقات ذات مصالح متعارضة ، هى ثقافة غير متجانسة . فلا يندرج فيها كل ما هو تقدمى ، فقط ، بل وما خلقته الطبقات الرجعية خدمة لمصالحها الخاصة ، وبالتعارض مع مصلحة الكادحين . والثقافة غير متجانسة من حيث مصادرها ايضا ، فيدخل فيها ما ابدعه المعاصرون وما استعير من ثقافة الماضى ومن ثقافة الشعوب الاخرى . ففى مضمون ثقافة امة المجتمع الرأسمالى تندرج سواء الثقافة البرجوازية او الثقافة الاممية ، الديمقراطية والاشتراكية . وهذا كله يشكل ثقافة الامة المعنية ، لا ثقافة قومية موحدة . فالقومى فى الثقافة ليس المضمون الاجتماعى الطبقى لثقافة الامة المعنية ، وانما فقط تلك السمات التى تتشكل بتأثير البيئة الطبيعية التاريخية المتميزة ، وبمساهمة كافة الطبقات فى بعض الاعمال التى تمس (وان يكن على نحو مختلف) مصالح الامة ومصائرها . وبهذا الصدد يشير الفيلسوفان السوفييتيان كيللى وكوفالزون الى انه «اذا كان ارتباط الثقافة بجماعة تاريخية معينة (قبيلة ، شعب ، امة ، وكذلك مجموعة شعوب متقاربة الثقافة) يسبغ الخصوصية على شكل الثقافة ، فان الارتباط بفئة اجتماعية معينة ، بمصالح طبقية معينة ، الخ . ، يقوم وراء **مضمونها وتوجهها الايديولوجى**» * .

ان القوميين المتعصبين ، وعموما كل من يتبنى النظرة المثالية الى الثقافة ، يتجاهلون اساسها الطبقى ودورها الاجتماعى الطبقى . فينطلق منظرو المنحى البيولوجى فى فهم الثقافة من «ثبات طبيعة الانسان» ، ويتفق منظرو المنحى السيكولوجى المثالى فى القول «بثبات قدرات الروح البشرية» ، فى القول بأن للناس وللجماعات البشرية ، كالقبيلة والشعب والامة ، روحا خلاقة خاصة ، تبدع هذه الثقافة القومية او تلك . وفى السوسيولوجيا الانتروبولوجية

---

* كيللى وكوفالزون . النظرية والتاريخ . موسكو ، ١٩٨١ ، ص ٢٤٩ .

والسيكوسوسيولوجيا او الاتنوسيكولوجيا تعزل الثقافة ايضا عن اساسها المادى ، عن الحياة الاقتصادية الاجتماعية . وعلى هذا النحو تظهر نظريات «انماط الحضارة» ، و«النسبية الثقافية» و«الحضارات المحلية» ، وغيرها . وترى هذه النظريات ان التأثيرات والاستعارات المتبادلة لا تؤدى الى الاغتناء المتبادل للثقافات ، بل الى تفسخها .

اما فى الحقيقة فان ثقافة كل امة ، كل شعب ، انما تمثل حلقة عضوية فى سلسلة تطور البشرية الثقافى . وكلما كانت ثقافة الامة ، او الشعب ، اكثر تطورا كانت اكثر غنى بالعناصر الانسانية العامة ، التى تتشكل فى مجرى نشاط البشر الخلاق ، على طريق النهوض بثقافتهم القومية الذى لا يعقل بدون التفاعل بين ثقافات الشعوب المختلفة . ومع تقدم العلم والتكنيك يتعزز الطابع الامى للثقافة المادية تعززا قويا .

يشمل الوعى الاجتماعى كل الآراء والتصورات والنظريات ، سواء على مستوى النفسية الاجتماعية التى تتشكل لدى الناس بتأثير ظروف حياتهم اليومية ، او على مستوى الايديولوجيا التى تمثل درجة اعلى من الوعى الاجتماعى — نسقا من الافكار والنظريات المعبرة عن متطلبات ومصالح فئة اجتماعية او طبقة معينة .

واذا كان لا يصح اعتبار المعارف العلمية معارف قومية نظرا لطابعها الانسانى العام ، الامى ، فانه يتعذر النظر الى الايديولوجية الاجتماعية ، اى الآراء السياسية والحقوقية والفلسفية والاخلاقية وغيرها ، على انها ايديولوجية قومية نظرا لطابعها الطبقى الصرف . والنفسية الاجتماعية طبقية ، هى الاخرى .

اما بصمات الخصوصيات القومية فتتجلى فى عناصر من الثقافة الروحية ، مثل الادب والفن والعادات والتقاليد . ولكنه ينبغى التنويه بأنه ليس ثمة فى المجتمع الرأسمالى ثقافة قومية موحدة من حيث المضمون ، وان كان ثمة العديد من الايديولوجيين البرجوازيين والقوميين المتعصبين ، الذين يحاولون عبثا اثبات وجود مثل هذه الوحدة . صحيح ان

انشطار المجتمع الى طبقات متعادية لا يعنى انهيار الامة وانحلالها ، ولكن هذا لا يثبت ان هذه الامة تبدع ثقافة موحدة .

ويلزم من كل ما قلناه ان ثقافة الامة والثقافة القومية ليستا شيئا واحدا . فالثقافة القومية لا تشمل كل الثقافة ، بل فقط سماتها القومية . وقد برهن لينين على انه يتعذر الحديث فى ظل الرأسمالية عن ثقافة قومية واحدة ، ذلك أنها نتاج طبقى ، كما لا يجوز رد كل ثقافة الامة الى الثقافة البرجوازية . وليس ذلك لمجرد ان الجماهير المستغلة تصنع ثقافتها الخاصة ، التقدمية ، بل ولانه لا يندر ان يعكس بعض المتحدرين من اوساط الطبقات السائدة تطلعات الشعب الديمقراطية والاشتراكية فى ابداعهم .

وقد توصل لينين من تحليله لثقافة المجتمع التناحرى الى الاستنتاج التالى : «ثمة ثقافتان قوميتان فى كل ثقافة قومية» * . واحيانا يأخذ البعض قول لينين هذا حول انشطار الثقافة فى المجتمع الرأسمالى على انه قول مجازى ، مجرد استعارة . ولكن الطابع المجازى لهذا القول لا يقلل ابدا من قيمته المنهجية الكبيرة من اجل الفهم الصحيح للثقافة فى المجتمع التناحرى ، ومن اجل النضال ضد التصور عنها ك«تيار واحد» . وهناك انصار لنظرية «التيار الواحد» يزعمون ان موضوعة «الثقافتين» اللينينية تتعلق بالثقافة السياسية فقط . اما فى الحقيقة فان لينين يتحدث عن انشطار كل الثقافة الروحية الطبقية ، بما فيها الفنية ، الى ثقافة ديمقراطية واخرى – رجعية .

وبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عاد لينين ليؤكد ، وبصورة اكثر حدة ، فكرة انه من اجل صنع الثقافة الاشتراكية ينبغى الا تؤخذ من ثقافة الماضى الا خيرة نماذجها . فقد اشار الى «اننا نأخذها ، بوجه الحصر وبشكل مطلق ، لمعارضة الثقافة البرجوازية» . . . ** . وقد كان

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٢٩ .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٢١ («ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية») .

لينين دقيقا دوما فى التعبير عن افكاره . وكان يرجع مرارا الى الموضوعات المبدئية الهامة ، ليكشف تماما عن مدلولها الدقيق . ومن ذلك انه يصوغ على نحو آخر فكرته المذكورة اعلاه . فيقول : «ان كل معارضةٍ ، فى المسائل المتعلقة بالبروليتاريا ، بين ثقافة قومية ككل وبين ثقافة قومية اخرى ككل ، وما الى ذلك ، انما هى عصبية قومية **برجوازية** ، علينا ان نخوض ضدها نضالا لا يرحم» * .

ويذهب البعض ، بهدف اثبات رأيهم الخاطىء حول وحدة الثقافة فى المجتمع الاستغلالى ، الى البحث عن «فيتامينات نافعة» فى التيار المحافظ (الرابطة السلافية ، وذلك على غرار الرابطة الاسلامية والرابطة العثمانية وغيرها) من جهة ، ويعملون على التقريب بين ممثليه وبين ممثلى التيار النقدى والثورى من جهة اخرى .

ولكن النزعة اللاتاريخية ، وتناسى التناول الطبقى عند تحليل الظواهر الاجتماعية لا بد ان يؤديا بأنصار نظرية «التيار الواحد» فى الثقافة الى الفهم المثالى لماهية الانسان ولوحدات الناس القومية .

ان انصار نظرية «التيار الواحد» لا يوردون ، وليس بوسعهم ان يوردوا ، اية حجج علمية لصالحها . اما الحماس العاطفى العام ، ووصف مختلف الظواهر والاحداث التى مست (على انحاء مختلفة ، بطبيعة الحال !) كل الطبقات والفئات الاجتماعية للامة المعنية ، فليس لهما اثبات وحدة الثقافتين الديمقراطية والرجعية .

ولا يزال يصادف فى الادبيات السوفييتية ايضا بعض التخبط النظرى فيما يخص مسألة الموقف من التراث الثقافى ، من التقاليد . وقد لفت التقرير السياسى ، الذى تقدمت به اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى الى المؤتمر السابع والعشرين للحزب ، الانتباه الى ضرورة العمل «لكى لا يتحول الاهتمام الصحيح بكل ما هو قيم فى اية ثقافة قومية الى محاولات للانعزال عن العملية الموضوعية لتفاعل

---

* المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

الثقافات القومية وتقاربها . كما ويجب اخذ ذلك بالحسبان ازاء ما يجرى فى بعض المؤلفات الادبية والاعمال الفنية والعلمية من محاولات ، تتستر بالاصالة القومية ، لاسباغ صورة زاهية على الرواسب القومية الرجعية والدينية ، التى تتنافض مع ايديولوجيتنا ، مع نمط الحياة الاشتراكى ، مع الرؤية العلمية» * .

كما وتتحدث الصيغة الجديدة لبرنامج الحزب ، التى اقرها المؤتمر السابع والعشرون ، عن اهمية «النضال ضد تجليات اللاعقائدية والضحالة الجمالية» ** . وقد كان لينين يرى ان فهم ماهية الثقافة وسيرورتها وتطورها يتطلب الانطلاق من المواصفات الطبقية لذات العملية الثقافية التاريخية المعنية ، وان الثقافة التقدمية حقا هى الثقافة الاممية فى المقام الاول .

وقد ترتب على لينين التصدى لخصومه من القوميين المتعصبين ، الذين حاولوا دحض موضوعته المذكورة بالتنويه بأن الثقافة ليست غير قومية . ففى «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» ، حيث يرد على واحد من هؤلاء ، ويؤكد «ان شعارنا نحن هو الثقافة الاممية ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العمالية العالمية» ، يقول : «بهذا الصدد يشن عليّ السيد البوندى ليبمن حملة هوجاء ويقذفنى بهذه القنبلة القاتلة : «ان من يلم بالمسألة القومية ولو الماما طفيفا يعرف ان الثقافة الاممية ليست بثقافة لا قومية (ثقافة بدون شكل قومى) . . . وهذه حقيقة معروفة منذ امد بعيد ، ولكن السيد لينين يتجاهلها تماما» . فكروا جيدا بهذه المحاكمة التى يمتاز بها البونديون ، والتى يقصد منها ، كما ترون ، تقويض الموضوعة الماركسية التى صنعتها انا . . . نعم ، ليست الثقافة الاممية غير قومية ، يا عزيزى البوندى . . .

---

* وثائق المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى . موسكو ، ١٩٨٦ ، ص ٥٣-٥٤ .

** برنامج الحزب الشيوعى السوفييتى . موسكو ، ١٩٨٦ ، ص ٥٩ .

ولذا كان رصفك الكلمات الجوفاء مجرد محاولة لصرف انتباه القارئ وطمس المحتوى وراء جعجعة لا طائل تحتها» * .

وبالفعل فان ليبمن يتظاهر وكأن لينين ، حين يؤكد على مضمون الثقافة الاجتماعي الطبقي ، وبالتالي - على الطابع الاممي للثقافة البروليتارية (نظرا لان البروليتاريا الاشتراكية اممية بطبيعتها الطبقية) ، انما لا يريد ان يعرف ان كل ثقافة تتجلى وتنقل فى صيغ ذات سمات قومية . ومن الباحثين من يرغب فى اثبات ان الثقافة قومية دوما ومن كل ناحية (لا من حيث سمات اشكال تجليها فقط) ، فيستند الى قول لينين الآنف الذكر ، ولكن - فى الحقيقة - على نحو ملتو . فهم يتجاهلون كلمات لينين الساخرة ، الموجهة الى ليبمن : «نعم . . . يا عزيزى البوندى» - فلا يوردون الا العبارة : «الثقافة الاممية ليست غير قومية» . ولكن مجمل الوجهة العامة لكلمات لينين ، وسياقها ككل ، انما يقوم فى اثبات ان الثقافة تتحدد بالمضمون الطبقى (ففى ظل الاشتراكية يتحدد مضمون الثقافة الاشتراكى بمثل الطبقة العاملة واهدافها) ، لا بالخصوصيات القومية لاشكال تجليها . ثم ان عبارة «الثقافة ليست غير قومية» لا تعنى الا انها تتضمن عناصر قومية ايضا ، لا انها قومية كلها ، اى لا انها ثقافة واحدة للامة كلها . ذلك هو مدلول كل النظرية اللينينية حول انشطار ثقافة الامة فى ظل الرأسمالية .

ولكن الموضوعتين اللينينيتين - الثقافة اممية ، والثقافة ليست غير قومية - يجب ان تؤخذا فى ارتباطهما المتبادل . والا ، فاننا حين نعتبر الثقافة قومية برمتها ومن كافة نواحيها ، نكون قد اغفلنا اساسها الاممى ، وحين نعزل القومى الخاص عن الاممى العام ، ونصورهما ظاهرتين تتطوران على نحو متواز ، فاننا نصل الى القول الخاطئ بأن اضفاء طابع اممى على الحياة الروحية معناه ازاحة الاممى للقومى .

بيد ان ما قلناه لا يعنى انه لا يجوز استخدام مصطلح

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٢٠ .

«الثقافة القومية» نفسه . فهو يستعمل ، على الاغلب ، كمرادف لمفهوم «ثقافة الامة» . ولكن اذا كان السياق يـــدل على ان المقصود ليس هذا الترادف ، بل القول ان الثقافة قوميـــة كلها ، فانه لا يجوز الموافقة على مثل هذا الفهم لمصطلـــح «الثقافة القومية» . ففى هذه الحالة يتم تجاهل الطابع الاممى للعلم والتكنيك وغيرها من العناصر المستعارة من الشعوب الاخرى . **وفى النضال ضد نظرية «التيار الواحد» فى الثقافة ينبغى ايضا تبيان ان ما فيها من عناصر رجعيـــــة ، تعكس المصالح الانانية الضيقة للطبقات البالية ، لا يمكن ان يعتبر ثروة قومية** . اما الثقافة التى تخدم التقدم فتكـــــون ثروة قومية ، وذات قيمة اممية فى الوقت نفسه .

ولذا كان لينين يرى انه لا يجوز للماركسى ان يطرح ، على نحو مباشر او غير مباشر ، شعار «الثقافة القومية» ، لان هذا الشعار كان يغطى على مضمون الثقافة الاجتماعى الطبقى ، فكانت تصور قومية ســـواء بالمضمون او بالشكل . فـــلا يصح ، مثلا ، وصف ثقافة المجتمع الرأسمالى كلها بأنهـــا ثقافة برجوازية .

فالثقافة البرجوازية وثقافة المجتمع البرجوازى شيئـــان مختلفان . وفى الحالة الاولى تفهم الثقافة على انها برجوازيـة برمتها ، اما فى الحالة الثانية فيدور الحديث عن التحليـــل الطبقى لثقافة المجتمع الرأسمالى . فى الحالة الاولى يتعذر فهم توارث الثقافات ، اما فى الحالة الثانية فيكون من البيـــن ان البروليتاريا ترث كل ما هو ديمقراطى وتقدمى سواء مـــن ثقافة البشرية كلها او من الانجازات التاريخية لامتهـــا . وان موضوعة لينين حول انشطار الثقافة فى المجتمع التناحرى ، التى كانت موجهة ضد نظرية «التيار الواحد» فى الثقافـــة ، تتعارض ، فى الوقت ذاته ، مع الاجتماعوية المبتذلة ، التى لا ترى التوارث فى تطور الثقافة .

ثم ان موضوعة لينين حول «الثقافتين» تتيح كذلك الفصل بين الفن الواقعى والذاتى . ففى حين يحول التحيز البرجوازى الفنان الى مزين للنظام البالى ومدافع عنه ، حتى ولو كـــان يتظاهر بنقد عيوبه ، توفر الواقعية النقدية امكانية رؤيـــة

المجتمع البرجوازى على حقيقته ، بكل تناقضاته الصارخة . وليست ثقافة المجتمع البرجوازى مجرد برجوازية بمعنى آخر ايضا ، هو انها ليست من صنع البرجوازية وحدها ، بل ومن صنع المثقفين التقدميين ، المتحدرين من اوساط الطبقات السائدة ، والذين يساعدون ، على نحو او آخر ، على التطور الصاعد للبشرية ولثقافتها .

فقد كان لينين يرى ، مثلا ، ان الاديب الروسى الكبير ليف تولستوى صار ، بفضل واقعيته النقدية وعبقريته الفنية ، مرآة للثورة الروسية (١٩٠٥–١٩٠٧) ، وذلك برغم انتمائه الى الطبقة الاقطاعية . ففى نقده انعكس تدين وميتافيزيقية وانتقائية تفكير الملايين من الفلاحين المسحوقين ، نقمتهم ويأسهم فى آن واحد . ولم يكن لتولستوى ان يدل على المخرج ، ولكنه ، بانحيازه الى طرف المحرومين ، وبتبيانه لتناقضات روسيا ما بعد اصلاح ١٨٦١ ، وبكشفه عن قروح النظام الاقطاعى البرجوازى ، جاء بمادة ذات شحنة فنية هائلة . وكان من شأن التحليل العلمى لهذه المادة ان يؤدى الى الاجوبة الصحيحة ، الى العثور على المخرج من التناقضات الاجتماعية ، وهو ما قام به ممثلو الحركة العمالية * .

ان الصعوبات فى تحديد انتماء اعلام الواقعية النقدية الى احدى «الثقافتين» تظهر فى حال التناول الاجتماعوى المبتذل للقضية ، بحيث يكون معيار الفرز هو المنشأ الطبقى لرجالات الثقافة ، لا القيمة الموضوعية لاعمالهم ، وفى حال اغفال اهميته الواقعية النقدية كعامل ، لعب الدور الرئيسى فى رؤية الفنان للعالم . وبهذا الصدد يجدر التوقف عند الحل الصحيح لسؤال قديم ، لا يزال مطروحا الى الآن : هل يبدع الفنان بدون الاهتداء برؤية معينة للعالم ، ام بفضل هذه الرؤية ، ام بالتعارض معها . فحتى اليوم تصادف اجابات مختلفة على هذا السؤال . وقد اعطى لينين الحل الصحيح لهذه المشكلة المعقدة ، حين اشار مثلا ، سواء الى العام الذى

* انظر : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، ص ٤٠–٤١ («ليف تولستوى والحركة العمالية المعاصرة») .

يجمع بين تولستوى الفنان وتولستوى المفكر ، او الى التناقض بينهما . فقد نوه بأن المرحلة الرئيسية فى نشاط تولستوى كانت سنوات ١٨٦١ - ١٩٠٥ ، ليقول : «ان تولستوى قد تشكل نهائيا ، كفنان وكمفكر ، فى هذه الفترة بالذات ، التى كان طابعها الانتقالى وراء كافة السمات المميزة لمؤلفات تولستوى و«للتولستوية» * .

لقد اثر غياب الرؤية العلمية عند تولستوى فى ان مذهبه لم يتضمن الا الأحلام ، برغم انها احلام اشتراكية ، ومعها الدعوات الى المحبة الشاملة . وقد لقى عصر تولستوى ، بكل تناقضاته الرئيسية ، انعكاسه الفذ فى مؤلفاته ، ولكنه انعكس ايضا فى المرآة المحدبة «للتولستوية» . ولذا نوه لينين «بأن التناقضات فى اعمال تولستوى وآرائه وتعاليمه ومدرسته تناقضات صارخة حقا» ** .

فكيف كانت رؤية تولستوى للعالم ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب الالتفات الى تعرج سبل تشكل هذه الرؤية او تلك ، والى تعقد بنيتها . فيعنى عادة برؤية العالم الفهم العام للعالم وللانسان ، الذى يحدد وجهة الانسان الاجتماعية السياسية والفلسفية والدينية والاخلاقية والجمالية والعلمية . ولكنه سيكون من الخطأ القول انه منذ البداية يكون لدى الانسان الفهم العام ، الذى يحدد هذه التوجهات او تلك (التوجهات الجمالية ، او العلمية . . .) . على العكس ، بالاحرى ، فان الانسان قد يترقى على سلم المذاهب النظرية العلمية وغير العلمية الى رؤية العالم العلمية او الى الرؤية غير العلمية ، حتى والى الرؤية اللاعلمية . ثم ان الرؤية المتشكلة تمارس تأثيرا عكسيا على التوجهات المذكورة . فاذا لم تتوفر لدى الفنان الكبير وجهة فلسفية علمية ، ولكن قوة توجهه الجمالى او الاخلاقى تتيح له امكانية التحليل النقدى لمثالب المجتمع الاجتماعية ، فانه

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، ص ١٠٠ («تولستوى وعصره») .

** المصدر السابق ، المجلد ١٧ ، ص ٢٠٩ («ليف تولستوى كمرآة للثورة الروسية») .

يتشكل عنده فهم عام للعالم وللانسان ، اى رؤية معينة للعالم .

ونظرا للارتباط الوثيق بين المنهج والنظرية فان غياب الرؤية العملية المتسقة لدى الفنانين يعوض عنه ، الى درجة معينة ، بواقعيتهم النقدية ، التى صارت عنصرا حاسما فى رؤيتهم للعالم ، ازاح باقى العناصر فيها . وبهذا الصدد يقول انجلس «ان الواقعية تفترض ، فضلا عن الصدق فى التفاصيل ، الاستعادة الصادقة للطباع النموذجية فى ظروف نموذجية» * . كما وينوه «بان الواقعية ، التى اتحدث عنها ، قد تتجلى بصورة مستقلة عن آراء صاحبها» ** . وهو يورد هنا مثال الواقعى الفرنسى بلزاك ، ليقول : «انى أرى فى كون بلزاك اضطر ، على هذا النحو ، للوقوف ضد عواطفه الطبقية الشخصية واوهامه السياسية ، فى كونه رأى حتمية سقوط ارستقراطية المحببين وصورهم اناسا لا يستحقون مصيرا احسن ، وفى كونه رأى اناس المستقبل الحقيقيين حيث لم يكن بالامكان فى ذلك الحين رؤيتهم الا هناك ، — انى ارى فى هذا احد اجل انتصارات الواقعية» *** .

وفى عصرنا ينتقل الكثير من الادباء والفنانين فى البلدان الرأسمالية الى مواقع الشعب بفضل الواقعية النقدية ، التى تسمح لهم بالتصوير الصادق للواقع . وهم يضعون اعمالا قومية انسانية النزعة ، تخدم قضية النضال فى سبيل السلام والتقدم الاجتماعى .

وفى موضوعة «الثقافتين» اللينينية يتم التأكيد ايضا سواء على المضمون الطبقى المضاد فى كل منهما ، او على السمات القومية العامة المشتركة بينهما . وان المغزى العميق للتقسيم اللينينى لكل امة فى المجتمع الرأسمالى الى امتين ، ولكل ثقافة قومية فيه الى ثقافتين قوميتين ، ليقوم بالضبط فى ان هذا التقسيم لا ينفى قومية كل من الطبقتين المتناحرتين

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣٧ ، ص ٣٥ (رسالة الى مارغريت هاركنيس ، نيسان ـ ابريل ١٨٨٨)

** المصدر السابق ، ص ٣٦ .

*** المصدر السابق ، ص ٣٧ .

المؤلفتين للامة ، ولا السمات القومية لثقافتها ، وانما ينفى فقط وحدة العالم الروحى لهاتين الطبقتين – سواء وحدة الايديولوجية او وحدة السيكولوجية .

ويلاحظ بعض نقاد الفن ، بحق ، ان الاستيعاب «القومى» يكون «ذاتيا» بمقدار ما يكون الفن ليس تصويرا سلبيا للعالم ، بل و«موقفا» منه . ولكن الافراط فى التأكيد على استقلالية الفن النسبية يمكن ، وبسهولة ، ان يؤدى الى نسيان القاعدة المادية المحددة له ، ونسيان حقيقة ان الفن يقوم بوظائفه الاجتماعية بفضل التفاعل الوثيق مع باقى اشكال الوعى الاجتماعى . هذا فى حين ان **الافكار السياسية والاخلاقية التى يعبر عنها الفن ، كونها مشروطة طبقيا ، تعبىء المشاعر القومية ايضا فى الاتجاه المعنى ، وتضمنها التناقض الطبقى** . حقا ان نسيان استقلالية الفن النسبية سيكون تبسيطا لمشكلات معقدة ، حتى وابتذالا لها ، فى حين ان من شأن عدم تقدير اسس الفن ان يؤدى بنا الى الانعزال التام عن العلم . ولتجنب سواء المبالغة فى قيمة السمات القومية او التقليل منها ينبغى ، اول الامر ، التفتيش عن جذور هذه السمات فى الحياة ، والكشف بعدها عن تجلياتها الخاصة فى الثقافة ، ولاسيما الثقافة الفنية .

ان ابداع الفن لا يقتصر على خلق الصورة القومية ، بل يخلق صورة سيكولوجية معقدة للانسان ، تراعى كافة علاقاته الاجتماعية ، وبينها العلاقات القومية . وفى هذه الظروف لا بد للقومى من ان يتشابك مع الطبقى . **اما الفن الرجعى لاية امة ، حيث يبتعد عن حقيقة الحياة ، فانه يتعارض مع مصالح الشعب ، وبالتالى – مع ما يشكل مضمون القومى حقا .**

فالقومى حقا لا ينعكس الا فى الفن التقدمى . والسمات القومية لهذا الفن تجعله قريبا ومفهوما للشعب الذى يعيش فى ظروف طبيعية وتاريخية متشابهة نسبيا ، ذلك انه يتشكل لديه ستيريوتيب دينامى معين من الرؤية الفنية للواقع والاستعادة الفنية له ، تتشكل ، كما يقال ، الصورة القومية الذاتية للعالم الموضوعى . وهنا لا يقصد بالقومى

الذاتى النزعة الذاتية ، التى تقحمها ، مثلا ، الطبقات السائدة على اى تصوير للواقع ، وانما رؤية العالم الجمالية الخاصة ، التى تكونت تاريخيا لدى هذه الامة . والصورة الفنية ملموسة دوما ، ولكن كيفية رؤيتها واستيعابها واستعادتها تتوقف على مستوى التطور الاجتماعى للانسان ، وعلى اى فن قومى تربى فى الحالة المعنية .

ان الفنان الذى يعيش فى وسطه القومى يستوعب من الابداع الشعبى الحس الجمالى والرموز الفنية . ومن الطبيعى ان انعكاس السمات القومية للحياة يكون لدى هذا الفنان الانعكاس الاصدق . وفضلا عن ذلك ، فبحكم كون الفنان يفكر من خلال التمثيلات ، التمثيلات القومية على الاغلب ، فانه قومى ليس فقط عندما تكون السمات القومية المألوفة موضوعا له . فهو يحتفظ برؤيته الجمالية القومية المتميزة حتى عند تصوير اية حياة قومية اخرى .

اما منطق الفنان ، حتى وكل انسان ، فانه ليس قوميا . صحيح ان التفكير المجرد لا يوجد ولا يفعل بمعزل عن التأمل الحى ، وانما يكون فى وحدة معه . فالتفكير يشارك فى التعميم الفنى للالوان والاصوات الاقرب الى التأمل الحى للفنان القومى المعنى . ولكن فى حين تترك السمات القومية بصماتها على اشكال التعبير عن الافكار ، فان الافكار ذاتها ، ومنطق التفكير ذاته ، انسانية عامة .

فحتى حين يصور الفنان حياته المحض قومية قد يعكس الافكار الانسانية العامة . والفنان الاصيل هو الذى يستخدم الصور القومية كأدوات للتعبير عن الافكار الانسانية . ويساعد التفكير على تفريد النمطى القومى ، ولكن رسالته الرئيسية تقوم فى رصد السمات الاممية فى الخاص القومى .

ولكن من المهم التأكيد ، فى معرض الاشارة الى خصوصية تأثر الانسان بالفن القومى المألوف له ، ان بوسع كافة الناس الاستيعاب والفهم العميق لاى من ضروب الفن ، وفى اى من اشكاله القومية . فما لا بد منه هنا هو فقط توفر تربية جمالية معينة . فالمشاعر والاذواق الجمالية ، والقدرة على سبر اغوار الفن القومى المعنى ، ليست صفات

فطرية لدى الانسان ، وانما تتكون فى مجرى حياته . وبوسع الانسان ان يتقن كل الاتقان اية لغة قومية ليس فقط كأداة لنقل الافكار من حيث معناها ، بل وكأداة تعبيرية تصويرية ، بكل نبراتها وتشبيهاتها واستعاراتها ، الخ . بعبارة اخرى : يمكن اتقان اية لغة ادبية فنية قومية ، يمكن استيعاب الصور الكلامية وفهم الافكار والانفعالات ، المميزة للناطقين بهذه اللغة . ولا يتطلب هذا امتلاك مشاعر فطرية ما ، ولا «روح» قومية . فالنظر والسمع البشريان ، اللذان يسميان حاستيين «عقليتين» قادران على التوسيع اللامحدود لاطار رؤية العالم .

ولكن هذا لا يتناقض مع حقيقة ان الناس ، الذين تربوا على فنهم القومى ، هم الذين يفهمونه ويتأثرون به اكثر من غيرهم (تأثرهم بالمنظر الطبيعى المألوف لهم) . ويكون كل شعب اكثر استيعابا للاعمال الفنية التى تتجسد فيها مشاعر وافكار تتجاوب مع افراحه او اتراحه ، محبته او كراهيته ، ميله ونفوره . ومن الطبيعى انه فى ادبه وموسيقاه ورسمه ومسرحه وسينماه يلتقى ، قبل كل شىء ، بالمشكلات البشرية العامة ، وما يتصل بها من احاسيس وافكار ، ولكنه يتعرف فيها ، فضلا عن ذلك ، على الطريقة القومية فى نقل هذه الاحاسيس ، وعلى نبرتها العاطفية ، وهو يصل بسهولة الى استنتاجات ، لا يوحى بها المضمون وحده ، بل ومجمل النسيج الفنى واللغة للعمل المعنى . وان المشاعر القومية للقارىء او المشاهد او السامع تتجاوب بسهولة مع الصورة الفنية الصادقة . ثم ان خصوصية الفن القومى تعز على ابناء الامة المعنية لاعتبار آخر ، هو انها تعكس الجميل فى الواقع القومى (الطبيعة ، العادات والتقاليد التقدمية) ، ولانها تعكس اى واقع فى صورة قومية قريبة منهم ، تغدو بالنسبة لهم ذات قيمة جمالية مستقلة . وهذا الفن الواقعى ، الذى لا يكتفى بتصوير الظواهر الجميلة فى الحياة القومية ، بل ويكون صادقا فى تصوير كافة الظواهر ، بما فيها الظواهر التى تعوق تقدمه ، انما يساعد على نمو وعى الذات القومى .

ان القول بأن لثقافة كل شعب (امة) جذورها القديمة ،

وبأنها تتشكل على مدى قرون عديدة ، هو قول صحيح بحد ذاته . ولكنه يغدو خاطئا عندما ينطلق منه للزعم بأن ثمة ارتباطا سلاليا مباشرا فى تطور مختلف جماعات الناس الاتنية وثقافاتها ، وعندما يتجاهل واقع انه الى جانب اختلاط العناصر الاتنية كان يجرى دوما تفاعل واغتناء متبادل بين ثقافات الشعوب .

ولا يتكون تصور صحيح عن الامة وثقافتها الا عندما تستجلى مصادر العام والخاص فيها على السواء .

وان دراسة تاريخ الشعوب الفعلى لتبين جليا ان القومى ينطوى على الانسانى ، على الاممى . ولذا فان اعتبار القومى هو فقط كل ما يخص الامة المعنية دون غيرها انما يعنى الابتعاد عن واقع الحال . ومن المهم ، عند الحديث عن السمات القومية ، الا ننسى ، اولا ، انها ليست لا عقلانية فى شىء ؛ ثانيا ، ان قسما منها قد يغدو عاما لعدد من الامم ، حتى وللامم كافة .

ان ثقافة اى من الامم لا تصنع بمعزل عن تأثيرات ثقافات الامم الاخرى ، ولا تكون ثروة محصورة بالامة المعنية وحدها ، والا فسيكون من غير المفهوم كيف يجرى الاغتناء المتبادل للثقافات القومية . فعناصرها ، التى تعتبر اليوم اممية ، كانت ، فى حينها ، خاصة ، وكان من المتعذر انتقالها للآخرين لو لم يتجسد العام فيها .

ومثلما لا تأتى اعمال الفنانين «تعبيرا عن ذواتهم» وابداعا لـ«الوعى البحت» او لـ«السيكولوجية العميقة» ، بمعزل عن العالم الخارجى ، كذلك هو حال فن الامة ككل ، وثقافتها عامة ، فهى ليست «تعبيرا عن ذات «روح قومية» خفية ، او تيارا لوعى باطنى خاص بالامة . فالثقافة هى اقل الامور مراعاة للحدود ، ناهيك عن ان التقدم الاجتماعى للبشرية يساعد على تذليل الحواجز على طريق تداخل الثقافات القومية واغتنائها المتبادل . ولكن الامبريالية تقف عائقا على هذا الطريق ، فتنصب حواجز جديدة ، بحيث يتشكل العالم المنسجم فى الظروف الصعبة للمجابهة الحادة بين الاشتراكية والرأسمالية . وفى النضال

ضد الثقافة الرجعية ، ومن اجل تطوير الثقافة الديمقراطية والاشتراكية ، تنير الطريق للقوى التقدمية الموضوعة اللينينية فى «الثقافتين» ، وما ينبع منها من تحليل ملموس لمكانتهما ودورهما ، لماهيتهما الطبقية وسماتهما القومية .

ولا تكون ثقافة الامة قومية حقا الا عندما تمثل ثقافة الكادحين الديمقراطية التقدمية . وتشكل الثقافة القومية التقدمية حلقة عضوية من ثقافة البشرية فى هذه المرحلة او تلك من تطورها التاريخى .

٢ – الاممى والقومى فى الحياة الروحية . ديالكتيك المضمون الطبقى والسمات القومية لاشكال الثقافة

ان العوامل الاممية والقومية لا تتواجد ابدا بمعزل بعضها عن الآخر . وتتجلى وحدتهما منذ عصر الرأسمالية ، فبظهورها تبدأ عملية اكتساب الثقافة المادية والروحية طابعا امميا ، عالميا . فمع تطور الانتاج الصناعى صارت الثقافة المادية ، التى تنطوى على شتى جوانب انتاج ومعيشة الشعوب المختلفة ، اكثر فاكثر اممية . فانتاج الادوات البدائية فى الوسط الاقتصادى الثقافى الضعيف التطور كان ينطبع بالخصوصية القومية (الاقليمية ، على الاصح) ، اما التكنيك المعاصر فلا يتسم بطابع قومى ، اللهم باستثناء بعض المنشآت المعمارية وبعض صنوف ادوات العمل او التصميم الفنى design لوسط ايقولوجى معين (من التوندرا وحتى منطقة شبه الاستواء) . ويؤدى ادخال التكنيك المعاصر فى الانتاج الصناعى الى تسوية الخصوصيات الاتنية فى ميدان الانتاج . فالاشكال البدائية من الثقافة المادية تختفى عمليا من الانتاج والمواصلات والنقل والبناء . وتجرى تغيرات متنوعة وعميقة فى ثقافة المعيشة ايضا ، وهى اشد ميادين الثقافة ثباتا واستقرارا ومقاومة للتغير .

ثم ان التغيرات فى الاساس المادى لوجود الناس ونشاطهم تستدعى ايضا تغيرات مقابلة فى حياتهم الروحية ،

التى تكون ذات سمات قومية فى اطار الوحدات الاتنواجتماعية المختلفة . والحياة الروحية لهذا الشعب او ذاك تتشكل فى مجرى تطوره الاجتماعى . ولكن الجوانب المختلفة من الحياة الروحية — الثقافة والايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية وغيرها — لا تكون معزولة احدها عن الآخر ، بل تترابط فيما بينها ترابطا عضويا . والثقافة الروحية هى الجانب الاساسى بين الجوانب المذكورة من الحياة الروحية وهى ، وان كانت لا تستنفد كل مضمونها ، فانها تلعب من حيث تعدد المناحى وسعة شمول مختلف الجوانب ، الدور الحاسم فى تحديدها . ويكفى القول ان عددا من العناصر المهمة فى الثقافة وثيق الارتباط بالايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية ، اللتين تندرجان ، من نواح كثيرة ، فى الثقافة الروحية .

والثقافة الروحية ظاهرة معقدة ، تشتمل على انتاج القيم وتوزيعها واستهلاكها فى ميدان العلم والفلسفة والاخلاق والفن والتعليم وغيرها . وتغلب فى الادبيات الفلسفية السوفييتية وجهة النظر ، التى تنطلق فى فهم الثقافة من النشاط الخلاق للانسان ، من تطوره كشخصية فى اى من ميادين النشاط الحياتى ، اما الاشكال الشيئية لوجود الثقافة فتأتى نتاجا لهذا النشاط الخلاق . وبالاتفاق مع هذه الرؤية تعرف الثقافة بانها النشاط الخلاق المبدع للانسان ، سواء منه النشاط السالف المتجسد والمتشيىء فى القيم والتقاليد والقواعد والمعايير الخ . التى تنقل من جيل الى آخر الخبرة التاريخية للبشرية ، او — وفى المقام الاول — النشاط الحالى القائم على نزع شيئنة هذه القيم والمعايير وغيرها ، اى النشاط ، الذى يجسد مضمون هذه الخبرة فى قدرات الافراد الابداعية فى مجرى تحوير الانسان لعالم الاشياء ولعالم العلاقات الاجتماعية ، على السواء . وان هذا الفهم للثقافة يتيح تتبع نمو وتطور القوى والقدرات البشرية الذاتية التى تشكل ، فى الوقت ذاته ، معيار التناسب الجديد بين الاممى والقومى فى حياة الناس .

وبما ان الثقافة الروحية ذات مضمون متنوع ومعقد

ينبغى الاخذ بالحسبان ايضا خصوصيات مختلف عناصرها البنيوية ، ومنها الخصوصيات التى تسبغ عليها طابعها القومى والاممى ، وجوانب جديدة من الروابط والوظائف . و«القومى» و«الاممى» مفهومان مترابطان . ولكى نستجلى المكانة (القيمة) المستقلة نسبيا لكل من هذين المفهومين ، اللذين يحضران فى مختلف عناصر الثقافة بنسب متفاوتة ، يمكن اصطلاحا دراستهما كلا على حدة .

ان كل انسان يكون ، فى وقت واحد ، ممثلا للبشرية كلها ، وعضوا فى طبقة او فئة اجتماعية ، فى امة او شعب او جماعة قومية . وهو يرتبط ، بوصفه نتاجا لعلاقات اجتماعية تاريخية معينة ، بكافة الروابط الاجتماعية الطبقية والقومية الاتنية لامته او لشعبه . وبما انه لا وجود لجماعات او لثقافات قومية «نقية» ، فان كل فرد يكون ، فى آن معا ، حاملا للقومى وللاممى فى وحدتهما .

وان نمط حياة كل شعب يتحدد اساسا بظروفه الاجتماعية الطبقية ، ولكنه يتمتع بخصوصية قومية ، هى انعكاس لسمات وسطه المتكونة تاريخيا . ويستتبع تغير الوسط الاجتماعى القومى تغيرا فى خصوصية حياة الشعب (الامة) الروحية ، وفى طابع التفاعل بين القومى والاممى فيها .

ان حياة الفرد الروحية تعبير عن روابطه وعلاقاته الاجتماعية . فكلما اتسعت الروابط الاجتماعية وتعمقت ازدادت حياة الفرد غنى وثروة . وفى تعامل الانسان مع العالم المحيط يقوم بـ«شيئنة» خبرته الاجتماعية ، فيجسد قدراته ومهاراته ومعارفه فى القيم المادية والروحية التى ابدعها . ولكنه ، فى الوقت ذاته ، «ينزع الشيئنة» ، يستوعب القدرات والمهارات والتجربة الاجتماعية لامته ، وللامم الاخرى ، وللبشرية كلها . وفى الحياة الروحية للامة (للشعب ، للمجتمع) يرتبط الحاضر بالماضى ، ترتبط خبرة الشعب الاجتماعية بخبرة الامم الاخرى ، بخبرة البشرية عامة . وتندرج هذه الرابطة ، بكل تنوعها ، فى التشكلات الموضوعية للثقافة المتكونة تاريخيا .

وكلما ازدادت عزلة الشعوب احدها عن الآخر كانت

سماتها المميزة اشد واعمق . ولكن من المهم التنويه بأنه حتى فى هذه الظروف ، وبحكم القوانين العامة للتطور الاجتماعى ، لا يكون القومى معزولا عن العالمى ، فهما يكونان دوما فى وحدة ، وحدة العام والفردى . وتلك هى ايضا العلاقة بين القومى والاممى .

وقد كشف لينين عن الديالكتيك العميق ، الملازم لظواهر الطبيعة والمجتمع والفكر ، فى قوله : «لا يوجد الفردى الا فى الرابطة المؤدية الى العام . والعام لا يوجد الا فى الفردى ومن خلال الفردى . وكل فردى يكون (على نحو او آخر) عاما . وكل عام يكون (جزءا او جانبا او ماهية) للفردى . ولا يحيط العام ، اى عام ، بكافة الاشياء الفردية الا احاطة تقريبية . وكل فردى ، اذ يندرج فى العام ، لا يندرج كاملا ، وهكذا» * .

ان الاممى يندرج بجانب منه ، على نحو او آخر (حتى عبر حلقات تاريخية معقدة) ، فى القومى-الخاص (الفردى) . واذا كان هذا الاخير لا ينطوى على اية ذرة (فى صورة معدلة ، بالطبع) من العالمى ، من العام ، فان هذا القومى-الخاص يبقى ظاهرة طريفة منعزلة . فهو لا يساهم بشىء فى اغناء الثروة القومية ، فى اغناء ثروة الشعوب الاخرى ، فيغدو ، بمرور الزمن ، غير لازم حتى لامته ، لشعبه . وبالعكس ، فان ما هو قومى حقا ينطوى على شىء ذى قيمة عامة ، فينخرط فى عملية الاغتناء المتبادل ، ويغدو امميا ، عالميا . وهذا العالمى ، بدوره ، حين يغدو ملكا لامة اخرى ، يكتسب صيغة قومية-خاصة ، فى الادب والفن مثلا .

ويتفاعل الاممى (العالمى) والقومى فى حياة الامم والشعوب الملموسة . فهما يتداخلان على الدوام : ان كل ما هو تقدمى فى القومى يغتنى فى مجرى تطوره بعناصر من الثقافة الروحية للشعوب الاخرى ، ويغدو ملكا امميا ، وبالتالى ملكا قوميا للامم والشعوب الاخرى . وهذا القومى ، اذ يتطور فى الظروف

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٩ ، ص ٣١٨ («الدفاتر الفلسفية») .

القومية الخاصة الجديدة ، ويغتنى بصفات قيمة جديدة ، انما يعنى ، من جديد ، الثروة العامة لكافة الشعوب . وهذه العملية سوف تجرى بصورة مستمرة ، وتبقى حتى مرحلة زوال الامم ، ومعه زوال الاممى والقومى ، فى المجتمع الشيوعى الناضج ، بثقافته الرفيعة التى توفر امكانيات لا محدودة للاصالة والفرادة . اما طالما ظلت الامم (الشعوب) باقية لا يمكن للثقافة التى تبدعها ان تكون غير قومية او فوق قومية . فحتى الظواهر المحض اممية (عالمية) بمضمونها وشكلها ، كالعلوم الطبيعية والتكنيك والفلسفة العلمية وغيرها ، تكون قومية ، بمعنى انها تصنع من قبل ابناء امة معينة ، وتشكل ملكا لهذا الشعب او ذاك . فالاممى خارج الامة سيكون تجريدا ، لا حياة فيه . اما العام الحى فيجسد كل غنى الخاص والفردى .

ويكون مضمون الثقافة اجتماعيا دوما ، واجتماعيا طبقيا فى المجتمع الطبقى . وينعكس المضمون الاممى (العالمى) للثقافة فى صيغ جد متنوعة ، تكتسب سمات قومية فى الظروف الخاصة لحياة هذه الامة ، او تلك . فقد صاغت شعوب العالم فى مجرى تطورها التاريخى اشكالا متنوعة (جملة من اساليب وطرق التعبير) من الابداع الفنى . ويتمتع الفن المحترف المعاصر باكثر هذه الاشكال تطورا . وحين تصنع الشعوب هذه الاشكال او تستعيرها فانها تطورها على ارضيتها القومية ، وتسبغ عليها سمات قومية . وبما ان السمات القومية تغدو شكلا خاصا لوجود هذه او تلك من ضروب الفن ، سيكون من غير الدقة تسميتها اشكالا قومية للفن .

اما الانعكاسات القومية-الخاصة لاشكال الفن العالمية (الاممية) فانها تصبغها بصبغة حية ، تمثل السمات القومية لاشكال تجليات مضمون الحياة والفن . وعليه ، فاذا فهم «الشكل القومى» لا بمعنى سماته القومية ، بل بمعنى شكل الفن عامة ، يكون قد تم تبديل مفهوم بآخر . واستنادا الى هذا التبديل ، او بسبب الخطأ في الفهم ، يرى بعض نقاد الفن ، الذين لا يرغبون فى الاخلال بديالكتيك المضمون والشكل ، ضرورة النظر الى المضمون نفسه على انه قومى ، طالما سلمنا بأن الشكل قومى .

واخيرا فان هذا التبديل يؤدى الى تجاهل المحدد الرئيسى للفن ككل ، تجاهل ماهية النظام الاجتماعية الطبقية ، مما يسفر عن النظر الى الفن على انه وحدة مجردة للمضمون الفنى وللشكل الفنى . هذا فى حين ان للفن ، كشكل من الوعى الاجتماعى ، طبعته الاجتماعية ، الى تمثل وحدة للجوانب المعرفية والايديولوجية والجمالية .

ان مصطلح «الشكل القومى» لا يعبر عن شىء واقعى الا عندما يستخدم كمرادف لـ«السمات القومية للشكل». والسمات القومية لا توجد بمعزل عن شكل الثقافة ، وبالتالى – عن مضمونها ايضا . وهى لا تقحم عليها من الخارج ، على نحو ميكانيكى ، وانما تندرج عضويا فى الشكل . كما ان الشكل نفسه لا يحاكى الوعاء ، الذى يستوعب المضمون ، ويجعله شبيها به . وتمثل سمات الشكل القومية جانبا معينا من المضمون ، وتحديدا – جانبه الذى صنعته ، على الاغلب ، خبرة الشعب (الامة) المعنى الاجتماعية التاريخية . ومن ذلك ان الاوبرا ، مثلا ، ظهرت فى ايطاليا ، وصارت عالمية ، ولكنها تطورت فى البلدان الاخرى وفقا لخبرتها الاجتماعية عامة ، وخبرتها الموسيقية خاصة ، فطرأت عليها تعديلات هامة ، بحيث ظهرت تسميات ، مثل «الاوبرا الروسية» ، «الاوبرا الفرنسية» ، الخ . لقد ظل الشكل الاوبرى عالميا (امميا) ، اما التسميات المذكورة فانها تؤكد على الاكتشافات الفنية الجديدة التى اغنت بالسمات القومية مضمون فن الاوبرا وشكله ، على السواء . ويمكن ايراد امثلة مشابهة بالنسبة لسائر ضروب الفن المحترفة .

وهنا ينبغى التأكيد ان الاكتشافات الفنية القومية تغدو عالمية (اممية) بمرور الزمن ، مما يثبت ، مرة اخرى ، صحة الموضوعة القائلة بأن الاممى والقومى لا يتواجدان بصورة مستقلة . فهما يشكلان ، فى كل مرحلة من التاريخ ، وحدة جديدة .

واذا كانت العلاقة بين الجديد والقديم (البالى) تتغير دائما لصالح الاول ، فيزيح الجديد القديم ، فان العلاقة بين الاممى (العالمى) والقومى تخضع لقانونية مغايرة . فالقومى

نفسه يتطور دائما ، مما يتضح جليا فى ظل الاشتراكية ، ففى كل مرحلة منها يغدو القومى اكثر تطورا . فكل المكتسبات الاممية لاى شعب تغدو ملكا قوميا له ، **فالقومى لا يزيحه الاممى ، بل ، على العكس ، يغتنى بفضله ، ويتخذ ملامح جديدة .**

ان لكل جماعة قومية سمات اتنية تشكلت تاريخيا ، لا توجد مستقلة بحد ذاتها ، فى صورة محضة ، ولكنها ، مع ذلك ، تتكشف فى الثقافة . ففى تغيرات الخصوصية القومية للفن ، مثلا ، تنعكس تغيرات اساسه المادى – حياة الامة (الشعب) المعنية . ثم ان الانعكاس نفسه لا يحافظ ، فى كليته ، على الخصوصية الابداعية ، فحسب ، بل ويضاعف منها ، ولاسيما فى ظل الاشتراكية . وقد قدمت الماركسية اللينينية البرهان النظرى ، وجاء واقع البلدان الاشتراكية ليقدم الدليل العملى ، على انه كلما كانت الشعوب اكثر ثقافة وتحصيلا تكون اكثر قدرة على التعبير عن غنى ثقافتها فى صيغة اشد فرادة واصالة وخصوصية . وقد نوه ماركس وانجلس «بأن ثروة الفرد الروحية حقا تتوقف كلية على غنى علاقاته الواقعية» ، وقرنا اقامة الروابط التاريخية العالمية بالثورة الشيوعية ، بالمجتمع الشيوعى ، ليؤكدا انه فقط بفضل ذلك يتحرر الافراد من مختلف الاطر القومية والمحلية ، وينخرطون فى رابطة عملية بانتاج (بما فيه الانتاج الروحى) العالم كله ، ويغدو بامكانهم اكتساب القدرة على استخدام هذا الانتاج المتنوع لكل الكرة الارضية (استخدام كل ما صنعه الناس)» * .

وطوّر لينين هذه الفكرة ، ففند المزاعم القائلة بحتمية التسوية بين الثقافات فى ظل الاشتراكية . فقد برهن على ان ازالة الحواجز القومية لا تؤدى الى جعل الثقافات كلها نمطا واحدا ، بل انها ، على العكس ، تفسح المجال للتنوع الحقيقى فى تطورها . فخلع البرجوازية العالمية «يسرع الى حد هائل سقوط الوان **الحواجز** القومية ، ولكنه بذلك لا يقلل ، بل يزيد بملايين المرات ، من «تفرع» البشرية ،

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٣٦ («الايديولوجية الالمانية») .

بمعنى غنى وتنوع الحياة الروحية والتيارات والميول والمسوح الفكرية» * . وفى الوقت ذاته ينبغى التنويه بأن غنى تنوع الثقافة لا يرتبط حتما بالتنوع القومى . فغنى العلم ، مثلا ، لا يزداد فى الاطر القومية ، رغم التعزز المطرد ، وخاصة فى عصرنا ، لدوره الحاسم فى تطور ثقافات كافة الامم .

ان العلم ، كجملة فروع معرفة الطبيعة والمجتمع التى تشكل الحقيقة هدفها الاسمى ، يندرج فى الثقافة الروحية لهذه الامة او تلك ، ولكنه يبقى دوما امميا (عالميا) بجوهره ، بنتائجه . وليست العلوم الطبيعية طبقية ولا قومية . اما العلوم الاجتماعية فطبقية طالما ظلت الطبقات قائمة ، ويمكن ان تستجلى الحقيقة الموضوعية فيها من مواقع الحزبية الشيوعية ؛ ولكنها ، هى الاخرى ، ليست قومية ، وانما انسانية عامة ، بوصفها عكسا علميا نظريا للواقع . فخصوصيات الموضوعات ، التى يشتغل بها علماء هذه او تلك من الامم ، وغلبة مدارس علمية معينة فيها ، لا تجعل العلم قوميا . اما عبارات ، مثل «العلم الروسى» ، فيقصد بها العلم الذى وضعه العلماء الروس ، لا الطابع القومى للعلم نفسه .

وليس ثمة ماركسية روسية وايطالية واسبانية وصينية وغيرها من الماركسيات القومية ، مثلما لا توجد رياضيات قومية ، او حقائق موضوعية قومية ، فهى ، كما بين لينين ، انما تسمى موضوعية لانها لا تتوقف على الانسان او البشرية . **ولكن اكتشاف حقائق التطور الاجتماعى اصعب منه فى اى علم آخر** . ومن هنا ينطلق بعض التحريفيين ليقدموا افكارهم الخاطئة عن التطور الاجتماعى على انها ماركسية قومية ، وذلك تحت ستار ضرورة اشاعة التعددية الماركسية اللينينية تبعا لتنوع الواقع القومى . وفى الوقت نفسه لا يندر ان يتناسى التحريفيون نزوعهم لجعل الماركسية نفسها قومية ، فيطرحون تأويلاتهم الخاطئة للتطور الاجتماعى ليس فقط باعتبارها الماركسية الوحيدة الملائمة للبلد المعنى ، بل — وبالتناقض

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٨١ («العمل الرئيسى لانتهازى المانى عن الحرب») .

مع النظريات «التعددية» ذاتها – باعتبارها ماركسية ، صالحة لمناطق كاملة ، حتى وللعالم بأسره .

ان كافة النظرات العلمية عن المجتمع ، السياسية والحقوقية والاخلاقية والجمالية والفلسفية ، عالمية واممية فى جوهرها . ولكن فى المجتمع الطبقى التناحرى لا تأتى معرفة قانونيات التطور الاجتماعى فى صالح الطبقات الاستغلالية ، ولذا فان ايديولوجييها يسبغون على هذه المعرفة رداء صوفيا غيبيا . وبنتيجة ذلك لا يمكن للوعى الاجتماعى للطبقات التناحرية ان يتجلى فى اشكال قومية عامة ، فلا يمكن ان تكون لدى الطبقات المتناحرة فى الامة الواحدة آراء سياسية موحدة عن الدولة ، ولا عن العلاقات بين الطبقات او الامم . ولا يمكن قيام آراء حقوقية موحدة حيثما تجعل الطبقة السائدة من ارادتها قانونا ، وذلك بالتعارض مع مصالح ومتطلبات الطبقة المضطهدة ، وبالتالى – مع نظراتها الحقوقية . وكذلك تعبر الآراء الاخلاقية والجمالية عن موقف طبقى معين من الواقع ، وان كان الفن ينطوى على سمات قومية عامة . فحتى فى النضال الوطنى التحررى ، حيث تتحد مختلف الطبقات بهدف نيل استقلال الامة ، تعى هذه الطبقات المصالح القومية من زاوية مصالحها الطبقية الخاصة . فبوسع الفكر الفلسفى ان يعبر عن التطلعات القومية للشعوب ، وان يعكس طابع ومصالح النضال الوطنى التحررى (فلسفة الديمقراطيين الثوريين) ، ولكنه لا يغدو ، من جراء ذلك ، فلسفة قومية خاصة على نطاق الامة .

اما الفلسفة الماركسية اللينينية فانها ايديولوجية الطبقة العاملة ، المتسقة فى ثوريتها ، وهى ، كعلم ، مذهب انسانى عالمى من حيث المبدأ ، لا فلسفة قومية . فحتى اذا ظهر لدى فلاسفة هذه الامة او تلك اهتمام خاص بمشكلات نظرية هى اكثر ارتباطا بتاريخ امتهم ، مثل مشكلات الانتقال الى الاشتراكية بدون المرور بالرأسمالية ، فان هذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، تحويل الماركسية اللينينية الى فلسفة قومية .

وعليه ، فان العلوم الطبيعية والتكنيك ، وكذلك العلوم الاجتماعية ، لا تتسم بطابع قومى . فالخصوصيات القومية انما تميز عناصر من الثقافة الروحية ، كالادب والفن ، واساليب

معينة فى السلوك ، والعادات والتقاليد وطابع التربية ، الخ . ولكن من الضرورى التنويه بان الثورة العلمية التكنيكية تسبغ طابعا امميا (عالميا) متزايدا حتى على ميادين الثقافة الروحية هذه ، وتعزز ، فى الوقت ذاته ، تنوعها وفرادتها . بيد انه فى ظروف الرأسمالية يكون من الاصح التحدث لا عن اكتساب الثقافات طابعا امميا ، بل عن صيرورتها كسموبوليتية ، اى عن ابتلاع الثقافات القومية من قبل ثقافات «الامم النموذجية» ، ثقافات البلدان الامبريالية ، التى صارت ثقافتها «الجماهيرية» و«العصرية» ثقافة كسموبوليتية .

وعى الذات القومى

تنعكس فى وعى الناس الاجتماعى علاقاتهم القومية والاممية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثافية . ويشكل الوجود القومى جزءا عضويا من حياتهم ، ومصدرا لظهور واستعادة وتطوير ميدان الوعى الاجتماعى ، الذى يسمونه وعى الذات القومى .

١ – دور وعى الذات القومى (الحقيقى والمزيف) فى الحياة الاجتماعية

ان **وعى الذات القومى** ينمو من الظروف التى تلعب الدور الحاسم فى ظهور الامة وتطورها . فوحدة الروابط الاقتصادية والارض واللغة ، وكذلك وحدة السمات الاتنية والقومية للنفسية وللثقافة ، والعادات والتقاليد تولد لدى افراد الامة المعنية وعى وحدتهم القومية – وعى الذات القومى .

اما ماهية الوحدات وكيفية ائتلافها ، لتغدو عوامل موضوعية فى ظهور وعى الذات القومى وتطوره ، فأمر يتوقف على السبل الملموسة لتشكل الامة المعنية . ولكن وعى الذات القومى ، بغض النظر عن طبيعة العوامل التى لعبت الدور الاكبر فى ظهوره ، ما ان يظهر حتى يكتسب استقلالية نسبية ، ليصبح احد اهم شروط استمرار وجود وتطور الامة ، التى تغدو وحدة من الناس ، الذين تجمعهم ليس فقط الروابط الموضوعية (الاقتصادية ، الجغرافية ، الخ) ، بل والروابط القائمة على وعى الذات القومى . ووعى الذات القومى ، كونه انعكاسا لعمليات ومقدمات عميقة فى تشكل الامة ، مدعو للتعبير عن المصالح القومية الموضوعية ، النابعة من وضع الامة فى نسق العلاقات الاجتماعية ، وضمنا العلاقات الدولية .

يفسر لينين «اليقظة القومية» التى بدأت منذ اواخر العصر الوسيط بأنها جاءت ، قبل كل شيء ، نتيجة مصلحة المجتمع الاقتصادية فى انتصار الرأسمالية على الاقطاعية . اما فى مرحلة تغلغل الرأسمالية فى المستعمرات فترتبط هذه «اليقظة» بتنامى مقاومة شعوب البلدان المستعمَرة لمستعبديها . وفى عدد من الحالات يغدو النزوع الى الاستقلال القومى ، الى تشكيل الدولة القومية ، كما هو الحال مثلا فى افريقيا وآسيا فى القرن العشرين ، عنصرا حاسما فى القرن العشرين ، عنصرا حاسما فى وعى الذات القومى . ورغم ان القرابة الاتنية ليست شرطا اكيدا لتشكل الامة فان التلاحم القومى يستند الى المجاورة فى الارض (لتشكيل ارض قومية مشتركة) والى قرابة سمات الثقافة والنفسية وغيرها .

ينظر ايديولوجيو البرجوازية الى الامة على انها وليدة وعى الذات الجماعى (مجموع وعى الناس ، الذين يحسون ويفكرون على نحو واحد) . كما ويفهمون وعى الذات القومى فهما موسعا ، فيدرجون فيه الايديولوجية القومية المتعصبة للطبقات السائدة ، ويصورون هذا «الوعى القومى العام» عاملا مستقلا قائما بذاته ، ومؤشرا وحيدا للأمة . ولكن هذا فهم غير علمى ، لانه يتجاهل الاساس المادى الذى ولد وعى الذات القومى ، فيحول استقلالية هذا الوعى النسبية الى استقلالية مطلقة .

ولكن الوعى الاجتماعى ، ووعى الذات كجانب منه ، لا يملكان ، برغم كل دورهما الكبير ، الا استقلالية نسبية . فالانسان يدرك ويعى لا العالم الموضوعى المحيط ، فقط ، بل ووجوده الشخصى ايضا . فيظهر لديه وعى الذات ، اى وعيه لوضعه فى المجتمع ، ولعلاقته بالآخرين وبمختلف الجماعات ، ولمصالحه ومشاعره وافكاره . وهذه الاخيرة لا ترتبط بحاضر البشرية وحده ، بل وبماضيها ، فتعى الشخصية ارتباطها بالمجتمع ، وخاصة بطبقتها وبأمتها . ويعنى وعى الذات ان الانسان يوجه وعيه نحو ذاته ، نحو تقييم مكانه فى المجتمع وقدراته وطابع احاسيسه وافكاره وتصرفاته . ولكنه لا يستطيع تقييم هذا كله الا بالمقارنة مع الناس الآخرين ،

الذين يرتبط بهم بعلاقات معينـــة . وقد اشار ماركس فى «رأس المال» الى انه نظرا لكون الانسان يولد بدون مرآة ، ولكونه ليس فيلسوفا مثل فيختة القائل «انا هو انا» ، فانه «ينظر الى نفسه فى الآخر ، كما فى المرآة» * . بعبارة اخرى : لكى يعى الانسان «الانا» عليه ، اولا ، ان يدرك «الهو» . وفضلا عن ذلك ، يترتب عليه ان يعرف لا «الهو» فقط ، بل وكافة امثاله ، الذين يؤلفون جماعات معينة ، اى ان يعى من «هم» ، وعندئذ يمكن له ان يفرز نفسه وكافـــة امثاله فى «النحن» . ويغدو هذا ممكنا بفضل كون كل انسان انما يعيش ويفعل لا مثل روبنسون كروزو ، بـــل ينخرط فى مختلف العلاقات الاجتماعية مع اناس من مختلف الجماعات المهنية والطبقية والاتنية وغيرها ، فيعى من خلالها نفسه بوصفـــه جزءا من هذه الفئة الاجتماعيـــة او تلك . وهذه الجماعات كثيرة : بدءا من صديقين وانتهاء بالبشرية كلها .

ان الجماعات البشرية جد متفاوتة من حيث طبيعتها — من الجماعات العابرة المؤقتة (رفقة عرضية ، حشد) وحتى الجماعات الثابتة والمستقرة (الطبقات ، الوحدات الاتنواجتماعية) . كذلك فان وعى المرء لطابع جماعته واختلافها عن غيرها يتفاوت من الوعى الغامض المبهم وحتى الوعى العلمى . «فالعالم كلـــه ينقســـــم الى معسكريـــــن : «نحن» ، الكادحين ، و«هم» المستغِلين * * . وبما ان لدى كل انسان جملة من «النحن» و«الهم» فان وعيه لذاته ، وسلوكـــــه بالتالى ، يكون اكثر وضوحا كلما كان ادق فهما للعلاقة بين مختلف الجماعـــات ولمكانتها وشأنها . فعندما يعى الانسان انتماءه الاتنى ، مثلا ، ويعى معه ان تضامنه الطبقى هو الحاسم ، لا تظهر لديه ، فى دفاعه عن المصالح القومية ، تناقضات مستعصية بين وعى الذات القومى والطبقى . ثم ان وعى الذات يشكل اداة حيوية هامة لضبط الذات فى المنظومة المعقـــدة من علاقات المرء بالآخرين فى المجتمع ، وفى علاقاته الطبقية والقومية وغيرها ،

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٣ ، ص ٦٢ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٢٣ («هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة ؟») .

وبدون ادراك العلاقة الحقيقية لمختلف ال«نحن» وال«هم» يكون من السهل فقدان التوجه الصحيح فى السلوك . فيطرح المرء ، مثلا ، تقدم انتمائه القومى على وضعه الطبقى ، مما يؤدى الى التعتيم القومى للوعى الطبقى ، الى الخلط الفعلى بين مفهومى «نحن» و«الاخرون» . ولا يلعب وعى الذات القومــــى دورا ايجابيا كبيرا الا عندما لا يفقد اساسه الطبقى ، فيعبر عن المصالح القومية تعبيرا صحيحا . وتبعا للسبل الملموسة لتشكل الامة يبرز ابناؤها ، فى وعيهم القومى ، هذه المؤشرات او تلك على انها اهم مقومات الامة . ولذا سيكون من الخطأ الانطلاق ، مرة واحدة والى الابد ، من جملـــــة ثابتـــة من المؤشرات ، والقول ان غياب احدها او فقدانه يعنى انهيار الامة . هذا ناهيك عن ان هذا القـــــول تعوزه الرؤيـــــة الديالكتيكية ، ذلك ان وجود الامة لا يتحدد دوما بالمؤشرات الناضجة والجاهزة .

وفى الوقت ذاتـــه يمكن لوعى الذات القومى ، بخلاف اساسه المتمثل فى الظروف الموضوعية لوجود الامة ، ان يستمر بصورة مستقلة نسبيا ، وان يفعل على نحو قوى حتى بعد التقويض المؤقت لهذا الاساس ، ومن ذلك ان تقويض وحدة العلاقات الاقتصادية والارض والدولة فى فترات تقسيم الامة البولونية * كان ، فى الوقت ذاتـــه ، تهديما لصرح الامة ، ولكن قوميتها ووعيها القومى ، الذى انعكس فيه النزوع لبعث الامة ، ظلا قائمين . وينبغى هنا التأكيد انه اذا كان لا يعقل وجود الامة بدون اناس يدركون انتماءهم اليها ، فان وجود اناس ، لهم وعى ذات اثنى واحد ، لا يكفى لكونهـــم امة . فلكى تتطور القومية الى امة يلزم ، فضلا عن وعـــى الذات الاثنى ، تكوين (او بعث) الظروف الموضوعية التى

---

* تبعا لاتفاقيات بطرسبورغ ١٧٧٠ــ١٧٩٠ قسمت بولونيا (ثلاث مرات ــ١٧٧٢ ، ١٧٩٣ ، ١٧٩٥) بين بروسيا والنمســـا وروسيا ، وبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا اعلنت الحكومة السوفييتية فى آب ــ اغسطس ١٩١٨ عن الغائهـــا لاتفاقيات الحكومة القيصرية الخاصة بتقسيمات بولونيا .

يمكن لوعى الذات القومى ان يتكون (او تكون فى حينه) على اساسها .

ويكون نسب المرء ذاته الى امة معينة معللا علميا اذا اعطى اجابة دقيقة على السؤال التالى : على اساس اية معايير موضوعية يعى ارتباطه بابناء هذه الامة ، لا غيرها ؟

ان وعى الذات القومى يضرب جذوره الموضوعية فى مصالح الناس . وقد بين ماركس وانجلس ، فى ضوء جملة من الامثلة الملموسة ، ان بعض الجماعات ، التى تمثل اطراف الامم الكبيرة ، قد تدفعها مصالحها الاقتصادية الاجتماعية العميقة لنسب نفسها الى امم اخرى . وليس هذا الا تبديلا لوعى الذات القومى ، ودليلا على انه ليس امرا غريزيا ، ولا ينطوى على شىء صوفى خفى . فحتى اذا كانت العوامل الموضوعية ، التى ولدت وعى الذات القومى ، غير متوفرة فى الفترة المعنية يمكن دوما تتبع العوامل ، سواء منها التاريخية او الحالية ، التى تغذى هذا الوعى . وللقيام بذلك ينبغى بدلا من البحث عن الوحدة الخفية لتكوين الامة النفسى ، النظر فى وقائع ، مثل تراث الامة الديمقراطى وذكريات نضالها التحررى وكل ما من شأنه ان يشكل ملكا قوميا للامة باسرها .

ووعى الذات القومى معقد ، ذو مستويات مختلفة ، فعنصره الاول والاساسى هو وعى الانتماء الاتنى . وهو يظهر قبل ردح طويل من تشكل الامة : لدى الناس البدائيين مثلا ، وذلك على اساس وحدة الدم واللغة ، وما تكون بحكم ظروف الحياة غير الطبقية من وحدة التكوين النفسى وبعض عناصر الثقافة . وكان وعى الانتماء الاتنى (والجماعة الاتنية نفسها) لدى شعوب المجتمعات الطبقية الاولى يتولد على ارضية مغايرة – وحدة الارض واللغة . ثم ان التصورات والآراء ومعايير السلوك الاتنية ، بوصفها من مقدمات الوعى اليومى ، تشكل وعى الذات القومى ، بالمعنى الضيق للكلمة . فادراك الناس لانتمائهم الاتنى يتكون لديهم بغض النظر عن انتمائهم الطبقى ، ولا يتطلب تعميما نظريا . صحيح ان التقييمات الطبقية تنسحب على الظواهر الاتنية ايضا ، ولكن هذه الظواهر ، بحد ذاتها ، موجودة موضوعيا ، بغض النظر عن اية تقييمات لها . بيد

انه حتى لدى الشعوب لا يُرد وعى الذات القومى الى وعى الانتماء الاتنى فقط . فكيف بالامة ، بما لها من بنية معقدة من المشاعر ووعى الذات القومية والاجتماعية الطبقية .

ينطوى وعى الذات فى الامة على : ١ – وعى الوحدة الاتنية والموقف من الاتنوسات الاخرى ، ٢ – الولاء للقيم القومية : اللغة والارض والثقافة الديمقراطية ، ٣ – وعى الوحدة الاجتماعية الحكومية ، ٤ – النزعة الوطنية patriotism ، ٥ – وعى الوحدة فى النضال الوطنى التحررى . وان من شأن التعمق اللاحق فى بحث هذه المشكلة غير المدروسة كفاية بعد ، مشكلة وعى الذات القومى ، ان يساعد ، بالطبع ، فى سبر اغوار مضمونه وبنيته .

وعليه ، فان وعى الذات القومى ، بالمعنى الواسع للكلمة ، ينطوى ، فضلا عن ادراك الانتماء الاتنى ، على عناصر متناقضة طبقيا ، ولذا فانه يرتبط ، شأن وعى الذات الطبقى ، ببعض التعميم النظرى ، الايديولوجى . وهو يشتمل على تصورات وآراء اعضاء الامة (الشعب) حول طابع افعال امتهم والامم الاخرى ، وخصوصيتها ، الخ . ولدى البروليتاريا والكادحين السائرين خلفها يتضمن وعى الذات القومى النزعة الاممية ، اما لدى الطبقات الاستغلالية فينعكس فى العصبية القومية والشوفينية والعنصرية .

ولكن ليس من الضرورى لعناصر وعى الذات القومى المذكورة ان تحضر كاملة دوما . ففى حين يكون وعى الانتماء الاتنى والولاء الوطنى للقيم القومية ملازمين ، الى هذا الحد او ذاك ، لكافة الوحدات الاتنواجتماعية ، فان ادراك وحدة المصالح فى النضال الوطنى التحررى ووحدة الدولة انما يتطور بظهور الرأسمالية ، فى فترة يقظة الحياة القومية . ثم انه اذا كان وعى الانتماء الاتنى لا يحتوى على عناصر طبقية ، فان العناصر الباقية من وعى الذات القومى ، ومعها وعى الذات القومى ككل بالمعنى الواسع للكلمة ، تكون طبقية ، فتتسم بالموقف الطبقى من الحياة القومية ومن الامم والشعوب الاخرى .

كما وتختلف عناصر وعى الذات القومى فيما بينها بان

من شأن بعضها ان يتخلف عن الوجود القومى ، فى حين يمكن لبعضها الآخر ان يتقدم عليه . ويمكن للامـــة ، من حيث مؤشراتها الموضوعية ، ان تتجلى قبل ان يعى كل افرادهـــا حقيقة وجودها ، وبالعكس ، فيمكن لوعى الوحدة القومية ان يظهر قبل تشكل هذه الوحدة . ومن الناحية الاتنية لا يبرز التمييز الدقيـــق بين «نحن» و«هم» فور تشكل هذه الوحدة الاتنواجتماعيـــة او تلك . ولدى الفلاحين ، المنحدرين من تشكيلة سابقة على الرأسمالية ، يجرى استيقاظ الوعـــى الاتنى على نحو بطىء بصورة خاصة .

وثمة صعوبات بالغة ، تعترض طريق تحديد قومية الابناء الذين ينتمى آباؤهم الى قوميات مختلفة . حتى وتظهر صعوبات كهذه حتى عندما يدور الحديث عن قومية اخلاف آباء من امة واحدة ، ولكنهم ولدوا وتربوا فى الوسط الثقافى لامة اخرى ، فاكتسبوا ، عمليا ، سماتها .

ومن شأن الاخصائيين بهذه المسألة المساعدة فى تذليل مثل تلك الصعوبات ، وذلك بتسليط مزيد من الضوء على المعايير الموضوعية فى تحديد القومية . كما وينبغى ، فى الوقت ذاته ، توضيح ان الفوارق القومية-الاتنية بين الناس لا تنطوى ، بحد ذاتها ، على اية قيمـــة . فدستور الاتحاد السوفييتى يطالب باحترام كرامة الناس القوميـــة ايا كان انتماؤهم القومى . ومن المعروف انه ليس الانتماء الى هذه الامة (الشعب) او تلك هو الذى يحدد كرامة الانسان . وقد وقف لينين ضد تجاهل السمات القومية ، ذلك ان مراعاتها لا تعوق فهم الناس من ابناء مختلف القوميات ، وتوطيد الاخوة بينهم ، بل ، على العكس ، تساعد عليـــه . ولكنه كتب فى الوقت ذاته يقول : «علينـــا تربية العمال بروح «اللامبالاة» حيال الفوارق القومية» * . فيكفى اسباغ ظل من التقييم عـــلى هذه الفوارق ، بمعنى ايها احسن وايها اسوأ ، حتى تسير العلاقات القومية فى منحى خاطىء . ولهذا كان لينين ، وهو

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، ص ٤٤ («خلاصة مناقشة حول تقرير المصير») .

يناضل ضد النفى الكسموبوليتى للفوارق القومية ، يرى ، فى الوقت ذاته ، انه لا يجوز الانزلاق الى العصبية القومية ، وكان يطالب بضمان الاولوية للعناصر الاممية فى تربيـــة الكادحين .

ان المعرفة بالمعايير الموضوعية لتحديد القومية ، وادراك حقيقة ان هذا الانتماء القومى او ذاك لا يضيف شيئا منها ، يتيحان لكل مواطن امكانية تجنب الكثير من المصاعب فى تحديد قومية ابنائه .

ان لينين ، والماركسيين اللينينيين عامـــة ، قد اكدوا مرارا تقدمية كل تقارب بين الامم وكل اندماج بينها ، اللهم باستثناء القسرى منه ، ولكنهم لم يعملوا ابدا على دفع هذه العملية . ولم يكونوا ، فى الوقت ذاته ، من انصار العزلة المصطنعة بين القوميات وانغلاقها احداها بالنسبة للاخرى . وان فهم المرء للعوامل التى تجعله يحدد انتماءه القومى فى ضوئها يقدم وعى الذات القومى بالمعنى الضيق للكلمة ، وهو الوعى الذى يشكل احد مقومات القوميـــــة . وثمة باحثون يفترضون ان وعى الذات القومى ككل يشكل مؤشرا للامة . ولكنه يتعذر الموافقة على ذلك ، ذلك ان عناصره الاخرى (التى يمكن لها ، فى مرحلة معينة ومن نواح محددة ، ان تكون قومية عامة) ينبغى النظر اليها على نحو خاص ، يراعى سواء اهميتها بالنسبة للتلاحم القومى ، او جوهرها المتناقض طبقيا .

ومن المهم ، على طريق التحديد الدقيق لمضمون مفهوم «وعى الذات القومى» ، استجلاء علاقته بمفهوم «الوعى القومى» . فليس من النادر ان يستخدم ، بدلا من مفهوم «وعى الذات القومى» ، مفهوم «الوعى القومى» ، الذى ينظر اليه ، فى هذه الحالة ، على انه جزء من الوعى الاجتماعى ، وينظر الى وعى الذات القومى على انه عنصر من مضمون الوعى القومى . وعندما يتضح من السياق ان المفهوم الاخير مرادف لوعـــــى الذات القومى يكون عدم الدقة شيئا ينبع حصرا من المصطلحات . وعندما يميز بينهما ، بحيث يقال بوجود وعى قومى فوق طبقى فضلا عن وعى الذات القومى ، تبرز عندئذ ضرورة دراسة هذه المسألة .

ان القول بوجود وعى قومى خاص يستنـد عادة الى ان وعى الذات القومى جزء منه ، وانه لا يمكن للثانى ان يظهر اذا لم يكن الاول موجودا ، وبما انه ينظر هنا الى الوعى القومى كجزء من الوعى الاجتماعـــى ، يقال ان وعى الذات القومى يندرج فى الوعى الاجتماعى لا على نحو مباشر ، بل كعنصر من مضمون الوعى القومى . وقد يتراءى هذا القول منطقيا للوهلة الاولى . بيد انه عند التمعن يتبين ان الناس من اية قومية ، اذ يختلفون بعضهم عن بعض بوعى الذات القومى ، انما يكونون ذوى ايديولوجية ونفسية طبقية ، لا قومية . وهذا امر طبيعـــى . فالوعـــى ، من الناحيـــة السوسيولوجية ، هو انعكاس مصالح الناس وتصوراتهم فى الفلسفة والعلم والفن ، وفى الايديولوجيـــة السياسيـــة والحقوقية ، وفى الاخلاق والدين ، اى فى كافـــة تجسيدات الوعى الاجتماعى . وهذه كلها تكون اما طبقية او اممية . صحيح انه حتى لدى الطبقات المتناحرة فى هذه الامة او تلك تكون ثمة مصالح عامة ، ولكن ادراك تلك المصالح لا يعطى وعيا قوميا ، بل وعى ذات قوميا ، لا يعكس الا الموقف من دائرة محدودة معينة من القيم .

ان السمات القومية للنفسية ، شأن الوجود القومـــى المتميز والعلاقات القومية ، انما تنعكس جلية فى وعى الذات القومى بالضبط . وهذا الوعى هو ، بالمعنى الواسع للكلمة ، ادراك الامة لتجربتها الاجتماعية بكل خصوصياتها القومية ، لجملة السمات والمصالح العامة ، لمجمل مضمون حياتهـــا ونشاطها . ففى وعى الذات القومى ينعكس كل سلم التوجهات القيموية والثقافية ، ودينامية المشاعر القومية .

وقد يتراءى للوهلة الاولى وكأن ثمة مضمونا واحدا ، يدل عليه البعض بمفهوم «الوعى القومى» ، ويدل عليـــه آخرون بمفهوم «وعى الذات القومى» . وعندئذ يكون الخلاف خلافا حول اسلوب التعبير . ولكن الامر ليس كذلك . فالطبقات المؤلفة للامة تكون ذات مصالح متعارضة فى النقاط الحاسمة للتطور الاجتماعى ، فتفكر على انحاء مختلفة . ولكنها فى الوقت ذاته تعى شيئا مشتركا فى المصالح القومية ، فى التطور

القومى ، وهذا الشيء المشترك هو ما يعبر عنه وعى الذات القومى .

وفى وعى الذات القومى يتركز وينعكس كل ما ينسبه بعض الباحثين الى الوعى القومى . وبالنسبة للامة (خلافا للطبقة) يفضل استخدام مفهوم «وعى الذات القومى» بدلا من «الوعى القومى» لسبب اضافى آخر ، هو ان الحياة القومية ، برغم انها تترك بصماتها على وعى كل فرد ، انما تمر عبر المصفاة الطبقية ، وتنعكس على انحاء مختلفة فى ادمغة اناس فى صورة احاسيس وافكار وحركات ارادية . **ولكل طبقة طريقتها الخاصة فى فهم امتها ، فى ادراك مصالحها القومية .** ولذا يتعذر الدفاع عن مشروعية مصطلح «الوعى القومى» استنادا الى القول انه ينبغى اعتباره انعكاسا للوجود القومى . فهذا الوجود هو من التفاوت بين الطبقات بحيث ينعكس فى الوعى الطبقى ، لا القومى . فوعى البرجوازى من امم مختلفة يكون واحدا ، ويكون مختلفا عن وعى البروليتاريا من كافة الامم .

كما ولا يصلح حجة لصالح تفضيل مصطلح «الوعى القومى» الاستناد الى الحالات التى يستخدم فيها كلاسيكيو الماركسية اللينينية مفهوم «الافكار القومية» او «الايديولوجية القومية» . فلننظر فى هذه الحالات . فى مسودة رسالة انجلس الى جينارو بوفيو بتاريخ ١٦ نيسان - ابريل ١٨٧٢ جاءت الكلمات التالية : «يبدو لى ان الافكار القومية **حقا** فى الحركة العمالية ، اى الافكار التى تستجيب للعوامل الاقتصادية ... تكون دائما افكارا **اممية** حقا فى الوقت ذاته» * . وفى «تقرير حول مسألة «البروليتاريا والحرب»» كتب لينين يقول : «كان من المتعذر الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية بدون افكار قومية» ** . ولكن هنا لا يقصد انجلس ولينين الايديولوجية القومية ، بل تلك الافكار التى تعلل ضرورة تذليل التجزئة الاقطاعية واقامة الظروف المواتية للتطور

---

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣٣ ، ص ٣٧٤ .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٣٥ .

الرأسمالى . اما بخصوص مصطلح «الايديولوجية القوميـــة» فان لينين قد استخدمه للدلالة على الوعى المشوّه . ففى معرض نقده لشعار «الدفاع عن الوطن» فى الحرب الامبريالية ١٩١٤-١٩١٨ الذى استند انصاره الى عصر ١٧٨٩-١٨٧١ ، كتب لينين يقول : «ان الايديولوجية القومية التى خلقها هذا العصر قد تركت آثارها العميقة فى جمهور البرجوازية الصغيرة وقسم من البروليتاريا . ويستخدم سفسطائيو البرجوازية ومن يمشى فى ركابهم من خونة الاشتراكية هذا الآن ، فى عصر مغاير تمامــــا ، عصر الامبريالية» * . ويعود لينين الى هذه الفكرة فى «خلاصة مناقشـــــة حول تقرير المصير» ليدين «التستر بالايديولوجية القومية على السياسة الامبريالية» ** .

وهكذا فان استخدام كلاسيكيى الماركسية اللينينيـــــة لمصطلح «الايديولوجية القومية» لا يعنى ابدا قولهم بواقعيته . على العكس ، فانهم يؤكدون على العواقب السلبية للايمان بواقعية الايديولوجية القومية . ويتجاهل بعض الباحثين هذه الحقيقة فيوردون احيانا ، فى معرض التدليل على واقعيـــــة الايديولوجية القومية ، حتى واقعة كون ماركس وانجلس قد سميا احد اعمالهما بـ«الايديولوجية الالمانية» . وهنا لا ينتبه هؤلاء الى ان ماركس وانجلس يستخدمـــان فى هذا المؤلف مصطلح «الايديولوجيا» بمعنى الوعى المشوه الزائف ، فيدرجان فيه الدين ، وانهما لم يعمما هذه الايديولوجية على الامـــة الالمانية كلها .

ان الطبقات السائدة تقدم الايديولوجية القومية على انها ايديولوجية ، تعبر عن مصالح الامة ككل *** ، فى حين ان هذه الايديولوجية هى ايديولوجية التعصب القومى ، التى تعبر

---

* المصدر السابق ، ص ١٦٢-١٦٣ .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، ص ٢١-٢٢ .

*** كان شوفينيو تركيا العثمانية والفاشييون الالمان يصورون حتى الابادة العنصرية الجماعية لشعوب كاملة امرا ، يتجاوب مـــع مصالح اممهم . وعلى هذا النحو يتصرف الاسرائيليون اليوم ، وهـــم يمارسون سياسة الابادة العنصرية حيال الشعب الفلسطينى والشعوب العربية الاخرى .

عن مصالح البرجوازيــــة والتى تتناقض بذلك مع مصالح الجماهير الكادحة . اما ايديولوجية حركة التحرر الوطنى فهى ذات مضمون مغاير تماما ، واقعى وايجابى ، طبقى . ولا يجوز الخلط بينها وبين الايديولوجية القومية . ويبدو لنا ان ما قلناه يقدم الحجة المقنعة للتمييز بين مفهومى «الوعى القومى» و«وعى الذات القومى» ، بحيث يفضل استخدام مصطلح «وعى الذات القومى» تفاديا لسوء الفهم ، ففيه ينعكس على اتم وجه وجود الامة ، بمصالحها العامة وبتناقضاتها الطبقية معا .

ويرتبط وعى الذات القومى ارتباطا وثيقــا بالمشاعر القومية . وهاتان الظاهرتان من مرتبة واحدة ، ولهما اصــل مشترك واحد ، وموضوع مشترك تعكسانه – السمات القومية لحياة الامة (او الشعب) المعنية ولثقافتها وتقاليدها وعاداتها ، حتى ولاوهامها . اما الفارق بينهما فيعود الى اختلاف مستويات الانعكاس . فالمشاعر القومية تلعب دورا هائلا فى سلوك الناس . وكان لينين يؤكد دوما على انه «يلزم حذر خاص ازاء الاحاسيس القومية» * . ثم ان المشاعر القومية ووعى الذات القومى تتفاعل سواء بعضها مع الآخر او مـع الظروف الموضوعية المولدة لها ، لتغدو عاملا هاما جديدا فى وجود الامة وتطورها .

وان المثالية ، التى تصور الامة ماهية روحية ، تشوه طبيعة المشاعر القومية ايضا . فهذه المشاعر ، من وجهة نظر المثاليين الموضوعيين ، نتائج لتجلى جوهر الامة الروحى . اما المثاليون الذاتيون فيصورون المشاعر القومية اسقاطات للانفعالات الذاتية (التى يزعمون انها واحدة ومشتركة بين كافة افراد الامة) على الواقع القومى . وهذا الاحساس الواحد لافراد الامة بالواقع القومى هو الذى يشكل ، على حد زعمهــم ، المشاعر القومية .

وعلى النقيض من الفهم المثالى للمشاعر القومية تنطلق

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٨ ، ص١١١ («مادة مشروع فى ميدان العلاقات القومية») .

المادية التاريخية من ان هذه المشاعر حصيلة الممارسة الاجتماعية التاريخية للناس الذين يفعلون على ارضية وحدة الروابط الاقتصادية واللغة والارض . فالناس ، الذين تربطهم هذه الوحدة ، يتفاعلون مع الوسط الطبيعى والاجتماعى ، فتتولد لديهم مشاعر مشتركة ، تسمى بالمشاعر القومية وتشكل لونا من المشاعر الاجتماعية . وبما ان الانسان لا يعيش فى وسط اجتماعى مجرد ، بل فى وسط اجتماعى قومى ، فان متطلباته ومشاعره تتسم بصبغة قومية معينة . ثم ان انفعالات الناس التى ترتبط بمصالح امتهم او شعبهم ، بكرامتها ودورها فى التقدم الانسانى ، وكذلك الاستيعاب الجمالى الاقرب للطبيعة الام ، للفن والادب ، تكون مشاعر قومية . ومن ذلك ، مثلا ، انه كان الوجود الموضوعى للموسيقى يولد الاذن الموسيقية لدى الانسان ، ويولد معها الحاجة الجمالية الى الموسيقى ، فان الوجود الموضوعى للموسيقى القومية المعنية يولد حاجة جمالية فى هذه الموسيقى القومية فى المقام الاول . كما وتشكلت تاريخيا لدى كل شعب تقاليد معينة فى الموقف من الازهار .

وهكذا فان المتعة الجمالية ، التى تأتى بفضل المعرفة الحسية لجمال الخصوصية القومية ، تولد ، هى الاخرى ، المشاعر القومية . وفى صورة مشاعر قومية يتبدى موقف الانسان من طبيعة بلاده ، ومن تصويرها فى الشعر او الرسم . وبما انه حتى الطبيعة تصور فى الفن من مواقع المشاعر البشرية فانه كلما كان هذا التصوير ادق فى عكسه للمشاعر القومية يكون استيعابه القومى المتميز اقوى واشد .

وعبر المشاعر القومية ووعى الذات القومى تمر كافة وقائع الامة المعنية ، او الشعب المعنى ، التى تشكل النزعة الوطنية .

٢ – الوطن والوطنية

تشغل النزعة الوطنية (patriotism : من اليونانية patris – وطن) ، المشاعر الوطنية والوعى الوطنى ، مكانة

هامة فى وعى الذات القومى ، وتلعب دورا كبيرا فيـــه . وكان ماركس وانجلس ولينين يعتبرون الوطنية احدى اهم وسائل التأثير على مشاعر الجمهور ومداركه .

وتحاول كل طبقة التأثير على المشاعر والمدارك الوطنية لكافة الناس بما يخدم مصالحها ، ولذا فان النزعة الوطنية لا تلقى وجهتها الصحيحة الا عندما تكون مصالح الطبقة القيادية تتوافق مع المتطلبات الموضوعية لتقدم المجتمع . والطبقة العاملة هى الطبقة الوحيدة ، التى تكون مصالحها مرتبطة دوما بمصالح كافة الكادحين . وفى الظروف المعاصرة ، ولاسيما فى مواجهة تزايد عدوانية الامبريالية الامريكية ، تعاظم على نحو خاص دور الوطنية كقوة سياسية جبارة فى الدفاع عـن السلام والتقدم والاشتراكية .

وترتبط الوطنية ، كظاهرة معقدة من ظواهـــر الوعـــى الاجتماعى ، بالموقف العاطفى والعقلانى من الوطن ، وفى ظـل الاشتراكية - بالموقف من الوطن الاشتراكى .

وقد لقيت الوطنية تأسيسها العلمى العميق وتطويرهـا اللاحق فى الماركسية اللينينيـة . فقـــد نـوه لينين بان «الوطنية - احد اعمق المشاعر ، التى رسختها مئات وآلاف السنين من حياة الاوطان المنعزلة» * . وليس من النادر ان يورد بعض الباحثين هذا القول بدون الانتبـــاه الى الكلمتين الاخيرتين : «**الاوطان المنعزلة**» . هذا فى حين ان هاتيـــن الكلمتين بالغتا الاهمية من اجل فهم الفارق الجذرى بيـــن الوطنية البروليتارية ، التى تتطابق مع الاممية ، وبيـــن الوطنية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة . فقد اكد لينين انه نظرا لكون الوطن وسطا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيـا وثقافيا ، متغيرا تاريخيا ، فان **الوطنيـــة ، هى الاخرى ، ظاهرة تاريخية** ، يتفاوت مضمونها من عصر الى آخر . ثم ان هذا المضمون لا يتحدد ابدا «بروح قومية او عنصرية» خفية ، كما يزعم ايديولوجيو البرجوازية ، وانما يعود الى هذه او تلك من الظروف الاقتصادية الاجتماعيـــة ومن الطبقـات

* لينين . المؤلفـــات الكاملة ، المجلـــد ٣٧ ، ص ١٩٠ («اعترافات قيمة لبيتيريم سوروكين») .

المتصارعة . وقد صارت للوطنية اهمية خاصة فى مرحلة تشكل العلاقات البرجوازية وصيرورة الامم . ولكن مع تطور واحتدام التناقضات بين الطبقات راح يتجلى ، كما اشار لينين ، كل زيف ورياء «وطنية» البرجوازية ، التى «**تخون** مصالح الحرية والوطن واللغة والامة عندما تنتصب البروليتاريا الثورية امامها» * . اما البروليتاريا فورثت النضال ضد الوطنية المزيفة . فحب الوطن يمتزج لديها بكراهية النظام الاستغلالى . ونزعتها الوطنية ترمى الى تقويض دعائم هذا النظام ، والى بناء الوطن الحق الاصيل .

ان جوهر الوطنية الحقة ، التى يتشابك فيها الفخار القومى بكره كل ما يعيب الامة ويحط من شأنها ، يتكشف عبر علاقات الانسان الاجتماعية ، عبر موقفه الفكرى السياسى سواء من ماضيه او من مجمل الواقع المعاصر المحيط به . وان كون الوطنية تتجلى ، فى المقام الاول ، فى النضال من اجل اقامة نظام اجتماعى لائق بالانسان ، هو ما بينه لينين فى عمله «بصدد كرامة الروس القومية» الذى وضعه فى معمعان الحرب العالمية الاولى ١٩١٤–١٩١٨ . فهنا يرد لينين على الاتهامات الفرية للبلاشفة بانعدام حس الفخار القومى عندهم ، لينوه ، اولا ، بان المضمون الاصيل للفخار القومى هو القيم المادية والثقافية الجليلة التى ابدعها الشعب ، وكذلك نزوعه الثورى لتصفية كل ما يضطهد الوطن ويذله . ولهذا بالذات لا يمكن لطليعة الشعب ان تكون غريبة عن مشاعر الفخار القومى . وكشف لينين ، ثانيا ، عن الخلفية الطبقية لما تقوم به الطبقات السائدة من استغلال انانى لمشاعر الشعب القومية ، وبينها مشاعر الفخار القومى . وبين لينين ان البروليتاريا تحب وطنها ، وتحب لغتها ، فلا يمكن لها «الدفاع عن الوطن» الا عبر النضال ، وبكافة الوسائل الثورية ، ضد «الملكية والاقطاعيين والرأسماليين فى **وطنها** ، اى ضد **أسوأ** اعداء . . . الوطن» * * .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٧ ، ص ٢٤١ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ١٠٨ («بصدد كرامة الروس القومية») .

في عام ١٩١٣ راح لينين يحذر الجماهير الشعبية في روسيا من الحرب الامبريالية التي يتم التحضير لها ، فلفت انتباهها الى آلية تشويه وعي الذات القومي ، حيث قال : «بآلاف الاشكال ، وبآلاف الصحف ، ومن على آلاف المنابر يصرخون ويولولون بصدد الوطنية والثقافة والوطن والسلام والتقدم – وهذا كله بهدف تبرير نفقات جديدة لعشرات ومئات الملايين من الروبلات على شتى معدات التدمير ، على المدافع ، على «الدريدناوتات» (مدرعات من احدث نمط) وما الى ذلك .

فيا سيدي الجمهور ، بودي القول بصدد عبارات «الوطنيين» هذه كلها : لا تصدقوا العبارات ، بل انظروا ، بالاحرى ، **لمصلحة من !**» * .

لقد تم التحضير لهذه الحرب ، شأن الحروب السالفة ، تحت شعارات مزيفة – «الدفاع عن الوطن» . وبصدد هذا الشعار عامة ، وبصدد فهمه من قبل ماركس وانجلس ولينين ، كوم ايديولوجيو الامبريالية واعوانهم من معسكر الانتهازية العالمية والتحريفية ، ولا يزالون يكومون ، تلالا من الافتراءات . اما محور تهجماتهم فهو موضوعة «بيان الحزب الشيوعي» : «ليس للعمال وطن» ، وهي الموضوعة التي يحرصون على اخفاء مضمونها الحقيقي . فهم يكتمون ان هذه الموضوعة كانت موجهة ضد اكاذيب البرجوازية ، الزاعمة ان الشيوعيين يهدفون الى الغاء الوطن ، فرد عليهم ماركس وانجلس بأنه لا يمكن للبروليتاريا ان تلغي ما لا تملكه . وطور لينين افكار ماركس وانجلس فبين أن البرجوازية باستغلالها الفظيع لعمال امتها وبنزعتها الكسموبوليتية تحطم وتشوه ارتباط العمال الحي بوطنهم ، ولذا فليس للعمال وطن حقيقي ، «ففي الواقع ليس الا لتقويض الوطن البرجوازي **وحده** ان يوفر لعمال كافة البلدان

---

* المصدر السابق ، ص ٦١–٦٢ («ولمصلحة من ؟») .

«ارتباطهم بالارض» وحرية اللغة الام وقطعة الخبز وخيرات الثقافة» * .

وان لينين ، اذ ينوه بالاهمية الجذرية لموضوعة «بيان الحزب الشيوعى» حول انه «ليس للعمال وطن» ، لا يترك مجالا للدوغمائية فى فهمها . فحتى قبل قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧ راح يؤكد «ان الدفاع عن الوطن شيء باطل فى الحرب الامبريالية ، ولكنه ليس باطلا ابدا فى الحرب الديمقراطية والثورية» ** .

ان ايا من ماركس وانجلس ولينين لم يدع ظلا من الشك فى ان البروليتاريا ، والكادحين عامة ، بحاجة الى وطن ، الى ارضية ، تنظم فوقها وتتطور الى الامام . فقد نوه لينين بانه «لا يمكن للبروليتاريا ان تقف موقف اللامبالاة حيال ظروف نضالها السياسية والاجتماعية والثقافية ، ولذا لا يمكن ان تقف موقف اللامبالاة من مصائر بلادها» *** . ولكن لينين يوضح هنا بأن «الوطن» ليس مفهوما مجردا . وكان لينين دقيقا على الدوام فى التفويق بين الفهم البروليتارى للوطنية وبين فهمها البرجوازى . وقد اشار الى انه كانت ثمة مرحلة تقدمية فى تطور البرجوازية ، كانت تناضل فيها ضد الملكية المطلقة والاقطاع ، وخاصة فى حروب عصر ١٧٨٩-١٨٧١ ، فكانت تتطابق فيها مؤقتا مصالح كافة الطبقات المنتمية الى «الفئة الثالثة» .

وفى مرحلة الامبريالية يبدأ عصر جديد فى تطور وعى الوحدة فى حركات التحرر الوطنى . فلدى مختلف طبقات البلدان المستعمرة يتكون نزوع مشترك نحو نيل الاستقلال الوطنى والحرية القومية . وقد اكد لينين انه فى ظل الاضطهاد الاجنبى ارتقت الشعوب «حتى الفكرة القومية» ،

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ١٢٤ («الروس الجنوبيون») .

** المصدر السابق ، المجلد ٣٠ ، ص ٦٩ («رد على ب . كييفسكى (ى . بيتاكوف)») .

*** المصدر السابق ، المجلد ١٧ ، ص ١٩٠ («العسكرية المقاتلة») .

التى صارت تتضمن مطلب الاستقلال الوطنى وانشاء الدولة الوطنية المستقلة . وصارت الفكرة القومية ، فى مفهومهـا هذا ، محور وهدف كافة حروب التحرر الوطنـى فى القرن التاسع عشر والعشرين تقريبا . واشار لينين فى الوقت ذاته الى ان الايديولوجية ، التى صنعتها حركات التحرر الوطنى ، قد تركت آثارا عميقة فى جمهور البرجوازيـة الصغيرة وجزء من البروليتاريا . كما وناضـل ضـد محاولات سفسطائيى البرجوازية سحب هذه الايديولوجية وتعميمهـا عـلى عصر الحروب الامبريالية ، واستخدامها لمصلحة الامبريالية .

ووقف لينين ضد سعى بعض الاشتراكيين الديمقراطيين لمحو الحد الفاصل بين الحروب الامبريالية والوطنية . حقا ان الموضوعة الاساسية فى الديالكتيك الماركسى تقول بأن كل الحدود فى الطبيعة والمجتمع حدود نسبية ومرنة ، «ولكـن السفسطائى وحده يمكـن ان يمحـو الفارق بين الحـرب الامبريالية والحرب الوطنية بحجة ان احداهما **يمكن** ان تتحول الى الاخرى . ولم يندر ان يستخدم الديالكتيك – وضمنا فى تاريخ الفلسفة اليونانية – جسرا الى السفسطة» * . وكانت لطروحات لينين هذه اهمية منهجية بالغـة . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فاثبتت تمام صحة ما سبق ان تنبأ به لينين من انه «حتى فى اوروبا لا يجوز اعتبار الحروب الوطنية فى عصر الامبريالية امرا متعذرا» * * . وفيما يخص آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية فان الحروب والثورات الوطنيـة فى هذه القارات قد اندلعت ، وبلغت شأنا منقطع النظير ، بعد الحرب العالمية الثانية فى ظل الضعف العام الذى حل بالامبريالية ، وظهور المنظومة الاشتراكية العالمية والنهوض العارم للحركة العماليـة والديمقراطيـة . وعلى انقاض الامبراطوريات الاستعمارية السابقة تشكلت عشرات الـدول الوطنيـة المستقلـة ، وصار لمسألـة الوطنية ، مسألـة تدعيم الوطن القومى والدفاع عنه ، شأن خاص والحاح شديد .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، ص ٦ (« بصدد كراسة اينيوس ») .

* * المصدر السابق ، ص ٨ .

وبعد نيل الاستقلال الوطنى السياسى راحت تنشط فى هذه البلدان القوى الديمقراطية التى تطالب بحل جذرى للمشكلات الاجتماعية ، مما يتناقض مع المصالح الطبقية للفئات البرجوازية . وفى الوقت ذاته نجد حتى اجنحة البرجوازية ، التى ناضلت من اجل الاستقلال الوطنى ، تتكشف نهائيا عن محدودية وطنيتها . فهى ، اذ تنصرف لضمان مصالحها الطبقية الضيقة ، تغدو قوة لا وطنية . اما البروليتاريا فترفع ، فى مجرى نضالها ضد البرجوازية فى سبيل المصالح الوطنية ، مستوى تنظيمها ووعيها الطبقى ، وتنقى وعيها الذاتى القومى من اوهام ورواسب الوحدة القومية غير الطبقية . والطبقة العاملة بالبلدان المتحررة جزء لا يتجزأ من البروليتاريا العالمية ، فتحظى بدعمها الثابت ، وتفيد من خبرتها الغنية ، وتكون بذلك قوة تقدمية فعالة . ولا شك فى ان نضال الطبقة العاملة بالبلدان الفتية ضد الامبريالية وحلفائها سوف يتخذ ابعادا اوسع فاوسع .

وفى مراحل تاريخية معينة تلعب البرجوازية الوطنية دورا تقدميا . ومن شأن مساهمة البرجوازية فى حركة التحرر الوطنى ان تجلب النفع ، فى المراحل الاولى ، للنضال من اجل التحرر . ولكن يأتى وقت ، تتكشف البرجوازية ، كطبقة ، عن حقيقة نزعتها القومية ، وهو ما حدث فى مصر والصومال .

فمصالح البرجوازية ، الرامية الى نيل الاستقلال الوطنى بهدف تطوير الرأسمالية ، تصطدم برغبة الجماهير الشعبية العريضة وعزمها على القيام بتحولات زراعية لصالح الفلاحين ، وانشاء وتنمية صناعة وطنية مستقلة عن الامبريالية ، ورفع مستوى السكان الحياتى ، واشاعة الديمقراطية فى الحياة الاجتماعية ، وتطوير التقاليد التقدمية فى الثقافة القومية ، والتعاون مع البلدان الاشتراكية ، اى انها تصطدم برغبة الجماهير الشعبية فى سلوك النهج اللارأسمالى فى التطور .

ان الخوف من شيوع الديمقراطية فى الحياة الاجتماعية ، من انخراط الجماهير الكادحة ومشاركتها الفعالة في النهضة

القومية وتعزز تأثيرها السياسى ، يدفع بالبرجوازية الى التعاون مع الاحتكارات والاقطاع المحلى والزعامة القبلية العشائرية . وفى هذه الظروف يترتب على الكادحين تدعيم وحدتهم ، واقامة جبهة وطنية موحدة جديدة ، موجهة سواء ضد الامبريالية او ضد الرجعية الداخلية . وتبين التجربة ان هذه الجبهة تضم الطبقة العاملة والفلاحين والبرجوازية الصغيرة المدينية والانتلجنسيا الوطنية ، وكذلك جزءا من البرجوازية .

ولكن الاسس الموضوعية لوعى الذات القومى لا تستثنى امكانية تأثره بالنزعة الذاتية ، التى تقحمها عليه الطبقات الاستغلالية . فمن مصلحة ايديولوجيى البرجوازية الايحاء للجماهير بأن اساس الامة هو ، على حد زعمهم ، وحدة المشاعر والمدارك القومية . ولكن كل طبقة تفهم قيمة الحياة القومية انطلاقا من مصالحها الخاصة . وبالاتفاق مع ذلك يتشكل نمط طبقى معين من الوطنية ، الامر الذى سبق للينين ان اعاره اهتماما خاصا .

ويعد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا ظهرت الوطنية الاشتراكية ، التى تتطور باستمرار .

٣ – الجوهر الطبقى والدور الرجعى لتشويه وعى الذات القومى

تتفق مختلف الطبقات فى ان حيوية الامة وفعاليتها تتناسبان طردا مع طابع ومستوى وعى الذات القومى (بالمعنى الواسع للكلمة) ، ولذا فانها ترسم مناهج سياسية متغايرة فى تربية وعى الذات القومى . فبعضها يطور هذا الوعى بما ينسجم تمام الانسجام مع المصالح القومية الحقيقية ، بينما يعمل بعضها الآخر على تشويه وعى الذات القومى ، بحيث يسهل عليها تقديم مصالح الطبقات الاستغلالية الانانية على انها مصالح قومية ، تعنى الامة بأسرها .

ثم ان الطبقات الاستغلالية لا تستفيد من ادراك الكادحين للمصالح القومية الحقيقية من زاوية مصالحهم الطبقية . ولذا فانها تخلق جوا معينا ، يساعدها فى التحكم بعمليات ادراك

الامم وفى رسم سياستها استنادا الى مشاعر العصبية القومية ، التى تقوم ، هى نفسها ، بغرسها وتأجيجها . فالبرجوازى ، الذى غطس حتى اذنيه فى مستنقع اوهامه الطبقية ، يبذل كل ما فى وسعه – كما نوه انجلس – لكى يفصّل المجتمع كله على مقاسه ، لكى يخضع كافة افراد المجتمع لمعاييره .

وتمثل العصبية القومية ، اى استبدال وعى الذات القومى بالوعى الشوفينى ، اداة لا بديل لها فى تشكيل النزعة الكونفورمية البرجوازية . وينبغى التأكيد على ان ايديولوجيى البرجوازية يستغلون النقص فى معالجة المشكلة النظرية ، الخاصة بالعلاقة بين وعى الذات القومى وبين النزعة القومية .

فبوقاحة بالغة شوه وعى الذات القومى على يدى الفاشية الهتلرية ، ويشوه اليوم من قبل الانتقاميين الالمان الغربيين و«الصقور» السياسيين الامريكان . فقد تم ضمان وحدة الالمان القومية الفاشية بفضل التعبئة المنهاجية لمشاعر الجماهير ومداركها بروح الكراهية للشعوب الاخرى ، التى زعموا انها تعوق تحقيق الالمان لمصالحهم القومية .

وقد امكن للنازيين ، الذين عملوا على تعبئة الالمان بالروح الشوفينية تحت شعار «الامة الالمانية فوق كل شىء» ، اعداد الكثيرين منهم لحرب ابادة شاملة ضد باقى الشعوب . ففى عام ١٩٣٨ قال هتلر فى حديث لرجالات الصحافة النازية : «ليس ترويج القوة بما هى قوة ، وانما تقديم العمليات السياسية الخارجية الى الشعب الالمانى فى صورة ، يبدأ معها الصوت الباطنى للشعب بالمطالبة التدريجية باستخدام القوة» * .

ومن المعروف ان مكنة الدعاية النازية قد قامت فعلا بخلق هذا الجو ، بحيث صارت اغلبية الشعب الالمانى يستوعبون كل الظواهر والاحداث ، سواء فى بلادهم او خارجها ، استيعابا مشوها للغاية . وان السبيل الخاطىء الذى

---

* نقلا عن : السياسة التوسعية والنازية الجديدة فى المانيا الغربية . درسدن – برلين ، ١٩٦٧ ، ص ١٦١ .

سلكته الامة الالمانية قد ادى – ولم يكن له الا يؤدى – الى كارثة قومية ، ولكن الاستنتاجات الضرورية منها لم تستخلص الا فى جمهورية المانيا الديمقراطية ، اى فى ذلك الجزء من المانيا الذى قرر فيه الشعب الالمانى بنفسه مصيره الذاتى. اما فى المانيا الغربية ، حيث ظلت تسود الاحتكارات الامبريالية ، فلا تزال الشوفينية تسمم وعى الذات القومى. وهنا ، ورغم ما قد يبدو من مفارقة ، يتم تكوين الكونفورمية الشوفينية من قبل قادة البلاد ، الذين لم ينسوا شيئا ولم يتعلموا شيئا فى الوقت ذاته ، فيسيرون بالبلاد على النهج الفاشى القديم فى تعبئة السكان النفسية.

وفى المانيا الاتحادية تعزز تشويه وعى الذات القومى وخاصة بعد وصول تحالف الاحزاب اليمينية الى الحكم – الاتحاد الديمقراطى المسيحى/الاتحاد الاجتماعى المسيحى. فتستمر سياسة اقامة «مجتمع متشكل» ، مستعد للاخذ بالالتزامات الشوفينية. ان «المجتمع المتشكل» هو مجتمع توتاليتارى ، ذو مشاعر قومية موحدة ووعى قومى (اقرأ : شوفينى) موحد. ذلك هو زعم الكونفورمية البرجوازية الشوفينية.

ان حشو مدارك الجماهير بالتصورات الباطلة عن مصالحها القومية ، وتشكيل الوعى القومى المتعصب والشوفينى على هذه الارضية ، نهج ، تسير عليه البلدان الامبريالية الاخرى ايضا. فقد بلغ تشويه وعى الذات القومى حدا خطيرا فى الولايات المتحدة الامريكية ، التى تفسر كل اعمالها الرجعية بضرورة الدفاع عن «المصالح القومية». وتتسع دائرة هذه «المصالح» لتشمل النيل من مستوى معيشة الكادحين ، حتى واغتيال الحياة نفسها : سباق التسلح الجامح ، وحروب الابادة ، وخنق بلدان امريكا اللاتينية بالديون الثقيلة ، والتوسع فى ميدان الثقافة ، وهلمجرا.

وقد وصلت الديماغوجية الاجتماعية فى خداع الامريكان ذروتها فى ظل ادارة ريغان ، التى لا تتورع عن ابشع انواع الافتراء والكذب. ومما يؤسف له ان الكثير من الامريكان يصدقون ان الحكومة الامريكية قد قامت لصالح الامة بشن

حربها القذرة على فيتنام ، وبقرصنتها فى غريناداً ، وبخنقها لوطنيى السلفادور ، وبمساعدتها لعصابات «الكونتراس» ضد نيكاراغوا .

وفى العصر الحاضر يجرى انشاء هدف قومى موحد فى امريكا على اساس ايديولوجية معاداة الشيوعية . فالعمل تحت هذا الشعار لاقامة وتدعيم الاحلاف والقواعد العسكرية ، ودعم الانظمة الرجعية فى العالم كله ، وسباق التسلح المنقطع النظير انتهاء بالاعداد لـ«حرب النجوم» (قتل البشرية النووى بهدف تصفية الشيوعية) – هذا كله يُعلن شيئا ضروريا «للمصالح القومية» الامريكية . وفى ظروف كهذه يظن الفرد ، الذى انخرط فى الاعداد للمغامرات الامبريالية ، انه يتصرف بتأثير مشاعره وآرائه ، فلا يعى احيانا انه فرض عليه السلوك الملائم لاعدائه الطبقيين . ويبقى بعيدا عن معرفة المصادر الحقيقية لمشاعره ، فيظل جاهلا بالبواعث الاصيلة لتصرفاته .

ويبرر ايديولوجيو الاحتكارات الامريكية سياستهم الاستعمارية الجديدة فى امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا بالاستناد ليس الى اعتبارات استراتيجية عسكرية فقط . وهم يوردون مختلف المعطيات الاحصائية حول نوعية وكمية ما يرد من هذه البلدان ، وذلك لاثبات انه بدون المواد الخام بأمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا يتعذر «ازدهار» الشعب الامريكى ، ولذا فان سياسة الاستعمار الجديد الامريكية تخدم مصلحة الامة الامريكية كلها .

وتتفنن الامبريالية الامريكية فى تشويه وعى الذات القومى لشعوب امريكا اللاتينية ، متسترة برداء الرابطة الامريكية . فامبرياليو الولايات المتحدة ، الذين سبق لهم عام ١٨٢٣ ان نادوا بمذهب مونرو («امريكا للامريكيين») ، يرفعون ، منذ ذلك الحين ، شعارات ديماغوجية ، مثل «وحدة القارة» و«اسرة نصف الكرة الغربى» ، يتسترون بها على صراعهم مع الدول الاستعمارية الاوروبية حول الاستغلال الاحتكارى للموارد العمالية والمادية بامريكا اللاتينية . ولهذا الهدف «يبرهن» هؤلاء على «الوحدة التاريخية والاقتصادية

والثقافية» المزعومة ، حتى و«الانسجام الروحى» بين بلدان القارة الامريكية وشعوبها .

وفى حين اتجه وعى الذات القومى لدى اهالى امريكا اللاتينية ضد المونروية ، ضد الوجود الاستعمارى ، ويتجه اليوم ضد السياسة الاستعمارية الجديدة ، فان الشوفينية الامريكية ، شوفينية الدولة الكبرى ، تسعى دوما للدخول فى تحالف البلدان الامريكية ، ولضمان هيمنتها فيه ، ولتأمين سيطرتها على كافة الشعوب الامريكية . ثم ان ايديولوجيى الامبريالية الامريكية قد عبؤوا وعى الذات القومى لدى الامريكان باتجاه التسليم بـ«حق» الولايات المتحدة فى التدخل فى اى بلد «عاص» ، «الحق» فى ان تلعب ، تبعا لنظرية تيودر روزفلت ، دور «الشرطى» و«القاضى» فى القارة الامريكية كلها .

وعندما يسمم الامبرياليون نفسية الناس ويخدرون وعى الذات القومى لديهم بالافكار الشوفينية ، مثل «التفوق الامريكى» و«الرسالة العالمية للامة الامريكية» ، ويتمكنون بذلك من شد اغلبية الامة الى عجلة سياستهم ، فانهم يتسترون على دورهم فى اشاعة هذه الكونفورمية ، ليتشدقوا بخصوصية التكوين النفسى للامة الامريكية ، وليطرحوا مذاهبهم على انها مطالب للروح الامريكية .

وقد كان الفيلسوف وعالم النفس الامريكى فروم على حق ، حين اشار الى انه بنتيجة الدعاية المغرضة الدائمة غالبا «ما يصدق الامريكيون بكل ما يحشون به ادمغتهم ، بحيث ان معظم الامريكيين يعتبرون من الامور البديهية عددا من الكليشهات ، مثل الزعم بان الروس ينوون الاستيلاء على العالم باسم الشيوعية الثورية» * .

ان الطبقات الاستغلالية ، التى تسعى دوما لتوظيف الامة كلها فى خدمة مصالحها الانانية ، معنية الى اقصى حد بتحسين وتطوير الآلية الخفية لتشويه وعى الذات القومى . وقد احرزت الامبريالية الامريكية قصب السبق فى هذا

---

* Fromm E. May man prevail? N.Y., 1961, p. 27.

المضمار .

وفى مواجهة التشويهات الذاتية لوعى الذات القومى ، ولاسيما المشاعر الوطنية ، تنتصب النظرية الماركسية اللينينية فى الامة ، وهى النظرية التى ترى ان وعى الذات القومى يتولد عن الظروف الموضوعية لوجود الامة . فادراك الناس لانتمائهم الاتنى امر مميز لكافة البشر ، بغض النظر عن انتمائهم الطبقى . ويتأثر وعى الذات القومى ، فى عناصره الاخرى ، بنمط ما يسود فى البلد المعنى من اسلوب فى انتاج العلاقات الطبقية القائمة .

ان المشاعر القومية ووعى الذات القومى تنطوى على قوة سياسية دينامية هائلة ، ولذا فان الطبقات المتصارعة واحزابها لا يمكن ان تكون غير مبالية بوجهة تشكل وعى الذات القومى . وفى حين يعكس وعى الذات القومى الحقيقى المصالح القومية الفعلية ، ويساعد ، بالتالى ، على تقدم الامة ، يسهل وعى الذات القومى المشوه مهمة استبدال الصراع الطبقى بصراع بين الامم ، وتحويل الكادحين الى اداة طيعة بيد الرجعية الداخلية للعدوان الخارجى . وبما ان التحاملات الاتنية والقومية المتعصبة لدى قسم ملحوظ من السكان تلحق خسارة فادحة بمصالح الكادحين الطبقية والقومية ، فان مهمة الماركسيين اللينينيين هى فضح الخلفية الطبقية للنفور وللكراهية القوميين ، والكشف عن آلية تكوين الستيريوتيبات القومية وترويج الاوهام الشوفينية .

ويأخذ الماركسيون اللينينيون بالحسبان ان ظروف الحياة فى المجتمع الاستغلالى تولد مشاعر ومدارك قومية

مشوهة ، فضلا عن التأجيج المصطنع لها من قبل مجمل مخزون دعاية الطبقات السائدة . ولكن مراعاة هذه المشاعر والمدارك لا تعنى المساومة او التكيف معها . فليس للقوى التقدمية ان تعتمد الا على المشاعر القومية التى تعكس المصالح القومية الحقيقية ، ولذا فانهم يرون مهمتهم فى تحرير وعى الكادحين الطبقى من ثقل العصبية القومية البرجوازية . ثم ان وعى الذات القومى لا يعكس المصالح القومية الا عندما يتحرر من مشاعر العصبية القومية ومداركها ، ويتشبع بروح النظرة الاممية .

الطبقات والامم والقومية

يتمتع الفهم الصحيح للعلاقة بين الطبقات والامم والقوميات بأهمية بالغة نظرا لقيمته المنهجية العامة من أجل حل الكثير من مشكلات العلاقات القومية . وينبغى الاخذ بالحسبان أن نفى ارتباط تطور الامة وعالمها الروحى بالطبقات وبالصراع الطبقى ، والمطابقة بين مفهومى «الامة» و«القومية» ، يستخدمان من قبل الرجعيين فى صراعهم ضد قوى الاشتراكية والتقدم ، وضد تعاضد الكادحين البروليتارى .

١ – الأمة والطبقات . فى الوحدة القومية ، الحقيقية والزائفة

ظهرت الطبقات بنتيجة تفسخ النظام المشاعى البدائى وقيام الملكية الخاصة . كذلك ظهرت الامم فى ظروف تاريخية محددة ، ولكن بعد ردح طويل من الزمن ، وذلك بظهور العلاقات الاقتصادية الرأسمالية . وقد تأثر تشكل الامم بالصراع بين جميع طبقات وفئات المجتمع الاقطاعى المحتضر . فكان الاقطاعيون يعارضون التلاحم الاقتصادى والمركزة السياسية لاقطاعاتهم ، فى حين كانت البرجوازية ، التى نمت فى احشاء الاقطاعية ، تتزعم عملية توحيد الامة . وكان الفلاحون والحرَفيون يناضلون ضد اصفاد القنانة ، ضد امتيازات اشراف المدن والفئات الحرفية . أما البروليتاريا السائرة فى طريق التشكل فكانت فى نضالها مع الاقطاعية تمهد لارضية قومية ، ترتكز اليها فى صراعها الطبقى . ولا يجوز النظر الى الامة والعلاقات القومية بمعزل عن الطبقات

والعلاقات الطبقية . وقد بين لينين ، فى ضوء امثلة ملموسة من التطور الاجتماعى لمختلف البلدان ، انه «فى كل مسألة سياسية ، جدية وعميقة حقا ، يتم التجمع وفقا للطبقات ، لا للامم» * .

ولتحديد الطبقة ، التى تمثل القوة القيادية للامة فى هذه المرحلة أو تلك ، وتعبر عن ارادتها ومصالحها ، ينبغى ، كما قال لينين ، طرح « المسائل الملموسة لكل أمة وفقا لدرجة تطورها ، وخصوصياتها ، الخ» ** ، والأخذ بالحسبان فى اية درجة «من التطور التاريخى تقف الامة المعنية : على الطريق من القرون الوسطى الى الديمقراطية البرجوازية ، ام من الديمقراطية البرجوازية الى الديمقراطية السوفييتية أو البروليتارية» *** .

وعند الطرح العام للمسألة يكون من الصحيح أن الطبقة القائدة للأمة هى الطبقة الحاملة لاسلوب الانتاج القائم فى صلب روابطها الاقتصادية . وهذه الطبقة هى التى تتزعم النضال من أجل انجاز المهمات التاريخية لتطور الامة ، وتلعب الدور الحاسم فى تحديد معالمها السياسية والاجتماعية والروحية ، وكذلك علاقاتها بالامم الاخرى . ولكن زعامة الامة تنتقل من طبقة (من البرجوازية) الى اخرى (الى البروليتاريا) حتى فى اطار الرأسمالية نفسها . وقد سلط لينين الضوء على هذا الديالكتيك التاريخى ، فبين الفارق الجذرى للثورة الديمقراطية البرجوازية فى عصر الامبريالية عن الثورات البرجوازية اواسط القرن التاسع عشر . فاذا كانت البرجوازية فى الثورات البرجوازية الكلاسيكية تمثل موضوعيا زعامة الامة وتلعب دورا تقدميا فى حل المهام التاريخية المنتصبة أمامها ، فان الوضع يختلف تماما فى عصر الامبريالية . ففى ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ الديمقراطية البرجوازية فى روسيا ، مثلا ، كانت البروليتاريا هى القوة القيادية ، أما البرجوازية فتصرفت

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٣٤ («ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية») .

** المصدر السابق ، المجلد ٣٩ ، ص ٤٦٢ .

*** المصدر السابق ، المجلد ٣٨ ، ص ١١٢ .

كقوة مضادة للثورة . وقــد برهن لينين – وهو مــا بدا للمناشفة * وغيرهم من الانتهازيين لونا من المفارقة – على أن البروليتاريا هى الفئة الأكثر مصلحة بالثورة البرجوازية المعنية ، وأنها هى التى تزعمتها . «وان مفهوم «الثورة القومية العامة» يجب أن يدل الماركسى على ضرورة التحليل الدقيق للمصالح المختلفة للطبقات **المختلفة** ، التى تتفق حول مهام عامة محدودة . ولا يجوز ، بأى حال ، أن يستخدم هذا المفهوم **للتغطية** ، للاشاحة عن دراسة الصراع الطبقى فى مجرى هذه الثورة أو تلك . فان مثل هذا الاستخدام لمفهــوم «الثورة القومية العامة» هو تخل تام عن الماركسية ، ورجوع الى الاقوال المبتذلة للديمقراطيين البرجوازيين الصغار أو للاشتراكيين البرجوازيين الصغار» ** .

ان القوميين المتعصبين ، الذين يستندون الى أن تناحر الطبقات لا يعنى انهيار الامة ، يعزلون وعى الذات القومى عن الوعى الطبقى ، ويصورون الاول شيئا مستقلا ، فوق طبقى ، فيعوقون ادراك الكادحين لمصالحهم القومية من مواقع طبقية . ولكن مسألة طابع وحدة الامة يجب أن ينظر اليها من زاوية طبقية متسقة . فالوحدة القومية تكون وحدة حقيقية اذا كانت الطبقات المؤلفة للأمة ذات مصالح ومهام مشتركة فى القضايا الجوهريــــة للتطور الاجتماعى . وتتم هذه الوحدة فى ظل الاشتراكية . أما ما تروج له الدعاية الرأسمالية من وحدة الامة بغض النظر عن التناحرات الطبقية فهى وحدة وهمية . وتتشكل هذه الوحدة عن طريق التشويــه الشوفينى لوعى الكادحين القومى .

وقد أشار لينين الى أنه فقط فى كافــة المستعمرات وأشباه المستعمرات تكون الامــم المضطهدة وغير المتطورة رأسماليا «لا تزال ذات مهام قومية عامة **موضوعيا** ، ألا وهى

---

* **المناشفة** ـ ممثلو التيــــار البرجوازى الصغيــر الاصلاحى الانتهازى الرئيسى فى الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٥ ، ص ٢٧٦ـ٢٧٧ («حول مسألة الثورة القومية العامة») .

المهام **الديمقراطية** ، مهام **الاطاحة بالاضطهاد الاجنبي**» * .

وجاءت حركات التحرر الوطنى ، التى ادت الى انهيــار النظام الاستعمارى ، لتثبت كامل صحة هذه الموضوعة اللينينية . ولكن حتى فى البلدان المتحررة ، بعد نيل الاستقلال ، تنصرف البرجوازية ، كما تنبأ لينين ، لضمان مصالحهــا الطبقية ، فتغدو قوة لا وطنية ، وتقف فى مواجهة الكادحين ، وقبل كل شيء الطبقة العاملة .

وليس من النادر أن تلجأ البرجوازية المحلية الحاكمة الى المساومة مع الدوائر الاقطاعية على حساب مصالح الفلاحين ، ومصالح الامة ككل . وفى هذه الظروف تتضح جليا نسبية الوحدة القومية ، وتعذر الدفاع عن المصالح القوميــة بدون النضال ضد الطبقات الاستغلالية . ويقتنع الكادحون ، فى ضوء تجربتهم الصعبة ، بصحة تنبؤ لينين بأن شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ، اذ تبدأ النضال من أجل الحرية القومية ، لا يمكن لها الا أن تنتقــل الى النضال ضد اسس النظام الاستغلالى ذاتها .

وتبين التجربة التاريخية السالفة والمعاصرة ، أنه لا يمكن قيام وحدة قومية حقيقية بين الطبقات المتناحرة . أما اللوحة الزائفة لوحدة الامة ، المرسومة عبر تشويه وعى الذات القومى لدى الكادحين ، فتسهل على الطبقات الاستغلالية مهمة استبدال الصراع الطبقى بالتصارع بين الامم ، وعلى تحويل الكادحين الى اعوان فى العدوان الخارجى والرجعية الداخليــة . ولهذا بالذات يكشف الماركسيون اللينينيون عن كل زيف مثل هذا اللون من «وحدة الامة» .

وعندما تفقد البرجوازية قدرتها على أن تكون قوة قومية تغدو الطبقة العاملة الذات الحقيقية للأمة ، «فيها تتجسد كل قوة الامة وكل قدرتها على التطور الى الامام» * * . فقبل شهر واحد من ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى طرح لينين مسألة

---

* المصدر السابــــق ، المجلـــد ٣٠ ، ص ١١١ («بصدد الكاريكاتير عن الماركسية») .

* * ماركس وانجلس . المؤلفـــات ، المجلـــد ٢ ، ص ٤٦٣ («وضع الطبقة العاملة فى انكلترا») .

«هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة ؟» ، واجاب عليها فى المقالة التى تحمل هذا العنوان بنعم جازمة ، ليبين القيمة الكبيرة لانتقال قيادة الامة الى البروليتاريا ، التى «تشكل هنا الممثل الحقيقى للأمة كلها ، لكل ما هو حى وشريف فى كافة الطبقات ، لكل الاغلبية الهائلة من البرجوازية الصغيرة» * . فمع احتدام التناقضات فى المجتمع البرجوازى ، وخاصة فى مرحلة الاعداد للثورة الاشتراكية ، تغدو الطبقة العاملة القوة القيادية للامة ، وتعبر عن مصالح الاغلبية العظمى من الكادحين ، وتلف حولها كل القوى الحية فى الامة ، وتقيم وحدة الامة الحقيقية .

وسيكون من الاخلال بالنزعة التاريخية ، ومن غير الصحيح بالتالى ، استخدام مصطلح «الأمة البرجوازية» بالنسبة لمرحلة ، تفقد فيها البرجوازية قيادتها للأمة ، وتكف عن تحديد معالمها (لا سيما معالمها الروحية) . وفى أعمال مؤسسى الماركسية اللينينية لا يستخدم هذا المصطلح للدلالة على مجمل معالم الامة ، وانما يتضمن مغزى تاريخيا ملموسا . ومن ذلك أن لينين ، اذ نوّه بأن اقامة الروابط القومية كانت اقامة لروابط برجوازية ، أشار الى ظروف تشكل الامة ، الى انخراط الامة كلها فى العلاقات الانتاجية الرأسمالية . واحيانا يعنى انجلس ولينين بمصطلح «الامة البرجوازية» محاولات البرجوازية برجزة الامة كلها ، والبروليتاريا ضمنا * * . وكان لينين يستخدم حتى مصطلح «الامم الامبريالية» ، الذى يدل به على الدول الامبريالية «الكبرى» التى تضطهد الامم الاخرى وتجتذب الى ذلك جماعات الانتهازيين والاشتراكيين الشوفينيين . وعلى الاغلب كان لينين يستخدم مصطلح «الامة الرأسمالية» ، تنويها بدور الطبقة التى صارت تاريخيا حاملة اسلوب الانتاج هذا ، القائم فى صلب التنظيم الرأسمالى للأمة ، ولم يستخدمه لوصف معالم الامة ككل . ولكن فى الحالات المذكورة كلها لم يكن لتخطر ببال انجلس أو لينين الاشارة الى وحدة مصالح

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٠٠ .

* * انظر ، مثلا : رسالة انجلس الى ماركس بتاريخ ٧ تشرين الاول — اكتوبر ١٨٥٨ .

البرجوازية والبروليتاريا ومعالمهما الروحية . أما الزعم بان الامة البرجوازية امة تتسم بالنزوع الى الاستيلاء على أراضى الامم الأخرى ، وبالميل الى الوقوف جبهة واحدة مع الامبريالية ، وبالتوجس والكراهية حيال الشعوب الأخرى ، فانه يعنى أن تسبغ على الامة كلها المعالم الفكرية والاجتماعية السياسية للطبقة الرأسمالية السائدة ، عيوبها ومثالبها ، وأن تتجاهل حقيقة أنه فى ظل التنظيم الرأسمالى للأمة ليس من الضرورى دوما أن تكون البرجوازية القوة القيادية فيها .

ومن المتعذر ايضا اعطاء وصف موحد للامة المعاصرة ، المؤلفة من طبقات تناحرية ، استنادا الى أن الافكار السائدة فى المجتمع هى افكار الطبقة المسيطرة . فقد نوه ماركس وانجلس فى «الايديولوجية الالمانية» بأن الطبقات السائدة لا تنظم الانتاج المادى فحسب ، بل وانتاج وتوزيع افكار عصرها ايضا * . وهذه الموضوعة تحتفظ بأهميتها فى وقتنا الحاضر . فتعمل البرجوازية دوما على تشويه وعى الكادحين الطبقى والقومى ، وتسممه بالعصبية القومية والشوفينية والعنصرية . ومع ذلك يغدو «التنظيم البرجوازى» أكثر فأكثر صعوبة ، بحيث سيكون من الخطأ التحدث عن السيطرة المطلقة للافكار البرجوازية فى كافة البلدان وفى كل الحالات . فالتناحر المحتدم فى الاساس المادى ، الطبقى ، للرأسمالية يزيد من حدة التناحر فى الوعى الاجتماعى ايضا . والتاريخ الروحى للمجتمع الرأسمالى يشق طريقه فى خضم الصراع بين ايديولوجية البرجوازية وسيكولوجيتها ، من جهة ، وبين ايديولوجية البروليتاريا وسيكولوجيتها ، من جهة اخرى . وفى الحياة الروحية للأمة تعزز دور الثقافة الديمقراطية والاشتراكية . وعلى نحو أشد فأشد جلاء يتضح تصارع الثقافتين ، تصارع الايديولوجيتين ، أما فى فترات الازمات الثورية تغدو الافكار التقدمية ، التى كانت تابعة من قبل ، هى الافكار السائدة . وفى عصرنا يعترف حتى خصوم الاشتراكية الفكريون بأن الايديولوجية الاشتراكية تنتصب ، وعلى نحو

---

* انظر : ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٤٦ .

أقوى فأقوى ، فى مواجهة الايديولوجية البرجوازية .

ولذا لا يصح تفسير مجمل تجليات حياة الامة فى المجتمع الرأسمالى ببرجوازيتها فقط ، ولا يجوز اعتبار معالم الطبقات كلها معالم برجوازية ، حتى اذا كانت البرجوازية قد أفلحت فى تشويه وعى الذات الطبقى والقومى لدى عدد كبير من الناس .

وقد أشار المؤتمر العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٦٩ الى أن الامبريالية «تفتش دوما عن طرق جديدة لنسف الطبقة العاملة من الداخل ، وتحاول «دمجها» فى منظومة الرأسمالية» * . ولهذا الغرض يستخدم ايديولوجيو الامبريالية مفهوم «الأمة البرجوازية» مثلا . ولكن التحديد الصحيح لانماط الامة يتطلب الانطلاق من التحليل الاجتماعى السياسى للطبقات المؤلفة لهذه الامة أو تلك . فعندما نتحدث عن «دولة برجوازية» أو «مجتمع برجوازى» فاننا نعبر عن مفاهيم جد دقيقة ، أما الحديث عن «أمة برجوازية» فيكتنفه الكثير من الغموض ، مما يعطى الاساس لمختلف التشويهات . واذا عنينا بمفهوم «الأمة البرجوازية» أمة المجتمع البرجوازى فسيكون هذا صحيحا ، وتكون بوسعنا دراسة «الأمتين» فى كل امة . أما اذا فهمت «الأمة البرجوازية» بمعنى برجوازية الامة كلها فيكون هذا فهما خاطئا .

وفى السنوات الاخيرة شاعت فى الخارج نظرية «الأمم البرجوازية والبروليتارية» . فيروج بالحاح لفكرة حتمية النزاع بين «أمم البرجوازيين» و«أمم البروليتاريين» . وترمى هذه النظرية الشوفينية المتطرفة الى نسف تعاضد كادحى الامم المختلفة ، وضرب الاممية البروليتارية . وقد بينت الادبيات الماركسية التهافت العلمى والضرر السياسى لهذه النظرية الرجعية .

* المؤتمر العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية . وثائق ومواد . موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٨٧ .

ثم أن الفهم الموسع لمصطلح «الامة البرجوازية» لا يساعد فى التصدى للنظريات اللاعلمية والرجعيـــة . فهو يصعب استجلاء العلاقة بين الوحدات القومية والطبقية فى المجتمـــع التناحرى ، وفهم خصوصية الامم الاشتراكية . فمن الافضل عدم استخدام مفهوم «الامة البرجوازية» الا عندما يتضح من السياق أن الحديث يدور عن صيرورة الامة وعن ارتباطهـــا بعلاقات الانتاج الرأسمالية . أما فى باقى الحالات (عند وصف المعالم الروحية للامة ، مثلا) فيكون استخدامه باطلا .

٢ – الأمة والدولة

تتشكل الدولة قبل تشكل الامة بوقت طويل . فهى ، كأداة للسيطرة الطبقية ، تظهر منذ قيام المجتمع العبودى ، وتبقى كذلك فى كافـة التشكيلات الاقتصادية الاجتماعيـــة التناحرية . ولكن بظهـــور وتطور العلاقات الاقتصاديـــة الرأسمالية ظهرت لدى الدولة وظيفة جديدة هامة . فقد صارت عاملا قويا فى تجميع الشعوب الاقطاعية المنعزلة فى امـــة واحدة . ومن هذه الناحية تمثل الدولة قيمة كبيرة . ثم ان وجود الدولة ، وان لم يكن مؤشرا ضروريا للأمة ، يشغل مكانة هامة فى وعى الذات القومى . ففى الامم ، التى لها دولتها ، تنظم الدولة وتوجه تطورها الاقتصادى والسياسى والثقافى . وتشير تسمية «الدولة القومية» ذاتها الى الارتباط الداخلى الوثيق بين الدولة والامة ، وان كانت الدولة فى المجتمـــع التناحرى لا تعبر عن مصالح الامة بأسرها . فمنذ أواخر القرون الوسطى يقود التاريخ الى تشكيل دول قومية كبيرة فى اوروبا . ان هذه الدول ، وحدها ، هى التى تمثل التنظيـم السياسى الطبيعى للبرجوازية الاوروبية السائدة ، وتشكل ، فى الوقت ذاته ، مقدمة ضرورية لاقامة تعاون اممى متسق بين الشعوب ، تتعذر بدونه سيطرة البروليتاريا» * .

---

* ماركس وانجلس . المؤلفـــات ، المجلد ٢١ ، ص ٤٢١ـ ٤٢٢ (انجلس . دور العنف فى التاريخ) .

كما ونوه لينين مرارا بأن «الدولة القومية **قاعدة عالمية**» * ، وأن «الدولة القومية كانت مرحلة ضرورية فى تطور الرأسمالية ** . ونجد لدى ماركس وانجلس ولينين طرحا بالغ الدقة لمسألة اهمية ارتباط الامة والدولة .

ويقدم عصرنا مادة مقنعة حول دور الدولة فى تلاحم الامة . فيبين الزخم القوى لحركة التحرر الوطنى لشعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية مدى قوة وحيوية نزوعها نحو الاستقلال القومى (الوطنى) الحقيقى ، نحو السيادة . وصار العزم على تشكيل وتطوير الدولة القومية المستقلة عاملا فى تشكيل الأمة لدى الكثير من الشعوب المستعمرة والتابعة سابقا .

ومن الطبيعى ان تذليل الفوارق القبلية واللغوية وغيرها لا يجرى على نحو سهل ومستقيم . ففى بعض البلدان ، التى تستخدم فيها الدولة الموحدة من قبل الزعامة الشوفينية للقبيلة الاقوى من أجل ضمان هيمنتها ، تظهر نزاعات بين مختلف القبائل والشعوب ، مما يترك آثاره الوخيمة على وعى الذات القومى الغض . ولا تنتصر القوى المركزية على القوى الانفصالية الا عندما توفر للجماهير الواسعة امكانية تحقيق مصالحها . ولكن برغم هذه الصعوبات يجرى تلاحم وتطور الكثير من الامم المعاصرة فى آسيا وافريقيا تحت راية اقامة الدول القومية وتدعيمها . وقد خلص الاتنوغرافى السوفييتى اندريانوف الى استنتاجات صحيحة من هذه الوقائع . فقد بين ، فى معرض نقده للباحثين الذين يقصرون مشكلة النظرية الماركسية فى الامة على المسائل المتعلقة بالتعريف التقليدى لمفهوم «الأمة» ، أن الهوة الفاصلة بين هذا التعريف وبين استخدامه العملى تتجلى خاصة عند تحليل المادة الافريقية ، التى ترغم ، قبل كل شىء ، على امعان النظر لا فى سكونية الظواهر (الادراج القطعى للشعوب فى هذه الزمرة الاتنية

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ٣٨٥ («موضوعات خلاصة حول المسألة القومية») .

** المصدر السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٨ («تقرير حول مسالة البروليتاريا والحرب») .

الاجتماعية أو تلك) ، بل فى دينامية العمليات والنزعات ، التى تغير ، على مرأى منا ، الخارطـــة «الاتنية الاجتماعية» لافريقيا تغييرا بالغ السرعة .

وعليه فان طرح السؤال عما اذا كانت الدولة تشكل واحدا من مؤشرات الأمة أم لا يبدو لنا تضييقا غير مبرر لمشكلة ارتباط الامة والدولة : أولا ، ينبغى الاخذ بالحسبان ان غلبة هذه أو تلك من مؤشرات الامـــة قد تتوقف على اختـــلاف الظروف ، ثانيا ، وهذا هو الاهم ، لا تردّ نظرية الامة الى تعريفها ، ناهيك عن أن اهمية هذه العوامل أو تلك فى حياة الامة ليس من الضرورى أن تعود الى كونها أو عدم كونها مؤشرات ثابتة للأمة .

وقد أكد مؤسسو الماركسية اللينينية على اهمية الدولة القومية بالنسبة للحركة العمالية ايضا . ففى احدى الرسائل الى ارماند أشار لينين الى أنه لا يجوز أن تؤخذ من «بيان الحزب الشيوعى» موضوعة «ليس للعمال وطن» وحدها ، بحيث ينسى «ان الحديث هناك لا يدور عن ذلك **فقط** . فهناك يجرى الحديث ايضا عن أنه عند تشكيل الدول القومية يكون دور البروليتاريا ذا شـــأن خاص . واذا أخذت الموضوعة الأولى (ليس للعمال وطن) **ونسى ارتباطها** بالموضوعة الثانية (يتشكل العمال كطبقة تشكلا قوميا ، ولكن لا بمعنى تشكل البرجوازية) ، فان ذلك سيكون خطأ ما بعده خطأ» * .

وقد أناط ماركس وانجلس ولينين اهمية بالغة لارتباط الامة والدولة ، لانه يكاد يمس كل العلاقات القومية ، التى ينبغى للبروليتاريا اخذها بعين الاعتبار على طريق تأديتهـــا لرسالتها التاريخية . فقد كشف ماركس وانجلس عن الخلفية الطبقية للنزاعات والحروب القومية ، ليبينا أن الصراع بين الامم يعوق تطور الصراع الطبقى . وقد كانا يفترضان ، أول الامر ، أن ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩ البرجوازية يمكن أن تتحول الى ثورة بروليتارية ، فكانا يربطان حل المسألة القوميـــة بانتصار الطبقة العاملة حصرا .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٩ ، ص ٣٢٩ (رسالة الى ارماند بتاريخ ٣٠ تشرين الثانى – نوفمبر ١٩١٦) .

ولكن الدراسة العميقة للمسألة الايرلندية والبولونية ، ولدروس الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب فى الولايات المتحدة الامريكية ، سمحت لماركس وانجلس بادخال تعديلات هامة على نظريتهما فى المسألة القومية . فاذا كانا ، فى البداية ، يجعلان التحرر القومى رهنا بتحرر الطبقة العاملة الاجتماعى فانهما صارا لاحقا ، بعد تحليل خبرة ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩ البرجوازية ، يؤكدان أيضا على الارتباط العكسى ، ارتباط نجاح الثورات الاجتماعية وتحرر البروليتاريا بحل المشكلات القومية الملحة . وبهذا الصدد كتب انجلس الى ماركس عام ١٨٦٩ يقول : «فى ضوء مثال التاريخ الايرلندى يمكن رؤية كم هو بائس ذلك الشعب الذى يسترق شعبا آخر . فان كل القذارات الانكليزية تنبع من بيل * الايرلندية» ** . وجاء فى جواب ماركس : «**ان المصلحة المطلقة المباشرة للطبقة العاملة تتطلب قطع** ارتباطها الحالى بايرلندا . تلك هى قناعتى العميقة . . . فقد كنت لردح طويل من الزمن أظن أنه يمكن اسقاط النظام الايرلندى بنهوض الطبقة العاملة الانكليزية . وكنت ادافع دوما عن هذا الرأى فى «New York Tribune» . ولكن التعمق فى دراسة المسألة اقنعنى الآن بالأمر المعاكس . **فلا يمكن** للطبقة العاملة الانلكيزية **فعل شيء** طالما لم تتخلص من ايرلندا» *** .

وأكد ماركس وانجلس أنه يترتب على الطبقة العاملة الانكليزية انتهاج هذه السياسة لا انطلاقا من مجرد الاعتبارات الخيرية ، بل لمصلحتها الذاتية . فعجزها يقوم بالضبط فى سيرها وراء الطبقات السائدة ، فى خصومتها مع الايرلنديين ، فى الجيش الثابت المجهز ضد الايرلنديين والذى يمكن ، اذا دعت الحاجة ، توجيهه ضد العمال الانكليز أنفسهم . ومن هنا

---

* **بيل** ــ مستعمرة قروسطية انكليزية فى ايرلندا .

** ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣٢ ، ص ٣٠٤ (رسالة من انجلس الى ماركس بتاريخ ٢٤ تشرين الاول ــ اكتوبر ١٨٦٩) .

*** المصدر السابق ، ص ٣٣٧ (رسالة من ماركس الى انجلس بتاريخ ١٠ كانون الاول ــ ديسمبر ١٨٦٩) .

يخلص ماركس الى القول : «ان شعبا ، يستعبد شعبا آخر ، انما يصنع اصفاده بنفسه» * . وفي ذلك يقول انجلس أيضا : «لا يمكن لشعب ، يضطهد الشعوب الأخرى ، أن يكون حرا . فالقوة ، التى تلزمه لقمع الشعب الآخر ، تتوجه دوما ، فى نهاية المطاف ، ضده نفسه» * * . ومن جهة اخرى ، «فطالما ظل الشعب القادر على الحياة مقيدا بمحتل أجنبى فانه سيوجه بالضرورة كل قواه ، كل مساعيه ، كل طاقته ، ضد العدو الخارجى ؛ فتظل حياته الداخلية مشلولة على هذا النحو ، ويكون عاجزا عن النضال من أجل التحرر الاجتماعى» * * * . وان هذه الافكار ، التى طرحت قبل ما ينوف على القرن من الزمن ، لا تحتفظ فقط بصحتها النظرية فى الوقت الحاضر ، بل وتغدو أكثر الحاحا . وبالنسبة لانكلترا وايرلندا الشمالية تبدو الكلمات المذكورة وكأنها كتبت اليوم . فيكفى ذكر الصدامات الدموية بين الجيوش الانكليزية وبين الاقلية الكاثوليكية فى اولسترا وتوجيه القطعات المتمرسة فى ايرلندا لقمع المتظاهرين فى المدن الانكليزية عام ١٩٨١ .

وكان انجلس يرى «أن الحركة الامية للبروليتاريا غير ممكنة عموما الا فى وسط امم مستقلة» * * * * . وهو ينوه بأن ازاحة النير القومى تشكل الشرط الاساسى لكل تطور سليم وحر ، ليقول : «لكى تتوفر امكانية النضال لا بد أولا من أرض تحت الاقدام ، من هواء ونور وفساحة . والاّ سيكون الامر كله مجرد ثرثرة» * * * * * .

وقد قام لينين بالتطوير الشامل للموضوعات الماركسية حول اهمية الدولة القومية بالنسبة لتطور الامم . فقد نوه

---

* المصدر السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٤٠٧ .

* * المصدر السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٥٠٩ .

* * * المصدر السابق ، ص ٥٥٥ .

* * * * ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣٥ ، ص ٢٢٠ (رسالة من انجلس الى كاوتسكى بتاريخ ٧ شباط ـ فبراير ١٨٨٢) .

* * * * * المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

بأن «الدولة القومية كانت مرحلة ضرورية فى تطور الرأسمالية» ، وبأن «الشعوب ايضا ارتقت الى مستوى ادراك الارتباط الداخلى بين الدولة والأمة» ، «فان الفكرة القومية تغدو محور وهدف كل حروب القرن التاسع عشر تقريبا» * .

وبمسألة الدولة القومية يرتبط حق الامم فى تقرير مصيرها . وقد كان ماركس وانجلس – على الرغم من محاولات المنظرين البرجوازيين تشويه آرائهما حول هذه المسألة وتصويرها على نحو خاطئ وباطل – يدافعان دفاعا ثابتا ومتسقا عن حق الامم فى تقرير مصيرها . وقد نوه لينين بأن ماركس قد اعتاد على «امتحان» الاشتراكيين بالمسألة القومية ، على التحقق من درجة وعيهم فيما يخص حقوق الامم المضطهدة * * . وفى عام ١٨٩٦ اعلن مؤتمر لندن للاممية الثانية المطلب الديمقراطى العام ، مطلب تقرير الامم لمصيرها . ولكن الانتهازيين من زعماء الاممية الثانية سرعان ما ردوا هذا المطلب الى مجرد «الاستقلال الثقافى القومى» (الذى سنتحدث عنه فى البند التالى) فى اطار الدول القائمة ، ثم انتقلوا فى فترة الحرب العالمية الاولى ١٩١٤–١٩١٨ الى مواقع الاشتراكية الشوفينية .

ويعود الى لينين الفضل فى احياء وتعميق الفهم الماركسى لحق الامم فى تقرير مصيرها . فبناء على الحاحه تم عام ١٩٠٣ ادراج مبدأ تقرير الامم لمصيرها فى برنامج حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا . اما خصوم هذا المبدأ فى اوساط الحركة العمالية فكان بينهم الانتهازيون «اليمينيون و«اليساريون» . كان الانتهازيون اليمينيون يستندون الى تقدمية الدول الكبيرة ، المتعددة القوميات ، ليناودا بالمحافظة

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٨ («تقرير حول مسألة «البروليتاريا والحرب»») ؛ المجلد ٢٨ ، ص ٥٨٣ ، ٥٨٤ (دفاتر حول الامبريالية) .

* * انظر : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص ٣٠٠ («حول حق الامم فى تقرير مصيرها») .

عليها أيا كانت الظروف ، ولذا فانهم لم يؤيدوا ، فى حقيقة الامر ، حركات التحرر الوطنى . أما الانتهازيون «اليساريون» فكانوا يعلنون أن حق الأمـــم فى تقرير مصيرها أمر متعذر التحقيق فى ظل الرأسمالية ، ولا حاجة اليه فى ظل الاشتراكية .

وقد بين لينين خطأ مواقف هؤلاء واولئك . فحتى قبل انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا طرح ، وبكل جلاء ، مسألة حق الامم والشعوب فى تقرير المصير ، فى بناء دولتها القومية ، وان كان لا يعنى بهذا الحق التقسيم الأكيد للدول المتعددة القوميات الى دول صغيرة . فقد كشف عن خطأ مواقف الانفصاليين ، الذين يعزلون حل المسألـــة القومية عن مصالح نضال البروليتاريا الطبقى ويطرحون «كل مطالبهم السياسية طرحا مجردا ، بدون تمييز ، «بلا شروط» ، من وجهة نظر «الشعب كله» أو حتى من زاوية مبدأ اخلاقى سرمدى مطلق» ، ليطالب بفضح «هذا الوهم البرجوازى على قدم وساق ، سواء انعكس فى فلسفـــة مثالية مجردة أو فى طرح مطلب لا مشروط بالاستقلال القومى» * . وفى حين نوه لينين بأن البرجوازية لم تقدم ، ولم يكن بوسعها أن تقدم ، حلا كاملا للمسألة القومية فى أى بقعة من العالم ، كان يرى أنه حتى فى ظل الرأسمالية ينبغى المطالبة بحل المسألـــة القومية وان يكن حلا جزئيا ، ديمقراطيا برجوازيا .

وغدا اكتشاف لينين لقانون تطور الامم فى ظل الرأسمالية اساسا نظريا متينـــا لنشاط الاحزاب الشيوعية دفاعا عن المصالح القومية . يقول لينين : «تعرف الرأسمالية النامية نزعتين تاريخيتين فى المسألة القوميـــة . الاولى : استيقاظ الحياة القومية والحركات القومية ، والنضال ضد كل اضطهاد قومى ، واقامة الدول القومية . والثانية : تطوير وتقويـــة كافة العلاقات بين الامم ، وتحطيم الحواجز القومية ، واقامة الوحدة الامية للرأسمـــال ، وللحياة الاقتصادية عامـــة ، للسياسة والعلم ، الخ .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٧ ، ص ٢٣٥ («المسألة القومية فى برنامجنا») .

والنزعتان كلتاهما قانون عالمى للرأسمالية * .

وفى ظل الرأسمالية تتعارض هاتان النزعتان ، ذلك أن الاضطهاد القومى والصهر القسرى ينفران الشعوب بعضها من الآخر . وقد أشار لينين الى أنه برغم معرفة الكادحين وتقييمهم لافضليات السوق الكبيرة والدولة الكبيرة فانهم يضطرون احيانا فى ظل الرأسمالية للعمل من أجل الانفصال الحكومى ، وذلك عندما يجعل الاضطهاد القومى والمشاحنات القومية المعيشة المشتركة للامم المختلفة أمرا متعذرا . ومن جهة اخرى ، فلتجنب الخضوع لاضطهاد جيران أشد جبروتا ورجعية ، فان من غير الضرورى ، كما أشار ماركس ولينين ، «ان يؤدى تطور الرأسمالية الى نهوض كافة الامم نحو الحياة المستقلة» * * . ففى عدد من الحالات لا تهدف الحركات القومية الى تشكيل دولة قومية مستقلة ، وانما ترمى الى توفير ظروف أحسن للتطور فى نطاق الدولة المعنية المتعددة القوميات . وان الشيوعيين ، حين يرفعون مطلب حق الامم فى تقرير المصير ، لا ينادون بالانفصال الأكيد الالزامى ، وانما باتاحة الفرصة لكافة الامم لأن تحل بنفسها : هل تبقى فى اطار دولة متعددة القوميات أم تنفصل عنها . وقد عاد لينين مرارا الى فكرة أن على الشيوعيين أن يحلوا مسألة تقرير الامم لمصيرها حلا عيانيا ملموسا ، مستقلا فى كل حالة منفردة ، وذلك من وجهة نظر مصالح مجمل التطور الاجتماعى ومصالح نضال البروليتاريا الطبقى فى سبيل الاشتراكية . «فاننا نطالب بحرية تقرير المصير ، أى بالاستقلال ، أى بحرية الانفصال للشعوب المضطهدة ، لا لأننا كنا نحلم بالتجزئة الاقتصادية ولا بنموذج الدول الصغيرة ، بل ، على العكس ، لأننا نرغب فى دول كبيرة ، وفى تقارب الامم ، حتى واندماجها ، ولكن على أرضية

---

* المصدر السابق ، المجلد ٢٤ ، ص ١٢٤ («ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية») .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص ٣٠١-٣٠٢ («حول حق الامم فى تقرير مصيرها») .

ديمقراطية حقا، اممية حقا، لا تعقل بدون حرية الانفصال» * .

ان الشيوعيين يناضلون من أجل الحق فى تقرير المصير السياسى حتى فى ظل الرأسمالية ، ويرون فيه احد الشروط الديمقراطية لتطور نضالهم الطبقى ، واداة لرفع وعى الكادحين الطبقى . «فكلما كانت المساواة القومية فى الحقوق أتم (ولا تكون تامة بدون حرية الانفصال) كان عمال الامم المضطهَدة أكثر ادراكا لحقيقة أن المسألة ليست فى انعدام الحقوق ، وانما فى الرأسمالية نفسها» * * . وقد أكد لينين بوجه خاص على اهمية تقرير الامم لمصيرهـا السياسى بالنسبة لمصائر الاشتراكية . «فلا يمكن للبروليتاريا الاشتراكية أن تتسامح مع أدنى عنف لأمتـ«ها» حيال الامم الاخرى» * * * .

لقد نوه مؤسسو الماركسية اللينينية على الدوام بأن حل المسألة القومية يجب أن يخدم حل «المسألـــة العمالية» ، وأكدوا ، فى الوقت ذاته ، على اهمية حلها بالنسبة للتقدم الاجتماعى . ولم يطرح لينين حق الشعوب فى تقرير المصير على أنه هدف بذاته ، بل كان يرى فيه عونا للتقدم من زاوية مصالح نضال البروليتاريا الطبقى من أجل الاشتراكية ، وكان يطالب بعدم الانتقاص أبدا من أهميته ، وخاصة عدم تجاهل ارتباط مشكلات الأمة والدولة . وقـد لعـب طـرح لينين الديالكتيكى لمسألة حق الامم فى تقرير مصيرها دورا بارزا فى بناء الدولة السوفييتية المتعددة القوميات .

٣ – الأمة والقومية

ان مشكلة العلاقة بين مفهومى «الامة» و«القومية» لم تحظ باهتمام الباحثين الا منذ فترة قصيرة نسبيا . ولكن الدقة

* المصدر السابق ، المجلـــد ٢٧ ، ص ٦٨ («البروليتاريا الثورية وحق الأمم فى تقرير مصيرها») .

* * المصدر السابق ، المجلـــد ٣٠ ، ص ١٢٦–١٢٧ («حول الكاريكاتير عن الماركسية») .

* * * المصدر السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٣١٩ («الاشتراكيـــة والحرب») .

فى فهم هذين المصطلحين واستخدامهما ضرورية من اجل الحل الصحيح لعدد من مشكلات الصراع الايديولوجى الراهن البالغة الحدة .

وتجدر الاشارة ، قبل كل شيء ، الى أن مصطلحى «الأمة» و«القومية» غالبا ما يستخدمان كمترادفين . وفى الوقت نفسه يستخدم كل منهما بمعان متعددة . فثمة عدد من المؤرخين والسوسيولوجيين فى اوروبا الغربية وامريكا اللاتينية يطابقون بين مفهوم «الأمة» وبين مفهومى «الشعب» و«الدولة» ، بحيث يدل مفهوم «القومية» على الشعب أو الامة حينا ، وعلى الانتماء الى امة معينة ، حينا آخر . وعلى نحو مماثل من عدم الدقة يستخدم مفهوم «القومى» ، حيث يصعب التمييز هل هو مشتق من «الأمة» أو من «القومية» .

واحيانا استخدم ماركس وانجلس مصطلح «الامة» بالنسبة لشعوب المجتمعين العبودى والاقطاعى . ولكن يتضح من السياق أنهما يقصدان بعبارة، مثل «الامم القديمة ، جماعات اتنية ، تشكل القومية سمتها الرئيسية . كما واستخدم انجلس مصطلح «القومية» للدلالة على شعوب المجتمع الاقطاعى السابقة على الامة . فقد أشار الى انه «من اختلاط الشعوب ، الذى تم فى اوائل العصر الوسيط ، تطورت تدريجيا القوميات الحديثة» * .

ولمفهوم «القومية» معنى آخر ، هو الأهم فى الوقت الحاضر . فهو يدل على المواصفات الاتنية للأمة أو للشعب ، أى على سمات لغتها وثقافتها وتقاليدها وعاداتها ، الخ . وبما أن مفهوم «الأمة» لا ينطوى فقط على الروابط الاتنية ، بل وعلى مجمل روابطها الاقتصادية الاجتماعية ، فانه يكون أوسع من مفهوم «القومية» . ومن بالغ الاهمية التفريق بين هذين المفهومين المترابطين ، لكن غير المتطابقين ، وذلك مثلا ، لفهم الموضوعة اللينينية «امتان فى كل أمة معاصرة» . فالبرجوازية الامبريالية ، وان كانت لها قوميتها ، ليست الممثل والمعبر عن مصالح الأمة . كذلك تبرز اهمية التفريق

* ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٤٠٩ («حول تفسخ الاقطاعية وظهور الدول القومية») .

بين المفهومين المذكورين فى ضوء حقيقة أنـــه فى مناطق مختلفة من العالم يعيش اناس وجماعات كاملة من قوميـــة واحدة ، دون أن يكونوا ممثلين لأمة واحدة . وبما أن الامم والشعوب تظهر على أساس الروابط الاقتصادية الجغرافية فان من الجلى أن جماعات الناس ، التى تجمعها قومية واحدة مـع هذه الامة (الشعب) أو تلك ، ولكن لا تعيش معها على ارض واحدة ، لا تشكل جزءا من الامة المعنية أو الشعب المعنى .

وأخيرا ، فانـــه فقط عند التفريق بين مفهومى «الامة» و«القومية» يغدو من الواضح كيف أن الامة (أو الشعب) تغير جذريا فى مجرى البناء الاشتراكى جوهرها الاجتماعى ، ولكنها تحتفظ أساسا بقوميتهـا . ثم أن من الضرورى التمييز بين المفهومين لأن «القومية» تدل اتنيا لا على الامة فقط ، بل وعلى الشعب . وفضلا عن ذلك فـان «القومية» تسمية عامة لكافة التشكلات الاتنواجتماعية ، فتكون بهذا المعنى مفهوما أوسع من مفهوم الامة .

وعندما أشار لينين الى «أ – الظروف التاريخية» و«ب – المؤشر الاقتصادى» ، وكذلك الى اللغـــة والارض كعوامل ضرورية لتشكل الامة وتطورهـــا ، فان ما كان يعنيه ليس مسألة كيف وبم تميز هذه العوامل أمة عن غيرها ، بل كونها عامة لكافة الامم . فحتى الارض واللغـــة تهمان لينين لا كمؤشرين ، يميزان امة عن أخرى ، بل كمؤشرين ، لا تقوم الأمة بدونهما . وبالفعل ، فاذا امعنا النظر فى القيمة الوظيفية لتعريف الأمة يغدو من الجلى أنه يجب أن يدل على تمايزها كظاهرة اجتماعيـــة خاصة عن باقى الظواهر الاجتماعية (عن الطبقة مثلا) ، أكثر مما يدل على اختلاف امة عن غيرها .

ثم أن الامـم المعاصرة ، التى تتميز احداها عن الاخرى بالانتماء الى هذا النمط الاجتماعى أو ذاك (أمم اشتراكية ، امم المجتمع البرجوازى ، امم انتقالية) ، تتميز احداهـا عن الاخرى بالسمات الاتنية ايضا (بقوميتها) . **فالقومية تدل على الخصوصية الاتنية للأمة ، ومن هذه الناحية (لا بمعنى الدلالة على الشعب الاقطاعى) لا ينبغى تعريفها** كظاهرة **اقتصاديـــة**

اجتماعية ، مستقلة عن الأمة والشعب ، وانما يمكن تعريف القوميات بالمقارنة احداها مع الأخرى .

ان القوميات جماعات كبيرة نسبيا من الناس ، تتميز فيما بينها باللغة وببعض سمات الثقافة والطبع وبوعى الانتماء الاتنى .

وتدخل اللغة ووعى الانتماء الاتنى فى تعريف الامة والقومية على السواء . ولكن الفرق هنا يقوم فى أن اللغة والوعى يحضران فى تعريف الامة كمؤشرين ملازمين لأية امة ، يميزانها عن الظواهر الاجتماعية الاخرى ، كالطبقات مثلا ، أما فى تعريف القومية فيحضران كمؤشرين ، يميزان القوميات احداها عن الاخرى من الناحية الاتنية .

وهكذا فان التعريف العام للأمة لا يؤكد على خصوصياتها الفردية بمقدار ما يؤكد على العام المشترك بين الامة المعنية وبين الامم الاخرى . أما حين يدور الحديث عن الخصوصيات الاتنية للامم المختلفة تغدو مؤشراتها العامة امورا خاصة بالامة المعنية ، تميزها عن غيرها ، أو ، بعبارة اخرى ، تدل على قومية الامة .

وليس للامة ماهيتان : اجتماعية ، واتنية تقابلها عموما ، وانما ماهية اجتماعية لها جوانب مختلفة (اقتصادية اجتماعية واتنية) . ويمكن اعتبار الجانب الاتنى شكلا لوجود الاجتماعى ، الذى لا ينفصل عن مضمون الامة الاتنى ، وانما يحيط به ، فيتحدد به ويكون بمثابة لون من بنيته الداخلية . ومن هذه الناحية يشكل الجانب الاتنى ، برغم كل نزعته المحافظة ، نتاجا للتطور الاجتماعى ، فيندرج فى الماهية الاجتماعية للامة أو للشعب ، ولا يمثل ماهية ثانية مستقلة * .

ويتمتع التفريق بين «الأمة» و«القومية» بأهمية مبدئية بالغة ، نظرية وعملية . فهو يتيح فهم أن للامة (أو للشعب) ماهيتها الاجتماعية الواحدة ، ولكنها تتميز عن الجماعات

---

* وعموما فان «القومى» اجتماعى أيضا ، ولكن فى الحالة الاولى نقصد الاجتماعى الاتنى (لا تجاهل اجتماعية القومى) ، وفى الثانية ـ الاجتماعى الطبقى .

التاريخية الاخرى ، الطبقية والدولية والدينية وغيرها ، بخصوصيات اتنية (خصوصيات اللغة والثقافة والعادات ، الخ .) فضلا عن الخصوصيات الاخرى . بعبارة اخرى : ان الامة توجد فى شكل اتنى . **والامة وحدة للماهية والوجود** . وهذا لا يقلل أبدا من دور الاتنى وشأنه ، لأن الشكل لا يكون سلبيا حيال المضمون ، وانما يمثل لونا آخر من بنية المضمون ، فيؤثر فى تطوره تأثيرا نشيطا .

ويتيح هذا الفهم للجماعة الاتنواجتماعية الاستجلاء الصحيح لمكانة ودور كل من عناصرها وجوانبها .

فاذا كانت الامة ظاهرة اجتماعية طبقية سواء من حيث الأصل (ضرورة تذليل التمزق الاقطاعى) او من حيث الماهية (نتاج لاقامة العلاقات البرجوازية) ، فان المؤشرات الاتنية للامة ، كاللغة والارض ليست طبقية بحد ذاتها ، وان كانت تنخرط فى دوامة الصراع الطبقى . ولذا فليس ثمة اخلال المنطق فى القول أن البرجوازى والبروليتارى فى الامة الواحدة ، وبغض النظر من وضعهما الطبقى ، ينسبان نفسيهما ، فى حال وعى وحدة السمات الاتنية ، الى قومية واحدة .

وفى الوقت الحاضر ازدادت الاهمية النظرية والعملية لطرح وحل مشكلة العلاقة بين الاجتماعى والاتنى فى «الأمة» و«القومية» . وقد لقيت اعمالى * أصداء ايجابية سواء فى الاتحاد السوفييتى ** أو فى الخارج ، وخاصة فى المانيا

---

* انظر : س . ت . كالتاختشان . اللينينية حول ماهية الامة وسبل تشكيل وحدة الناس الاممية . موسكو ، ١٩٦٩ (الطبعة الاولى) ، ١٩٧٦ (الطبعة الثانية) ، ص ٧٥-٧٨ ، ١٧٠-١٧٨ ، ٢٨٣-٢٨٥ ؛

Kaltachtschjan S. Nation und Nationalität im Sozialismus. Berlin, 1976.

** فقد أيد ى . ف . بروملاى اقتراحى بالتفريق بين مصطلحى «القومية» و«الأمة» فقال : «لا شك فى ان هذا التفريق بين المصطلحات يساعد على التمييز بين ظواهر ، ليست متطابقة تماما ، وان كانت جد قريبة» (ى . ف . بروملاى . بصدد مفهوم «الاتنوس» . — فى كتاب : الاعراق والشعوب . حولية . موسكو ، ١٩٧١ ، العدد ١ ، ص ٢٧) .

الديمقراطية * . ولكن ثمة اعتراضات على اقتراحى لحل المشكلة المعنية ، وخاصة ضد اقتراحى النظر الى القومية على أنها الصفة الاتنية للأمة . فيرى بعض الباحثين أن هذه النظرة ، بافتراضها ظهور القومية قبل زمن طويل من ظهور الامة ، تعنى ، كما يظنون ، ان القومية «شىء ، يكاد يكون قائما منذ الأزل ! . ويرد بروملاى على هذا التخوف بالقول : «حقا ان الجانب الاتنى من كل امة ، أى سماتها القومية الخاصة بها ، تشكلت فى حالات كثيرة ، كما سبق رأينا ، قبل ردح طويل من ظهور الامة كأمة . ولكن هذا لا يعنى أبدا أن هذه السمات ظاهرة «تكاد تكون أزلية» (ناهيك عن ازلية الامة)» * * .

كما وتؤدى المطابقة بين مفهومى «الامة» و«القومية» الى التباسات فى فهم مصطلح «القومى» المتعدد المدلولات . ولتجنب ذلك نوهت فى عدد من أعمالى بأنه يمكن النظر الى الانتماء القومى على أنه انتماء الى الامة أو الى القومية . ولذا ينبغى لتفادى الاختلافات السيمانطيقية ، الاخذ بالاعتبار أن مصطلح «القومى» («الروابط القومية» وما اليها) يمكن أن يستخدم ، وغالبا ما يستخدم ، كمشتق من «القومية» و«الأمة» على السوّاء . فقط من خلال السياق يمكن استجلاء متى يدل مصطلح «القومى» على السمات الاتنية للأمة أو للشعب أو للجماعة الاتنية ، ومتى يدل على الامة كظاهرة اجتماعية تاريخية ، على ماهيتها الاجتماعية ، على كل ما يشترط اصلها الاجتماعى ودورها فى التطور الاجتماعى . فقط فى تعريف الامة يشير مصطلح «القومى» الى مجمل الروابط الاجتماعية

---

* انظر ، مثلا :
Kosing A., Schmidt W. Nation: und Nationalität in DDR. — «Neues Deutschland», 1975, 15/16 Februar, S. 10; Kosing A. Nation in Geschichte und Gegenwart. Berlin, 1976. «Einheit», 1979, N 9-10, S. 1068-1075.

** ى . ف . بروملاى . المشكلات المعاصرة للاتنوغرافيا . موسكو ، ١٩٨١ ، ص ٣٨ .

الاتنية والاجتماعية الطبقية . وهذا الأمر يؤكد عليه أيضا العالم الالمانى كوزينغ * .

ولكن الامة ليست تجميعا لـ«جوانب» و«أجزاء» ، وانما هي وحدة الماهية والوجود ، ولذا فان انشطار الامة فى المجتمع الرأسمالى لا يمس ، بصورة اساسية ، السمات الاتنية للغة والارض ، ولا الشريحة الاتنية من الثقافة ، الخ . ولا يجوز فهم وحدة الماهية الاجتماعية الطبقية للأمة والشكل الاتنى لوجودها على أنها وحدة مجردة ، لا تباين فيها .

ثم أن تعريفنا الوارد أعلاه للقوميات لا يعنى أبدا أنها توجد ، كجماعات اتنية ، فى صورة محضة ، اذا صح التعبير . فالقومية تدل عادة على الخصوصيات الاتنية للامة (أو للشعب) ، فتندرج عضويا فى نسيج جملة روابطها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وينعكس تفاعل كافة الروابط فى معالم أى من الامم ككل ، وبالتالى – فى معالمها الاتنية ، فى قوميتها . وجلى أن الامم تختلف بعضها عن بعض لا بالسمات الاتنية فقط . فهى تتفاوت فى مستويات تطورها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . ولكن ليس ثمة ضرورة لادراج هذا كله فى تعريف القومية ، التى تقوم وظيفته – بخلاف وظيفة تعريف الامة – فى التركيز فقط على الخصوصيات الاتنية للجماعات القومية . وهذه الخصوصيات بالذات هى التى تتيح تحديد سواء قومية الامم والشعوب ، أو قومية الجماعات التى لا تملك ارضا مشتركة ، والتى تمثل ، على حد تعبير انجلس ، حطام امم كبيرة ، حيث يعيش الناس (فى صورة جماعات كبيرة متراصة احيانا) أجيالا عديدة فى وسط قومى آخر ، ولا تربطهم وحدة الارض والعلاقات الاقتصادية بالامم التى تجمعهم واياها قومية واحدة . صحيح أن الروابط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لهذه القوميات بالوسط القومى الجديد تؤثر أيضا على معالمها الاتنية ، ولكنها ونظرا للثبات الكبير للمعالم الاتنية ، لا تجردها دوما من سمتها

---

* انظر : أ . كوزينغ . الامة فى التاريخ والعصر . موسكو ، ١٩٧٨ (ترجمة عن الالمانية) ، ص ١٦٨–١٧٣ .

الاتنية ، من قوميتها . وسيكون انتهاكا قسريا لحقوقها القومية نسبها الى امة أو قومية البلد الذى تعيش فيه ، اذا لم تقرر الاندماج فيه طواعية .

ويلعب الاستبدال المتعمد لمفهوم «الامة» بمفهوم «القومية» دورا بالغ الرجعيـــة . ومن ذلك أن أنصار «الماركسيـــة النمساوية» ، وبينهم وينير (شبرينغر) وباوير ، قد تجاهلوا تنويهات ماركس وانجلس بتعذر اعتبار الناس ، الذين ينتمون الى قومية واحدة ولكن ليست لهم أرض مشتركة ، أمة واحدة ، فطرحوا نظرية وبرنامج «الاستقلال الثقافى القومى» .

زعم انصار هذه النظرية ان الامة لا ترتبط جوهريـــا بالارض ، وأنه يمكن قيام الامة على اساس «الوعى القومى» . وقد تشبثت بهذا اللون من العصبية القومية كل الاحزاب ذات النزعة القومية المتعصبة ، وخاصة فى روسيـــا ، حيث شن الانتهازيون حربا شعواء على برنامج البلاشفة الماركسى فيما يخص المسألة القومية . وقد ترتب على لينين والبلاشفة معه خوض نضال قاس من أجـــل توجيه المنظمات الاشتراكيـــة الديمقراطية القومية فى سبيل اشاعة الاممية الصحيح .

ان خرافـات «الاصل المشترك» و«الدم الواحد» و«الروح الواحدة» ثابتة ومستقرة ، وبوسعها التأثير على خيال عامـة الناس ، على وعيهم وسلوكهم . فمن المعروف أن النازيين قد طابقوا بين القومية والامة ، فكانوا يعتبرون كل الاقليـــات القومية الالمانية فى كافة البلدان جزءا من الامة الالمانية ، وراحوا ، على هذا الاساس ، يتدخلون بصورة منتظمـة فى الشئون الداخلية للدول التى يعيش فيها ، ومنذ قرون عديدة ، أناس المانيو الأصل .

وكان انتقاد لينين وأنصاره لمبدأ تأليف الامة من اناس ، ينتمون الى قومية واحدة ولكنهم يعيشون فى بلدان مختلفة ، فلا تجمعهم وحدة الارض ، بالـــغ الالحاح فى النضال ضد العصبية القومية فى ذلك الحين . وقد تزايد الحاح هذا النقد فيما بعد . فقد تعززت فى العالـــم معارضة التوزع الطبقى بالتوزع القومى ، ومحاولات حل المشكلات الاجتماعيـــة على أساس المعايير القومية ، لا الطبقيـــة . وفضلا عن ذلك ،

تستخدم مختلف الدوائر العدوانيـــة ، وعلى نطاق متزايد ، نظرية «الاستقلال الثقافى القومى» ، فتتمـادى فى نفى وحدة الارض ووحدة العلاقات الاقتصادية كمؤشرين أساسيين للأمة ، وتستبدل مفهوم «الامة» بمفهوم «القومية» ، لتستغل المنشأ القومى (الاتنى) للناس بهدف تحويلهم الى موالين مخلصين . وعلى هذا النحو تصرف الصهاينة ويتصرفون ، فينظرون الى اليهود ، الذين يعيشون فى أى من بقاع العالم ، على أنهـم ابناء أمة يهودية عالمية مزعومـة ، وعلى هذا النحو تصرف الهتلريون ويتصرف الآن الانتقاميون فى المانيا الاتحاديـــة بالنسبة للألمان * . ومن الطبيعى أن هذا كله يزيد من حدة الاهتمام بمشكلة العلاقة بين مفهومى «الامة» و«القومية» .

ان الدفاع عن النظرية الماركسية اللينينية فى الامـــة والعلاقات القومية والتطبيق الناجـح لها يتطلبان التعمق فى دراستها وتطويرهـا بالارتباط مع ما يستجد فى الحيـــاة الاجتماعية من ظواهر .

---

* لمزيد مـــن التفاصيل ، انظـــر : ى . ف . بروملاى ، س . ت . كالتاختشان . المشكلات الملحة للنظريـــة الماركسية اللينينية فى الامة والعلاقات القومية ، وصراع الافكار . ــ فى مجلة «الشيوعية العلمية» ، ١٩٨٠ ، العدد الاول .

الثورة الاشتراكية وحل المسألة القومية

ان الرأسمالية ، بما يلازمها من علاقات السيطرة والتبعية ، لا تولد التناحرات الاجتماعية فحسب ، بل والتناحرات القومية والاضطهاد القومى والتمييز العنصرى والقومى والحروب التوسعية . وقد برهن مؤسسو الماركسية اللينينية انه لا يمكن تصفية هذا كله الا بالقيام بالثورة الاشتراكية وبناء المجتمع الخالى من الاستغلال والاضطهاد . وكتب لينين : «فسوف تكون ثورة البروليتاريا عصر سلسلة كاملة من المعارك على **كافة** الجبهات ، اى حول **كافة** القضايا الاقتصادية والسياسية ، بما فيها القومية» * . وكان لينين يعتبر التحولات الاشتراكية للطبقات والفئات الاجتماعية وللامم والشعوب عمليات مترابطة داخليا .

ويولى المجتمع الاشتراكى ، الذى يحل فى مجرى تشكله وتطوره الكثير من المشكلات المعقدة الموروثة من الرأسمالية ، اهتماما بالغا لمشكلات تطور الامم والعلاقات القومية . ففيها تتجمع ، كما فى القطب ، اهم تناقضات الحياة الاجتماعية ، التى لا يندر ان تتخذ صيغا بالغة الحدة والمأساوية .

ان الرأسمالية لم تكن ، فى حين من الاحيان ، مؤهلة لحل المسألة القومية . هذا ناهيك عن انه فى المرحلة الامبريالية من تطورها تزيد من حدة العلاقات القومية ، وتعزز الاضطهاد القومى . وان الاستغلال القاسى والعنف فى العالم الرأسمالى ، والاحداث المأساوية الناجمة عنهما فى الكثير من انحاء العالم ، بدءا من ايرلندا الشمالية (اولسترا) وانتهاء بجنوب افريقيا ، وفى امريكا اللاتينية وآسيا ، لادلة

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥٤ ، ص ٤٦٤ («البروليتاريا الثورية وحق الامم في تقرير مصيرها») .

بالغة على صواب كلمات لينين فى «ان الامبرياليــة هى عصر اضطهاد الامم على اساس تاريخى جديد» * .

ان الحل الحقيقى للمسألة القوميـــة قد تم ، وللمرة الاولى ، على يدى الاشتراكية ، وذلك فى مجرى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والبناء الاشتراكى فى روسيـا المتعددة القوميات . وطبيعى ان حل هذه المسألة البالغة الحساسية والتعقيد لم يكن سهلا ، ولم يجر بصورة عفوية ، وانما تم على الاساس العلمى الذى ارساه لينين .

١ – المبادئ اللينينية لحل المسألة القومية

لـــم يكن الكشف عن ماهية الامة هدفـــا قائما بذاته بالنسبة لمؤسسى الماركسية اللينينية . ولكن نظريتهـــم الاقتصادية التاريخية فى الامة اتاحت التحديد العلمى لدور الحركات القومية ولمكانتها التاريخية فى نضال البروليتاريا التحررى العـــام ، وساعدت فى رسم برنامج ومهمات حـــل المشكلات القومية ، وطرق تحوير الامم الى امم اشتراكيـــة وسبل تطويرها . وكان لينين يؤكد ان طابع ووجهة السياسة فى المسألة القومية يتوقفـان على نوعية الطبقة التى تتزعم الامـــة . وقد اعطى التأسيس المتعدد الجوانب (الاقتصادى التاريخى والفلسفى) للسياسة القومية للبروليتاريا حتى قبل استلامها للسلطة . فالبروليتاريا تجابه السياسة القوميـــة الشوفينية للبرجوازية ، التى تستغل شعوبا كاملة ، باقامة علاقات التعاون وبانتهاج سياسة التقارب والصداقة والتآخى بين كافـــة القوميات . وقد صاغ لينين مبادئ استراتيجية وتكتيك حل المسألـــة القوميـــة ، وطرح مهمة «ربط النضال الثورى فى سبيل الاشتراكية بالبرنامج الثورى فى المسألة القومية» * * .

---

* المصدر السابق ، المجلـــد ٢٧ ، ص ٤٤٠ («الامبريالية وحق الامم فى تقرير مصيرها») .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، ص ٦٢ («المسألة الثورية وحق الامم فى تقرير مصيرها») .

تعتبر اللينينية توحيد الكادحين بغض النظر عن انتمائهم القومى لب المسألة القومية . ويتطلب هذا الحل : ١ – تصفية الاضطهاد القومى ، واشاعة المساواة السياسية التامة بين كافة الشعوب ؛ ٢ – اقامة وتطوير علاقات التعاون الاخوى والصداقة بين الشعوب ؛ ٣ – تسوية مستويات التطور الاقتصادى والثقافى لكافة القوميات ، والتوصل الى المساواة الفعلية فيما بينها .

وكان لينين يرى ان المهمة الاولى على طريق حل المسألة القومية هى ان تضمن لكافة الامم حقها فى تقرير المصير . «فنحن نريد الاتحاد **الطوعى** ، ولذا فاننا ملزمون بالاعتراف بحرية الانفصال (فبدون حرية الانفصال لا يمكن للاتحاد ان يكون طوعيا) ... فينبغى تبديد التوجس **بالاعمال** ، لا بالكلمات * .

لقد حطمت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى اصفاد الاضطهاد القومى ، واعلنت وضمنت حق الامم الفعلى فى تقرير المصير . وصار هذا الحق قانونا دستوريا داخليا ومبدأ سياسيا خارجيا للدولة السوفييتية ، مما ترسخ فى اولى وثائق الثورة – «مرسوم السلام» (٨ تشرين الثانى – نوفمبر ١٩١٧) و«اعلان حقوق شعوب روسيا» (١٥ تشرين الثانى – نوفمبر ١٩١٧) وفى نداء الحكومة السوفييتية الى سفراء الدول الحليفة ، الذى تقترح فيه الصلح الفورى والبدء بمفاوضات سلمية (٢١ تشرين الثانى – نوفمبر ١٩١٧) ، وكذلك فى دساتير روسيا الاتحادية والجمهوريات المتحدة الاخرى والاتحاد السوفييتى .

ويجهد ايديولوجيو البرجوازية فى التقليل من الجاذبية للسياسة القومية اللينينية فيزعمون ان اللينينية تفهم حق الامم فى تقرير مصيرها لا على انه حق الشعب ، بل حق

---

* المصدر السابق ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٧٩ («حول اعادة النظر فى برنامج الحزب») .

البروليتاريا وحدها * . اما فى الحقيقة فان لينين بالذات قد عارض بحدة مثل هذا الرأى ** . صحيح انه قال ان الماركسيين «يهتمون ، قبل كل شيء وفى المقام الاول ، بتقرير البروليتاريا لمصيرها داخل الامم» *** . ولكنه لا يؤكد بذلك الا على الفكرة الماركسية المعروفة ، القائلة بانه مع ظهور البروليتاريا كقوة قومية يبدأ نضالها من اجل ازاحة البرجوازية عن قيادة الامة ، ومن اجل تنظيم الوحدة الحقيقية للامة **** .

ثم ان تذكيرات لينين العديدة بان «اى مطلب ديمقراطى (بما فى ذلك مطلب تقرير المصير) انما يخضع ، بالنسبة للعمال الواعين ، للمصالح العليا للاشتراكية» ***** ، لا يعنى ابدا استبدال تقرير الامة لمصيرها بتقرير الكادحين لمصيرهم . فقد اكد لينين خصيصا انه «سيكون من بالغ الخطأ ازاحة تقرير الامم لمصيرها ووضع تقرير الكادحين لمصيرهم ، لان هذا الطرح لا يأخذ بالحسبان بكم من الصعوبات وبكم من التعرجات يجرى التمايز داخل الامم» ****** .

وفى برنامج الحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا ، الذى اقر فى مؤتمره الثامن ، ادرجت فى البند الرابع من الفصل «فى ميدان العلاقات القومية» حاشية كتبها لينين :

---

* ومن ذلك قول يان ليبريخ : «اراد البلاشفة استبدال ارادة الشعب بارادة البروليتاريا » .
(Librich Jan. The Rise of the Soviet Empire. Pall Mall Press. L. 1965, p. 12.)

** انظر : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٨ ، ص ١٥٦ ــ ١٦٠ («المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا») .

*** المصدر السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٩٢ («حول حق الامم فى تقرير مصيرها») .

**** انظر : ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١٧ ، ص ٣٤٤ («الحرب الاهلية فى فرنسا») .

***** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، ص ١٠٨ («حول الكاريكاتير عن الماركسية») .

****** المصدر السابق ، المجلد ٣٨ ، ص ١٦٠ («المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا») .

«فى مسألة من يعبر عن ارادة الامة فى الانفصال يتبنى الحزب الشيوعى فى روسيا وجهة النظر التاريخية الطبقية ، فيأخذ بالحسبان فى اى درجة من التطور التاريخى تكون الامة المعنية : فى الطريق من القرون الوسطى الى الديمقراطية البرجوازية ام من الديمقراطية البرجوازية الى الديمقراطية السوفييتية او البروليتارية ، وهكذا» * .

وفى الحالات ، التى لا يكون فيها تمايز الامة كافيا وتسير فيها اغلبية الامة خلف الطبقات السائدة ، فان الموافقة على انفصالها كدولة سيكون مع ذلك ، فى رأى لينين ، امرا مربحا سياسيا باسم تقارب الشعوب مستقبلا . وكان لينين يطالب بالحذر والتمعن فى حل المسألة القومية ، وبمراعاة تاريخ وسبل تطور كل من البلدان المعنية . ولكن البلاشفة ، حين طرحوا شعار حق الامم فى تقرير المصير ، لم يعتبروه شعارا مطلقا ، او هدفا بحد ذاته ، وانما كانوا يسعون لوضعه فى خدمة مصالح الكادحين الاجتماعية الطبقية ، وبالتالى مصالحهم القومية . وقد انتصبت امام الحزب البلشفى ، الذى تسلم زمام السلطة فى بلد متعددة القوميات ، مهمة النضال ضد الاستخدام الديماغوجى لشعار تقرير المصير من قبل البرجوازية ، التى تسعى للعزل بين كادحى القوميات المختلفة دفاعا عن مصالحها الطبقية . ولم يكن البلاشفة يتطلعون فقط الى تأمين حق الامم فى تقرير مصيرها ، وانما كانوا يسعون ايضا الى ان تتوافق الرغبة فى استخدام هذا الحق مع المصالح الطبقية للبروليتاريا ، للكادحين جميعا .

وتتمتع نظرية لينين حول حق الامم فى تقرير مصيرها وخبرة تجسيد هذا الحق فى البلدان الاشتراكية باهمية عالمية بالغة فى العصر الحاضر ، عصر النمو العاصف لوعى الذات القومى لدى شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، ولنزوعها نحو اقامة وتوطيد دولتها القومية . اما الامبريالية فغالبا ما تتلاعب بمبدأ حق الامم فى تقرير المصير بهدف تأجيج التفرقة القومية والقبلية وشق صفوف حركة التحرر الوطنى

---

* المصدر السابق ، ص ١١٢ .

وتشويه الجوهر الديمقراطى لهذا الحق واملاء ارادتها مجددا .

وقد بينت الاحداث المضادة للثورة فى هنغاريا (١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (١٩٦٨) وبولونيا (١٩٨٠-١٩٨١) ان الامبرياليين يشوهون المغزى الحقيقى لحق الامم فى تقرير المصير فى محاولة لاستخدامه ايضا للتستر على مخططاتهم الرامية الى اسقاط النظام الاشتراكى . كما ويفهم انتقاميو المانيا الغربية حق الامم فى تقرير المصير بمعنى ابتلاع المانيا الغربية الامبريالية لالمانيا الديمقراطية الاشتراكية . وينص الحق الدولى المعاصر على ان تقرير الامة لمصيرها لا يعنى فقط الحق فى الوجود المستقل ، بل والحق فى اختيار النظام الاجتماعى السياسى المرغوب . فاذا كان كادحو المانيا الديمقراطية قد اختاروا النظام الاشتراكى فان من الجلى ان ارادتهم ، بوصفها ارادة الامة ، قد تم التعبير عنها تعبيرا دقيقا وواضحا . وفى هذا الحال لا يكون سعى امبرياليى المانيا الغربية لفرض نظامهم الاجتماعى على جمهورية المانيا الديمقراطية التزاما بحق الامم فى تقرير المصير ، بل يأتى ، على العكس ، اغتيالا له ، تشويها لجوهره ومغزاه .

ان تقرير المصير الاشتراكى يفتح امام الامم السبيل الى الاتحاد الطوعى والتعاون الاخوى ، الى الوحدة الاممية للشعوب والامم . ويأتى اتحاد الجمهوريات السوفييتية مثالا ساطعا على ذلك . وقد صار هذا الاتحاد ، كما تنبأ له لينين ، ضرورة موضوعية للدفاع عن انجازات ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى وللحل المشترك للمهمات الخلاقة على طريق بناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى .

وقد لعب تنفيذ الخطة اللينينية فى بناء نظام الدولة لمختلف الامم والشعوب دورا كبيرا فى توحيد كادحى بلاد السوفييت الفتية بغض النظر عن قومياتهم . فقد كان لينين ، وهو النصير المتحمس لاقامة دولة كبيرة مركزية ديمقراطية ، يرى ان وحدة الامم والشعوب يمكن توفيرها عن طريق اشكال مختلفة من التنظيم الدولى القومى تبعا للظروف الملموسة للبلد المعنى بعد انتصار الثورة الاشتراكية . وجاء رسمه لسياسة الاستقلال الذاتى والاتحاد الفدرالى مساهمة جليلة

فى نظرية وممارسة الحل الاشتراكى للمسألة القومية .

فقد كان لينين يرى انه فى ظل السلطة السوفييتية لا يؤدى الاستقلال الذاتى والاتحاد الفدرالى الى نسف مركزية الامم والشعوب ، بل يؤدى ، على العكس ، الى تمتين وحدتها . صحيح ان ماركس وانجلس ولينين قد وقفوا - فى ضوء تجربة فدرالية الدول البرجوازية (ولم تكن ثمة تجربة اخرى فى ذلك الحين) - موقفا سلبيا من الاتحاد الفدرالى ، ولكنهم لم يذهبوا الى انه غير صالح فى كل الظروف ابدا . لقد وقفوا ضد الفدرالية عندما تروج لها العناصر القومية البرجوازية والانتهازية ، بحيث لا يمكن للفدرالية الا ان تعزز الشقاق بين الامم . ولكن فى ظروف اخرى ، وتبعا لخصوصية ما تشكل فى هذا البلد او ذاك من علاقات بين الامم ، سلّم مؤسسو الماركسية اللينينية بجواز ، حتى وبجدوى ، الفدرالية على اساس برجوازى . ومن ذلك قول ماركس بجدوى الفدرالية بالنسبة لايرلندا . وكان انجلس يرى فى الجمهورية الفدرالية خطوة الى الامام حتى فى انكلترا . وفى عام ١٩١٣ كتب لينين ان مهمة تحرير فلاحى البلقان المختلفى القوميات من النير الاقطاعى «كان يمكن لبلدان البلقان حلها على نحو اسهل بعشر مرات مما هو عليه الآن وبضحايا اقل بمئة مرة ، لو انها اقامت جمهورية بلقانية فدرالية» * .

وهكذا فان ماركس وانجلس ولينين لم يرفضوا الفدرالية رفضا مطلقا قاطعا ، مرة واحدة والى الابد ، ايا كانت الظروف والاحوال . فقد كانوا يعارضون المركزية البيروقراطية البرجوازية ، وكذلك الفدرالية البرودونية الفوضوية ، ولكنهم لم يقفوا ضد الفدرالية على اساس المركزية الديمقراطية الطوعية .

وبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا ، وفى مجرى بناء الاشتراكية فى بلد عبرت فيه الشعوب المضطهدة سابقا عن رغبتها فى اقامة دولتها القومية وفى الاتحاد مع روسيا السوفييتية فى الوقت ذاته ، طرح لينين

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٣ ، ص ٣٨ («حرب البلقان والشوفينية البرجوازية») .

صيغـــة التوحيد الفدرالى للقوميـــات . ويحاول ايديولوجيو البرجوازية ايجاد تناقض بين كون لينين قد علل حق الامم فى تقرير مصيرها ودافع عنه ، وبين كونه قد اقام دولة متعددة القوميات – اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . اما فى الحقيقة فقد جاءت اقامة اتحاد الجمهوريات الاشتراكيـــة السوفييتية مثالا جليا على تجسيد حق الامم فى تقرير المصير ودليلا على التعبير الحر عن ارادة شعوب حرة .

كان قيام اتحـــاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيـة امرا ، برهن عليه لينين نظريـا ، ثم تحقق عمليا بالابداع الثورى لكافة الشعوب السوفييتية بقيادة الطبقة العاملة . وقد سبق للينين القول انـــه «**فى حال تساوى الظروف الاخرى** سوف تظل البروليتاريـــا الواعية تؤكد دوما على الدولـــة الاكبر» * ، «فالدول الكبيرة اكثر قدرة من الدول الصغيرة على النجاح فى حل مهـام التقدم الاقتصادى ومهـــام صراع البروليتاريا مع البرجوازية» * * .

وقد طرح لينين المسألة طرحا دقيقا وجليا : نحن نؤيد ، بلا شك ، وحدة الشعـوب ، ولكن لكى تمضى الى ذلك عن طيبة خاطر ينبغى اقناعها بان احدا لا يسعى الى اقامة الاتحاد بالقوة ، وان الاتحاد يخدم مصالح الشعوب نفسها .

وعندما حوم خطر تفكك الدولة الواحدة بسبب سياسـة الحكومة المؤقتة * * * فى الاحتفاظ القسرى بالشعوب فى اطار الدولة الموحدة رسم البلاشفة بزعامة لينين ، الذين اتهمهم الشوفينيون والعناصر المضادة للثورة من كافة الالوان بانهم يعملون على انهيار روسيا الموحدة ، – رسموا البرنامـــج

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٤٣ .

* * المصدر السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ٧٠ («فى مسألــــة السياسة القومية») .

* * * **الحكومة المؤقتة فى روسيا** – الجهاز المركزى للسلطـــة الاقطاعية-البرجوازية ما بين ٦ (١٥) آذار و٢٥ تشرين الاول (٧ تشرين الثانى) من عام ١٩١٧ . وقد تشكلت بعــــد ثورة شباط الديمقراطية البرجوازية . وقد سارت على السياسة المعادية للشعب فى الاستمرار بالحرب الامبريالية وقمع الحركة الثورية . اطاحت بها ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى .

العلمى الوحيد لتوحيد الشعوب . وجاء وضع لينين لمبادئ اقامة دولة فدرالية متعددة القوميات مثالا رائعا على تطوير النظرية الخلاق . فقد كان الديالكتيكى العظيم لينين يعتبر الفدرالية فى المجتمع الرأسمالى نمطا رديئا للعلاقات بين الشعوب ، ولم يسلم بجدواه الا فى حالات معينة . اما فى عصر ازدواجية السلطة * بروسيا (عام ١٩١٧) فصار لينين يعتبر الفدرالية اداة للمحافظة على الدولة الكبيرة من الانهيار . وبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، حيث ظهرت ظروف مغايرة تماما ، توصل لينين الى استنتاج بان الفدرالية ليست فقط صيغة مجدية لتنظيم الدولة المتعددة القوميات ، بل وصيغة ضرورية ايضا ، وذلك ان ترسخ السوفييتات فى روسيا كصيغة للسلطة الحكومية ، هى اكثر السلطات ديمقراطية واممية بطبيعتها ، يتيح توحيد كادحى كل القوميات حول الطبقة العاملة . وقد تحققت نبوءة لينين هذه .

لقد اثبتت الثورة الاشتراكية ان اقامة الدولة القومية ، المستندة الى المركزية الديمقراطية ، لا تباعد بين الامم والشعوب ، بل - على العكس - تقارب بينها . وكانت جمهورية روسيا الاتحادية السوفييتية اول دولة اشتراكية متعددة القوميات ، بنيت على اساس الاستقلال الذاتى للشعوب التى لم يكن لها من قبل نظام الدولة . وقد بينت روسيا الاتحادية ان المركزية الديمقراطية ، خلافا للمركزية البيروقراطية الجافة فى البلدان الرأسمالية ، «ليست بعيدة فقط عن استبعاد التسيير الذاتى المحلى فى ظل **الاستقلال الذاتى** للمناطق ، التى تتميز فيما بينها من حيث الظروف

---

* **ازدواجية السلطة** ـ ما ظهر بعد ثورة شباط من تشابك فريد لسلطتين فى روسيا : برجوازية ، هى سلطة الحكومة المؤقتة ، ودكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية ، اى سلطة السوفييتات . وقد استمرت ازدواجية السلطة من ١ ـ ٢ آذار (مارس) حتى ٥ تموز (يوليو) ١٩١٧ . وكانت سيطرة الاحزاب البرجوازية الصغيرة فى السوفييتات وراء تأييدها للحكومة المؤقتة وتخليها لها عن كامل السلطة فى تموز ١٩١٧ ، مما كان يعنى نهاية الازدواجية .

الاقتصادية والمعيشية وتركيب السكان القومى وما الى ذلك ؛ وانما هى ، على العكس ، تتطلب بالضرورة **هذا وذاك معا**» * . وبمساعدة البروليتاريا الروسية اقام البشكير والتتر والاودمورت والتشوفاش وغيرهم من شعوب روسيا القيصرية سابقا نظام دولتهم الاشتراكى .

اما الاتحاد بين روسيا الاتحادية وباقى الجمهوريات السوفييتية ، التى كانت لها تقاليدها السالفة فى وجود الدولة القومية ، فتم على نحو آخر . فقد صاغ لهـا لينين برنامج اقامة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وكان هذا البرنامج موجها سواء ضد النزعات الانفصالية (فكرة الكونفدرالية) ، او ضد الدعوات الى «الاستقلال الذاتى» لكل الجمهوريات السوفييتية ، اى ادراجها المباشر فى روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية ، الامر الذى كان من شأنه احياء النزعات الشيوفينية والاقليمية .

وقد كتب لينين فى «مسودة اولية لموضوعات فى المسألة القومية ومسألة المستعمرات» ، المقدمة الى المؤتمر الثانى للاممية الشيوعية ، يقول : «ونحن ، اذ نعترف بالفدرالية شكلا انتقاليا الى الوحدة التامة ، ينبغى لنا ان نطمح الى توثيق الاتحاد الفدرالى اكثر فاكثر ، آخذين بعين الاعتبار ، اولا ، انه بدون التحالف الوثيق بين الجمهوريات السوفييتية يتعذر الذود عن كيان هذه الجمهوريات المطوقة من قبل جميع دول العالم الامبريالية التى تفوقها من حيث القوة العسكرية ؛ ثانيا ضرورة الاتحاد الاقتصادى الوثيق بين الجمهوريات السوفييتية ، الامر الذى لا يمكن بدونه اعادة بناء القوى المنتجة التى دمرتها الامبريالية وتأمين الرخاء للكادحين ؛ ثالثا ، النزعة الى انشاء اقتصاد عالمى واحد لا يتجزأ ، توجهه بروليتاريا جميع الامم وفق برنامج عام ، هذه النزعة التى ظهرت بوضوح تام فى ظل الرأسمالية والتى ستواصل تطورها وستكتمل بالتأكيد فى ظل الاشتراكية» * * .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٤٤ («ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية») .

* * المصدر السابق ، المجلد ٤١ ، ص ١٦٤ .

وقد ادى تنفيذ برنامج الفدرالية اللينينى الى ان الجمهوريات السوفييتية بادرت الى مزيد من توثيق الاتحاد فيما بينها ، فانشئ عام ١٩٢٢ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وكان قيام الاتحاد السوفييتى انتصارا بارزا لسياسة الحزب اللينينى القومية . وبينت الحياة انه فى الفدرالية السوفييتية يجرى الجمع المتسق بين مطالب الوحدة الاممية والسيادة القومية . فقد حصلت الامم الداخلة فى الاتحاد السوفييتى على حقوق متساوية وظروف متكافئة للتطور القومى الحر . ولكنها لم تطور دولتها القومية كدول منعزلة ، بل قررت مصيرها كدول اتحادية ، فبفضل توحيد الجمهوريات السوفييتية لم ينتقص من سيادتها ، بل ، وعلى العكس تماما ، صارت هذه السيادة وطيدة حقا ، يصونها جبروت الاتحاد من اية تطاولات امبريالية . وهكذا صار نظام الدولة السوفييتى ، الديمقراطية السوفييتية ، **اساسا سياسيا** لعلاقات قومية جديدة ، علاقات المساواة الحقوقية والتقارب والصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتى .

٢ – تشكل الامم والشعوب الاشتراكية

ان المساواة السياسية بين الامم لا تكفى بحد ذاتها لضمان تحولها الى امم اشتراكية . فهذا يتطلب حل مهمة عامة ، صاغها لينين صياغة بالغة الحدة : «اما هلاك كل الانجازات السياسية للسلطة السوفييتية او ارساؤها على اساس اقتصادى» * .

وبدأ حزب البلاشفة اللينينى النضال من اجل تذليل التخلف الاقتصادى والثقافى لشعوب روسيا . وبدأت تبرز قانونية خاصة بتطور الامم الاشتراكى ، هى التسوية بين مستويات تطورها السياسية والاقتصادية والثقافية .

وقد بينت تجربة البلاد الاشتراكية الاولى ان السياسة

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، ص ١٦٩ («السياسة الاقتصادية الجديدة ومهام لجان التثقيف السياسى») .

القومية اللينينية ، التى انتهجها الحزب الشيوعى السوفييتى ، قد اتت ثمارها المرجوة . ففى حقبة تاريخية قصيرة للغاية نمت فى الجمهوريات والاقاليم والمناطق القومية مدن جديدة ، ومراكز صناعية وعلمية جديدة ، وتكونت كوادر قومية من العمال والمثقفين من كافة الاختصاصات والمهن . وادت اشاعة المزارع التعاونية فى الريف الى توطيد الوحدة بين الفلاحين والعمال . وصفى التخلف والتفتت الاقتصادى فى الزراعة ، مما كان يشكل احد العوامل الاساسية فى الانغلاق القومى والانعزالية المحلية . اما تصفية الطبقات الاستغلالية ، واقامة نمط اشتراكى موحد من الاقتصاد ، فقد نسفتا نهائيا اسس العداء القومى السالف ، واشاعتا نمطا جديدا من العلاقات بين الامم ، وخلقتا وحدة المصالح السياسية والاقتصادية لامم البلاد وشعوبها .

وفى العصر الحاضر تتمتع باهمية خاصة بالنسبة للبلدان النامية خبرة التطور الاشتراكى لبعض شعوب الاتحاد السوفييتى التى انتقلت الى الاشتراكية دون المرور بالرأسمالية ، واحرزت نجاحات هائلة بفضل المساعدة النزيهة والفعالة من طرف الشعوب الشقيقة الاكثر تطورا ، وخاصة من طرف الشعب الروسى . فامام البروليتارية المظفرة بروسيا انتصبت وللمرة الاولى فى التاريخ ، مهمة التحقيق العملى للانتقال الى الاشتراكية لشعوب لم تمر بمرحلة الرأسمالية . وقد سبق لماركس وانجلس التنبوء بمثل هذه الامكانية . وبهذا الصدد كتب لينين : «بمساعدة بروليتاريا البلدان المتقدمة يمكن للبلدان المتخلفة الانتقال الى النظام السوفييتى ، وعبر درجات معينة من التطور – الى الشيوعية ، بدون المرور بمرحلة التطور الرأسمالية» * .

ان **الطبقة العاملة الروسية** قد بينت فى مجرى بناء الاشتراكية ، ولاول مرة فى التاريخ ، القوة الخلاقة الهائلة للاممية الاشتراكية . ففى السنوات ، التى حلت فيها مهام

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، ص ٢٤٦ («المؤتمر الثانى للاممية الشيوعية») .

اعادة بنـاء الاقتصاد المنكوب بالحرب الاهلية * ، اندرجت اطراف البلاد فى منظومة واحـدة من التوزيع الوطنى للقوى المنتجة ، مع مراعاة مهمة التطوير المتسارع للمناطق المتخلفة اقتصاديا .

ومما له دلالته ان الامـــة المضطهِدة ، التى انتقلت الى طريق التطور الاشتراكـى ، هى التى قدمت العون الكبيــر للشعوب المتخلفة من الناحية الاقتصادية والثقافية . وقد قام الشعب الروسى بالتنفيذ المتسق لتوجيهات لينين حول اممية الامة الكبرى ، التى «ينبغى الا تقوم فقط فى مراعاة التطور الشكلى للامم ، بل وفى تفاوت ، يمكن له ان يعوض من طرف الامة المضطهِدة ، الامة الكبرى ، عن التفاوت الذى تكون فعليا فى الحياة» * * . وقد **قامت الطبقة العاملة الروسية ، الشعب الروسى ، بتضحيات كبيرة وببطولة حقيقية باسم تذليل تخلف الاطراف القومية** . وليس بالامكـان التشكيك فى الحقيقــة الجلية ، الا وهى ان انتصار اسلوب الانتاج الاشتراكى ، خلال حقبة تاريخية قصيرة جدا ، فى كافة ميادين الحياة الاقتصادية لكافة جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، انما جاء ، فى الكثيـر منه ، بفضل حسن تأدية الطبقة العاملة الروسية لواجبها الاممى ازاء الشعوب التى كانت القيصرية تضطهدها . وصارت الملكية العامة لوسائل الانتــاج ، ومنظومة الاقتصاد الاشتراكيـــة ، **الاساس الاقتصادى** للتطور القوى وللتقارب المتزايد لامـــم الاتحاد السوفييتى وشعوبه ، اساس تحولها الى امم وشعوب اشتراكية .

وكان حل مهام التطور الاقتصادى الاجتماعى للامم والشعوب يتطلب نهوضا عارمـا بمستوى الكادحين الثقافى التكنيكى ، و«انقلابا كاملا ، حلقة كاملة من التطور الثقافى لجمهور الشعب

---

* **الحرب الاهلية فى روسيا فى اعوام ١٩١٨-١٩٢٠** ـ قتال العمال والفلاحين الكادحين ، بقيادة الحزب الشيوعى ، دفاعا عـــن انجازات ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ضد قوى الثورة المضادة .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، ص ٣٥٩ («حول مسألة القوميات او حول «الاستقلال الذاتى»») .

كله» * . فالثورة الثقافية ، التى جرت فى الاتحاد السوفييتى ، وفرت تحويرا نوعيا لمجمل الحياة الروحية للامم والشعوب على ارضية اشتراكية ، وتصفية لتفاوتها الثقافى الفعلى . وصارت الماركسية اللينينية **الاساس الفكرى النظرى** لتطور الامم والعلاقات القومية .

ان انتصار الاشتراكية فى الاقتصاد وفى الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية لامم وشعوب الاتحاد السوفييتى قد حولها الى امم وشعوب من نوعية جديدة تماما ، الى امم وشعوب اشتراكية ، تختلف جذريا عن الامم والشعوب فى المجتمع الرأسمالى ، بارضيتها الاقتصادية وتركيبها الطبقى وتطورها الثقافى ومعالمها الروحية .

وان **تحول امم** المجتمع البرجوازى الى امم اشتراكية يندرج فى مضمون العملية الثورية العالمية عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . وتتميز الامة الاشتراكية بروابطها الاممية الواسعة والعميقة بالامم الاشتراكية الاخرى ، بالصراع العالمى للاشتراكية مع الرأسمالية . ثم ان اهم سمات الامم الاشتراكية هو تعاونها الاخوى على اساس مبادئ الاممية الاشتراكية ، وتطويرها للوحدات الاممية الجديدة ، مثل الشعب السوفييتى واسرة الشعوب الاشتراكية .

وهذه التغيرات الجذرية فى ماهية الامة تتطلب ، فضلا عن التعريف العام للامة ، تعريفات متمايزة لمختلف الانماط الاجتماعية من الامم . ومن ذلك انه يجب ان يتضح من تعريف الامة الاشتراكية تعذر النظر اليها باعتبارها مجرد امتداد للجماعة القومية السابقة . صحيح انها تظل تحتفظ بوحدة الارض واللغة والسمات الاتنية (وان كانت هذه السمات تتطور ، هى الاخرى) ، ولكن تظهر لديها خصائص نوعية جديدة تماما .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، ص ٣٧٢ («حول التعاون») .

وعليه ، فان الامة الاشتراكية هى وحدة اجتماعية جديدة ، نمت من امة او شعب المجتمع الرأسمالى فى مجرى تصفية الرأسمالية وبناء الاشتراكية ، يحتفظ افرادها ببعض السمات الاتنية لجماعتهم القومية السالفة (وان كانت تتطور هنا تطورا نوعيا جديدا) ، ولكن تغير جذريا ، على اسس اشتراكية واممية ، مجمل نمط حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية .

وفى هذا التعريف تتوحد السمات الاتنية للامة مع مضمونها الجديد . ولكن خصوصية هذه الوحدة تقوم فى ان الانقطاع فى تطور الماهية الاجتماعية الطبقية للامة يمتزج بالاتصال النسبى لتطورها الاتنى . ثم ان السمات الاتنية للامة ينبغى اخذها بالاعتبار فى السياسة القومية ، وخاصة فى البناء الثقافى ، ولكن المبالغة بدور الاتنى فى الامة ، وعزله عن الاجتماعى ، يحجبان الماهية الاجتماعية للامة ، فيردانها الى عوامل طبيعية-فيزيائية .

ويبين تحول الامم الرأسمالية الى امم اشتراكية (وليس فقط فى المانيا الديمقراطية ، بل بصورة عامة) ان تجاهل الفارق بين مفهومى «الامة» و«القومية» يؤدى الى عدم فهم الاختلاف النوعى الجذرى بين الامم الاشتراكية وامم المجتمع البرجوازى .

الفهرس

المقدمـــة ٣
الفصل الاول . الاشكال ما قبل القوميـــة لاجتماع الناس . ٧
١ – ديالكتيك صيرورة الانسان والمجتمع . . ٧
٢ – العرق والنزعة العرقيـة ٢٩
٣ – القبيلة والشعب ٥٣
الفصل الثانى . الأمـــة ٦٣
١ – نشوء الامة وماهيتها ومكانها فى التاريـخ . ٦٣
٢ – الظروف الموضوعية لتشكل الامة ومؤشراتها الاساسيـة ٦٩
الفصل الثالث . اللغة واللغات القوميـــة ٨٣
١ – ظهور اللغات القومية ٨٤
٢ – اللغة والنفسية ٨٩
٣ – اللغة والتفكير والوعـى ٩٤
٤ – وحدة اللغة والوعى ١٠٤
الفصل الرابع . السمات القومية للتكوين النفسى . . . ١١١
١ – نقد النظريات السيكولوجية فى الامـة . . ١١١
٢ – الواحدية الماركسية فى فهم النفسية البشرية وسماتها ١٣٠
٣ – السمات القومية للنفسيـــة فى ضوء نظريـة الانعكاس اللينينية ومعطيات السيكولوجيـا العلمية ١٤١
الفصل الخامس . ثقافة الامة والسمات القومية للثقافـــة . ١٥٩
١ – تطور البشرية الثقافى والسمات القوميـــة للثقافة ١٦٠
٢ – الاممـــى والقومـــى فى الحيـــاة الروحيـــة . ديالكتيك المضمون الطبقى والسمات القومية لاشكال الثقافة ١٧٤
الفصل السادس . وعى الذات القومى ١٨٤
١ – دور وعى الذات القومى (الحقيقى والمزيف) فى الحياة الاجتماعيـــة ١٨٤
٢ – الوطن والوطنية ١٩٦
٣ – الجوهر الطبقـى والدور الرجعـى لتشويـه

وعى الذات القومى ٢٠٣
الفصل السابع . الطبقات والامة والقومية ٢١٠
١ – الامــة والطبقــات . فى الوحدة القوميــة ،
الحقيقية والزائفة ٢١٠
٢ – الامة والدولــة ٢١٧
٣ – الامة والقوميــة ٢٢٥
الفصل الثامن . الثورة الاشتراكية وحل المسألة القومية . . ٢٣٤
١ – المبادئ اللينينية فى حل المسألة القوميــة . ٢٣٥
٢ – تشكل الامم والشعوب الاشتراكية . . . ٢٤٤

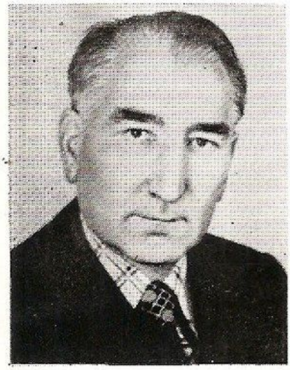

البروفيسور سورين كالتاخشان - باحث سوفييتي ، دكتور فى العلوم الفلسفية ، يشتغل بقضايا المسألة القومية ، وله اكثر من مئة بحث ، بينها سبعة كتب .

يبين كتاب الدكتور سورين كالتاخشان فى ضوء تحليل العمليات المعاصرة فى الحياة الاجتماعية والثقافة ، القيمة غير العابرة للنظرية الماركسية اللينينية فى الامة والعلاقات القومية . ويدرس المؤلف اهم مسائل ديالكتيك الاممى والقومى فى تطور الامم السوفييتية ، والشعب السوفييتى ، والاسرة الاشتراكية العالمية . وينتقد الكتاب النظريات المثالية والاجتماعية المبتذلة حول الامة والعلاقات القومية ، والنزعات العنصرية والشوفينية .

نظرية الأمة في الماركسية
FA:042--FL2 34.00